منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي
سلسلة الدراسات المترجمة - ٢٣

ملحمة
الحرب الليبية الرومانية

أو

مقاومة قبائل المغرب العربي للاستعمار الروماني



تأليف
فلافيوس كريسكونيوس كوريبوس

ترجمة وتحقيق
الدكتور محمد الطاهر الجراري

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

١٩٨٨

سكان / أدرار ن فساطو

ⴰⴷⵔⴰⵔ / ⵏⴰⵙⵙⴰⵟⵓ

ملحمة

الحرب الليبية الرومانية

منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي
سلسلة الدراسات المترجمة - ٢٣

ملحمة الحرب الليبية الرومانية

أو

مقاومة قبائل المغرب العربي للاستعمار الروماني

تأليف

فلقيوس كريسكونيوس كوريبوس

ترجمة وتحقيق

الدكتور محمد الطاهر الجراري



الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

١٩٨٨

FLAVII CRESCONII CORIPPI

IOHANNIDOS

SEV

DE BELLIS LIBYCIS

LIBRI VIII

EDIDERVNT

IACOBVS DIGGLE

COLLEGII REGINALIS
CANTABRIGIENSIS SOCIVS

ET

F. R. D. GOODYEAR

LITTERARVM LATINARVM
IN VNIVERSITATE LONDINIENSI
PROFESSOR

رقم الايداع : ١٩٨٨/٤٨٥ - دار الكتب

مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي

ص.ب : ٥٠٧٠ طرابلس

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

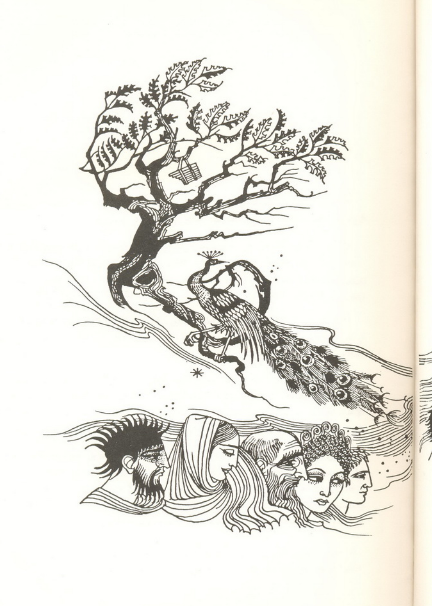


المحتويات

الرسوم الـواردة في هـذا الكتـاب مـن عمـل الـرسام كـوردون ليـت
وهي مأخـوذة عـن كتـاب FOURTH YEAR LATIN
لمؤلفـه CHARLES JENNEY المنشور في بوسطن عام ١٩٦٨







مقدمة المترجم للكتاب

لا نعرف الكثير عن الشاعر وكل ما نعرفه يأتي من عملين شعريين له وهما ملحمة الحرب الليبية الرومانية ، وقصيدة طويلة في مدح الأمبراطور جستين (In Laudem Justini Augusti Minoris).

والاسم الكامل للشاعر هو « فلفيوس كريسكونيوس كوريبوس » (Flavius Cresconius Corippus) وفي مخطوطة مدريد يرد اسمه كالآتي كوريبوس النحوي الافريقي (Corippus Africanus Grammaticus) ، وقد خلط البعض بينه وبين قسيس باسم «كريسكونيوس» (Cresconius) . عاش في القرن السابع وألف ما يعرف بالاتفاقات المقدسة (Concordia Canonum)

ألف كوريبوس عمله الثاني حول الأمبراطور جستين ، فيما بين سنتي ٥٦٦ م وسنة ٥٦٧ م ، وكان ذلك في سن متقدمة ، كما يشير هو نفسه في مقدمة لهذا العمل ، عليه يمكن أن نعتبر العقد الأول من القرن السادس الميلادي كتاريخ لميلاده .

والشاعر مغربي[1] الأصل والمولد وذلك بسبب اللقب المعطى له «الأفريقي (Africanus)» وأيضاً لعلمه الواسع بالمغرب وقبائله . كما يتضح ذلك من ملحمة الحرب الليبية الرومانية . لا نعرف مكان ميلاده لكن الأغلب انه كان ريفي المولد والنشأة بعيداً عن المدن الكبرى . في مقدمة ملحمته يذكر بأنه يجهل المدن وأهلها الذين يتوجه لهم بشعره الآن ، وان تجربته الأولى كانت مقصورة على المناطق الريفية .

وكغيره من أبناء شمال افريقيا ذلك الوقت لا بدّ انه تعلّم اللاتينية عن طريق القنوات الرسمية وربما صار فيما بعد مدرّساً لها كما يفهم من لقب «النحوي(Grammaticus)» المعطى له في مخطوطة مدريد ، ولا يوجد أي دليل آخر على اشتغاله بالتعليم سوى هذا اللقب الذي قد لا يعني بالضرورة انه اشتغل بالتدريس ، وانما أعطي له لكثرة المحسنات البديعية والقدرة اللغوية التي أظهرها في ملحمته . وهذا تقييم لا يخلو من كثير من الصواب خصوصاً اذا قورنت الملحمة بقية الانتاج الأدبي اللاتيني المتأخر .

---

(١) نعني بالمغرب العربي كل منطقة الشمال الافريقي من غرب مصر حتى الشواطىء الاطلسية لبلدان الغرب العربي (انظر الهامش رقم(١) صفحة ٣٣).

وهناك من يرى أنه اشتغل[1] بالشعر وارتزق منه عن طريق التأليف والالقاء ويستكثرون عليه مهمة التدريس ويستدلون على ذلك بصفة «الجاهل Ignarus» التي يصف هو بها نفسه في مقدمة ملحمته، وبرغم أن هذا قد يكون من باب التواضع لا غير، إلا ان ما بين أيدينا من مخلفاته الشعرية وسيرته الذاتية تؤكد انه سخر بالفعل ملكته الأدبية للاسترزاق من الشعر، في أثناء تجواله تقابل مع قائد الحملة البيزنطية يوحنا المرسل من قبل الأمبراطور «جستنيان» لفرض الاستعمار البيزنطي على شمال افريقيا من جديد.

ولا يمكن الجزم بمكان التقابل، لكن الكاتبة «كاميرون (A. Cameron)» ترجح احدى مدينتين «لاريبوس (Laribus)» أو «يونكيس (Iuncis)». وذلك استناداً الى دقة الوصف الذي خصهما به كوريبوس.

والأغلب ان صداقة منافع متبادلة قد نشأت بين الاثنين، فالشاعر في حاجة الى دعم مادي ومعنوي والقائد البيزنطي في حاجة الى إعلام يسهل مهمته وعمل أدبي يخلّد شهرته.

وهكذا تولدت لدى الشاعر فكرة تأليف ملحمة تمجّد الاستقرار الذي ستنشره السلطة البيزنطية القوية حسب رأيه وترفض الفوضى الناجمة عن الحروب، ولتحقيق ذلك تغاضى الشاعر عن كل سلبيات الاستعمار البيزنطي مثل فقدان سلطة القرار والاضطهاد الديني والادارة السيئة والضرائب الفادحة، وركّز كلّ جهده في تبرير تواجد السلطة البيزنطية القوية التي ستفرض الاستقرار الذي سيحقق طمأنينة المواطن وزيادة انتاجه حسب رأي المؤلف.

ولا بدّ أن الشاعر قد رافق القائد يوحنا في أكثر من اتجاه لمعايشة الوقائع ولدراسة شخصية البطل الذي يكتب عنه، وكان ذلك طوال فترة الحملة التي استمرت من سنة ٥٤٦ م الى سنة ٥٤٨ م، لهذا جاءت الملحمة غنية بالمعلومات الأولية شبه الصحيحة والفريدة عن بطل الحملة وعن معاونيه وعن سيرها وعادات وأسماء المشتركين فيها، مما يعطي لملحمة الحرب الليبية الرومانية أهمية كبرى من الناحيتين التاريخية والاجتماعية، خصوصاً فيما يتعلق بالقبائل المغربية.

وكان الفراغ من التأليف سنة ٥٥٠ م على الأرجح حيث ألقيت في احتفالات النصر بقرطاج كما يستدل من المقدمة ومن الكتاب الأول البيت التاسع.

بعد هذه السنة تنقطع عنا أخبار الشاعر ولمدة عشرين سنة تقريباً حين نسمع عنه مرة أخرى يلقي قصيدة طويلة في حفلة تتويج الامبراطور جستين الثاني في ١٤ نوفمبر سنة ٥٦٥ م ببيزنطية.

لا يمكن الجزم بتاريخ سفره من قرطاجة الى بيزنطية لكن الأغلب ان ذلك تم بعد الاستماع للملحمة حول الحرب الليبية الرومانية، وربما كان سفره مكافأة له على ذلك القصيد المادح للقائد يوحنا وللسلطة البيزنطية بشكل عام.

(١) B. Baldwin, "The Career of Corippus", **The Classical Quarterly,** Vol., XXVIII (1978), p. 372 f.

وعند قراءتنا لقصيد حفلة تتويج جستين الثاني نستشف سوء حالته الاقتصادية التي لا تدلّ على انعامات امبراطورية كبيرة عليه ... في مقدمة هذا القصيد يشتكي من الفقر وكبر السن (الأبيات ٤١ — ٤٩)، الأمر الذي دفع الاستاذ بالدوين[١] وآخرين الى القول بأن سفره الى بيزنطية لم يكن إلا تحت إلحاح الحاجة، مما يسوق بالضرورة الى القول بأن ملحمته عن الحرب الليبية الرومانية لم تلق النجاح المطلوب، حيث انها لم تتضمن الكثير عن الأمبراطور جستنيان، وبالتالي لا توجد مبررات شخصية لدى الأمبراطور لمكافأة الشاعر، كما ان الممدوح الرسمي وهو يوحنا تروقلينا لم يتمتع بالمكانة الكبرى داخل القصر كي نفترض انه كان قادراً على التأثير على الحاشية أو الأمبراطور لمكافأة الشاعر. والدليل هو سفره طلباً للرزق وتصريحه هو شخصياً بالفقر في مقدمة عمله عن جستين الثاني.

وترى السيدة كاميرون[٢] وغيرها ان ذلك غير صحيح وان الأمبراطور جستيان قد كافأ الشاعر على قصيدته بمنصب في قصره ببيزنطية، مستدلين على ذلك بقصيدته الثانية (الأبيات ٤٢ — ٤٨) في مدح جستين الثاني حيث يشير الى انعامات أمبراطورية (Sacri Apices) إلا انه يجب الاشارة الى أن هذه الجملة بالذات خصوصاً في اللاتينية المتأخرة صارت تعني أكثر من إنعامات ويمكن قراءتها وتفسيرها على أنها أعمال أدبية أو تأليف كما ترى الأستاذة كاميرون، والدفع الوحيد الذي يمكن أن يلقى في وجه هذا الاعتراض هو أن قوانين جستيان، ولغتها معاصرة للغة شاعر، تستعمل فقرة (Sacri Aspices) بمعنى انعامات أمبراطورية، أما شكوى الشاعر بالكبر فهذا أمر طبيعي عادي، وشكواه بالفقر مرده رغبته الواسعة في الحصول على الأكثر دائماً، وتشجيع الممدوح الجديد وهو جستين الثاني على زيادة العطاء له.

هذا كل ما نعرفه عن الشاعر «كوريبوس»، أما عن عمله الذي بين أيدينا فهو ملحمة الحرب الليبية (De Bellis Libycis) وأحياناً تسمى اليوحانية ((Johannis)) نسبة الى بطلها يوحنا، وفي بعض النسخ يطلق عليها اليوحانية الحروب الليبية (Johannis Seu De Bellis Libycis)

ويعود أقدم مخطوط وجد لها الى القرن الرابع عشر الميلادي وكان تحت اسم Codex Trivul) tianus) ذو حظ سيّئ ووضع متهرأ، وفي سنة ١٨٢٠ خرجت أول طبعة له وتولاها الاستاذ مازوكيلّي (P. Mazzuchelli) صاحب الفضل في العثور عليها، وخرجت طبعته غير وافية وبدون ملاحظات علاوة على بعض الأخطاء الجغرافية والسكانية.

وفي سنة ١٨٣٦ أخرج الاستاذ بيكر (Bekker) طبعة جديدة لها، وذلك ضمن موسوعة مصادر

(١) بلدوين
B. Baldwin, "The Career of Corippus", **The Classical Quarterly**, Vol. XXVIII (1978), Oxford, p. 372 - 6.

(٢) كاميرون
A. Cameron, "Corippus Johannis: Epic of Byzantine Africa", **Papers of the Liverpool Latin Seminar**, Vol. IV (1984).

التاريخ البيزنطي ، وفي سنة ١٨٧٩ أعيدت طباعة الملحمة مرة أخرى من قبل الاستاذ الألماني بارتش (Partsch) ، وفي سنة ١٩٧٠ أخرجت آخر طبعة منقحة للمخطوط ، وقام بها كل من يعقوب ديل وجودير (F.R.D. Goodyear) ، وهي التي اعتمدنا عليها في هذه الترجمة التي بين أيدينا .

وتتألف الملحمة من ثماني فصول أو كتب كما يطلق عليها صاحبها وهي ناقصة النهاية وقد تمحور نسيجها الأدبي حول وقائع تاريخية ثابتة وهي الحملة البيزنطية لإعادة استعمار شمال أفريقيا سنة ٥٤٦ وسنة ٥٤٨ م) .

وكوريبوس مؤرخ أكثر منه كاتب ملاحم . فالوقائع التي كتب عنها هي أحداث عاصرها معاصرة ملاحظ جادّ الملاحظة ... وسجلها تسجيلاً شبه حرفي ، أما أحداث ما قبل الملحمة فقد استعيدت على لسان ليبيراتوس تشيشيليدس (Liberatus Caecilides) أحد معاوني يوحنا ... وبسبب هذه الواقعية اعتبر عمله أهم مصدر لنا عن شمال افريقيا بعد عملَي بروكوبيوس وهيريدوت ، وهو أعلم منها بالقبائل المغربية : خصائصها ، عاداتها ، أماكن تواجدها ، وسائل حروبها ، تقاليدها المعيشية والاجتماعية ، مما يجعل ملحمته المصدر الوحيد لنا لدراسة شمال افريقيا القديمة خصوصاً فيما يتعلق بأسماء القبائل وهو عكس سيليوس أتاليكوس (Silius Italicus) ، الذي وصف لنا العديد من الأسماء الخيالية ، كل ذلك يجعل من عمل كوريبوس المصدر الاجتماعي الموثوق لكثير من المؤرخين والكتّاب .

وبرغم كل هذه التزكيات إلا انه يجب التذكير بأن الملحمة ليست كلها حقائق تاريخية بل تحتوي على الكثير من المبالغات التي قد تقتضيها أحياناً ضرورات العمل الملحمي كالمزج بين التاريخ والخرافة ، كما في الموقف الذي يصف فيه مرور الأسطول البيزنطي أمام موقع مدينة طروادة القديمة حيث تردّد على مسمع بطرس ، ابن بطل الملحمة يوحنا أسماء شخصيات المدينة القديمة من أمثال برايم (Priam) وأخيليس (Achilles) وهكتور (Hector) وغيرهم . وكل ذلك باستغراب وتعجب طفولي واضح ، وبالملحمة مبالغات متطرفة كما في الفصل الخامس الأبيات (١٠٤ أو ٥١٣ ، وكذلك الفصل السابع البيت ٣٤٨) .

ولكن برغم هذه المبالغات المنتشرة هنا وهناك ، إلا ان كوريبوس قياساً على زمانه يعتبر من شعراء الملاحم الفطاحل فهو بارع في أوصافه الشعرية مثل وصفه للهروب الليلي للمغاربة (الكتاب السادس البيت التاسع) أو صف حالة الاحتفال لإله الحرب (الكتاب الثامن البيت ٣١٨ وما بعده) . وكوريبوس بارع في ايجاد أوصاف لأبطاله (الكتاب الرابع البيت ١١٤ والكتاب الثامن البيت ٤٩٦) . وتكمن عبقرية الشاعر في التشبيه والمقارنة حيث تظهر قوة إحساسه وتفاعله مع الطبيعة وسعة وخصوبة خياله فهجوم الليبيين على الأعداء أشبه بهجوم الجراد (الكتاب الثاني البيت ١٩٦) .

وأسلوب كوريبوس واضح لحد كبير وهو كثير الاستعمال للجمل القصيرة وكثيرة التكرار للأفكار والكلمات ، مولع بذكر التفاصيل حتى الدقيقة منها وينسى في سبيل ذلك نفسه أحياناً فيطنب في الوصف لدرجة الملل .

والمؤلف مغرم بالتضاد وبيان التطرف في النقائض : الخير والشر ، القوة والضعف ، الشجاعة والجبن . ولتحقيق هذه الغاية تنتفي صفات الأفراد الشخصية ويتحولون الى رموز لمتناقضات أخلاقية أو جسدية . فالمقارنة بين الليبي أو المغربي والبيزنطي هي مقارنة بين الشر المطلق والخير المطلق بغضّ النظر عن الفروقات الفردية .

وربما لهذا السبب تصبح أعماله عبارة عن لوحات فنية تراعى فيها كل التفاصيل المتممة للوحة بغضّ النظر عن فروقاتها الواقعية . فموكب يوحنا بقرطاج ما هو الا محاولة لرسم لوحة لعظمة أبطال بيزنطية وقيمهم الحضارية .

وواضح تأثر كوريبوس بالشعراء الكلاسيكيين من أمثال فرجيل الذي يبرز أثره حتى في التركيب الخارجي . فيوحنا هو انياس ، وابن يوحنا بطرس هو كابن ايفاس اسكانيوس وتعداد قبائل المغاربة في الكتابين الثاني والرابع هي مناظرة لما عند فرجيل في الألياذه .

ومن الشعراء المتأثر بهم كوريبوس أوفيد (Ovid) ولوكان (Lucan) وكلاوديان (Claudian) كشعراء ملحميين ، أما الشعراء الغزليين فيأتي في مقدّمتهم كتليس (Catullus) الذي يكاد أن يقلّده حرفياً كما في الكتاب الرابع (البيت ٦٠٦) .

وعندما تستقبل زوجة أحد القادة وفاة زوجها فالصورة منقولة من الشاعر لوكان (Lucan) عند وصفه لواقع كورنيليا بعد سماعها بهزيمة زوجها بومبي في معركة فرساليس .

ومن المميزات البارزة في ملحمة كوريبوس هو غياب الهة أولمبس عن مسرح الأحداث . ومرجع ذلك ليس فقط الواقعية التي تميزت بها الملحمة ولكن أيضاً لكون الشاعر مسيحياً لا يؤمن بتلك الآلهة . فباخوس (Baccus) ومارس (Mars) وتيتس (Thetis) وفولكانوس (Volcanus) لا يبرزون إلا عبر التعبيرات المجازية أو الاستعارة ، وحتى عندما يؤتى بهم يوضعون في صيغة الماضي في أغلب الأوقات .

اجتماعياً كوريبوس من شريحة ملاك الأرض ، لهذا نجده متحيز لهم ضد البيزنطيين وحتى ضد بني قومه من الليبيين الرحّل ، وهو لا يخفي كرهه للحرب لما تجلبه من فوضى وتعطيل للانتاج .

وبرغم تحيّز الشاعر الواضح للسلطة البيزنطية إلا ان وطنيته تغلي أحياناً وفي أكثر من موضع ، في الكتاب الثاني (البيت ٨٥) وما بعده يؤكد بأن كل القبائل الليبية قد اتّحدت لمحاربة الأجانب الذين هم البيزنطيون .

كما انه في نهاية الكتاب السابع يعلن بأن الحق بجانب القوى الخيّرة الرافضة للاستعمار وبأن الله سينصر في النهاية المدافعين عن أرضهم ضد الاستعمار البيزنطي .

هذه بعض الملاحظات العامة حول الملحمة وفي الكتاب الذي هو قيد الإنجاز هنالك دراسة وافية لكل النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والجغرافية والأدبية التي حوتها الملحمة.

وبالله التوفيق...

د. محمد الطاهر الجراري

مقدمة المؤلف للملحمة

أعتزم ، أيها الأمراء النبلاء ، الترنم بأكاليل النصر ، والتغنّي بأغاني الفرح في وقت يعبق ١ / ١٩ بالسلام ، لقد اخترت للكتابة عظمة يوحنا في الحرب ، وإنجازات هذا البطل لتقرأها أجيال المستقبل ، إذ بالأدب وحده تخلد الأشياء في هذا العالم المتغيّر ، وتستذكر كل معارك القادة الغابرين .

من كان سيعرف العظيم ايناس[١] ؟ أو القاسي أخيليس[٢] أو الشجاع هيكتور[٣] ؟ أو من كان سيعرف خيول ديوميدي[٤] (Diomede) وصفوف معارك بالاميدس[٥] (Palamedes) أو من كان سيسمع عناوليسيوس[٦] ؟ لو لم يخلد الأدب أعمالهم القديمة ؟ لقد وصف منشد سميرنا (Smyrna) [٧] الشجاع أخيليس ، وصنع فرجيل بالغناء وصفاً لاينياس . وتحركني إنجازات يوحنا لتخليد معاركه وتسجيل أعماله ذكرى للرجال الذين لا زالوا في رحم الغيب ، يوحنا أعظم من اينياس وأكثر إقداماً ، لكن أغنياتي أقلّ إبداعية من أغاني فرجيل ، ان أعمال القائد العظيمة وشجاعته ، والحروب التي خاضها تعري كلها طيشي .

---

(١) اينياس (Aeneas) ابن انخيسيس (Anchises) وأفروديت (Aphrodite) هرب من طروادة بعد حرقها صحبه واده ، وانتهى به تطوافه الى ايطاليا حيث صار الأب الأعلى لكل الرومان .

(٢) أخيليس (Achilles) ابن بيليوس (Peleus) وتيتس (Thetis) أشجع أبطال الاغريق خلال حرب طروادة .

(٣) هيكتور : (Hector) أشجع المدافعين عن طروادة ضد الغزو الاغريقي .

(٤) ديومودیس : (Diomedes) أحد المدافعين عن طروادة .

(٥) بالاميدس : (Palamedes) اتهمه أوديسيوس بالسرقة وحكم عليه وقتل رجماً بالحجارة .

(٦) أوليسيوس : هو أوديسيوس (Odysseus) ابن ملك اتيكا باليونان وقد وصفت مغامراته في ملحمة هومر المعروفة باسمه .

(٧) منشد سميرنا : يعني هومر .

(٥) أرقام تحدد عدد الأبيات الشعرية في الأصل اللاتيني .

٢٠ / ٤٠ إنه لحظ عاثر لشاعر يترنّح في مسارات ضيقة : ففي هذا الجانب يلمع النصر أخاذاً وفي الآخر يقف الخوف شاحباً ، لكن منظومة أعماله المجيدة تحركني للغناء ، وإنجازاته تحفزني على الرغم من ضعف موهبتي ، بأغنية ركيكة ، وعجز مقعد للسان داخل حلقي . أتغنى بعبقرية قادتنا ، والأكثر من هذا أأستطيع أنا الذي أسمعت الريف فقط أناشيدي ، أن أبث أغنياتي . رغم جهلي صداحه ، داخل المدينة ؟

وأعترف بأنه ربما يخرج مقطع ضمن شعر متواضع وذلك لريفية ملكتي الشعرية ، لكن من المؤكد أن مجداً يجب أن يطوق غناء المديح : أيصح أن أحرم وحدي من هذا الجزاء وأمتنع عن الغناء نهائياً ؟ ... ان الخوف الذي طرد من قلبي قد حرّك شفاتي بالغناء ، والشعر الذي قد يحرمه الجهل سيهبه النصر ، وفرحتنا الغامرة ستنجدني رغم قلقي على جودة أغنيتي .

اذا كانت قرطاج ترفل وسط أفراح انتصاراتها الكثيرة فالأدعى في أحقّية بعضها لنفسي معتمداً على تسامحكم معي .

وبينما تحاول قدراتي الشعرية المتواضعة منافسة شاعر روما الأقدر ، فإن شهرة قائدنا تحلّق وسط النجوم العالية ... واذا كان من دواعي سعادتك أن أردد أمامكم أبيات كتابي الأول ، فإني سأغني تنفيذاً لأوامرك أول أغنياتي .



الكتاب الأول

إنّني أشدو بأغنياتي لقادة الحرب ورجالها، وأغني للأمم المتوحشة وللدمار الذي تخلّفه الحروب، إنّني أغني للخيانة ولمصرع الرجال وما يلاقونه من عنت ومشقة. إنّني أغني للكوارث التي حلّت بليبيا وللعدو الذي كسرت شوكته، أغني للجوع والعطش اللّذين أوقعا جيشين في اضطراب مميت، إنني أغني للدول التي وقعت فريسة للإضطراب والفوضى، وتدهور بها الحال وغلبت على أمرها، وأتغنى بقائد يتوج أعماله بانتصار عظيم. ١ / ١٠

كرة أخرى، فإن آلهات الغناء يحببن أن يغنّين لأبناء اينيياس (Aeneas)[١] فلقد عاد السلام الى ربوع ليبيا بعد أن توقفت الحروب. إن النصر يقف شامخاً راسخاً وجناحاه يتألّقان

(١) إينياس(Aeneas) ابن انشيسيس(Anchises) وأوفروديت(Aphrodite) الذي فر من طروادة مع والده زمن حرق الأغريق لها. زوجته تعرف بأسم كريوسا (Creusa) وابنه يسمى اسكاليوس أوليسيوس (Julus) انتهى به تجواله في إيطاليا حيث صار الجد الأكبر للرومان.

١١ / ٣٧ لمعاناً. الآن، ترنو الآلهة للأرض من السماوات العلى. إن الآلهة (هرمونيا (Harmony)*) المرحة التي تبسط علينا حمايتها وهي في صحبة ألهة العدالة، لتفتح لنا ذراعيها لتعانقنا ولكي تشكّل العالم من جديد. وأنت أيها الأمبراطور جوستينيان[٢] العظيم الجليل بينها، تنهض من فوق عرشك الشامخ لكي تستقبل انتصاراتك، ولكي تسنّ، وأنت المنتصر السعيد، القوانين التي تحكم الطغاة المهزومين، إن قدميك الكريمتين تطآن جميع الملوك وتزهو البلاغة بأن تكون في خدمة الحكم الروماني. إن العدو يجثو الآن تحت قدميك مهزوماً مدحوراً، وتلتزم القبائل بمواثيق قاسية، وتقيد الحبال أيديهم خلف ظهورهم بإحكام وقوة، وتعنوا أعناقهم القاسية تحت وطأة السلاسل.

لو أن لي مائة فم لكي أغني بأغنيات مائة قلب، فإن روحي سوف تقصر عن هذا لافتقاري للموهبة التي تمكنني من أن أشدو بهذه الأغنيات، التي تتجاوب أصداؤها في جميع صحاري الأرض. جلّ ما أستطيع هو أن أمس قمم هذه الموضوعات، والتي هي جديرة بعاطر الثناء ووافره.

كانت أفريقيا المرهقة ترزح تحت وطأة خطر داهم، ذلك أن نوبة من الجنون الوحشي تأججت نيرانها، تزهو بأسلحتها المغربية، وتدفع بالرجال والسلاح لتشعل النار في جميع المدائن في الأرض الملتهبة وتجر وراءها الأسرى من كل مكان في أفريقيا. كانت الأمور تمضي عمياء لا تمييز، لم ينج أحد من شرورها ولم يستطع أحد أن يقيم للموتى من كبار السن ما يستحقونه من مراسم الدفن. لقد كانت جثث القتلى ملقاة وقد تشابكت فيها السيوف، ولم يكن يسمح لابن أن يواري جثمان أبيه القتيل تحت الثرى، أو حتى أن يذرف على جروحه

* الالهة هرمونيا (Harmonia) ابنة الالهة آريس والالهة افروديايت (Aphrodite) وتزوجت بالإله كادموس (Cadmus) وفي حفل زواجها أهدتها أمها عقداً حمل اللعنة لها ولأبنائها من بعدها والذين من بينهم أوديب وذريته.

(٢) الأمبراطور جوستينيان (Justinian) ٥٢٧ — ٥٦٥م: أحد أباطرة الدولة الرومانية المتأخرة وزوج السيدة تيودورا (Theodora) التي كان لها عليه نفوذاً كبيراً كما يروي المؤرخ بروكوبيوس. سعى جوستينيان لاستعادة مجد الأمبراطورية الرومانية ولكن على أسس مسيحية. وقد انشغل خلال حكمه بحروب في شرق وغرب الأمبراطورية للوصول لهذا الهدف. فكانت له حروب مع الفرس (٥٢٧ — ٥٣٢) انتهت بالصلح. واستعاد شمال افريقيا من الوندال بعد حروب طويلة من ٥٣٣ الى ٥٤٣م كما استعاد إيطاليا بعد حروب طاحنة مع القبائل الجرمانية (٥٣٦. ٥٥٤م). أهم اصلاحاته الداخلية هي كتابة القانون الروماني، كما شجع الأدب والفنون والمعمار.

دموع الحزن. وعندما كان الأب يقتل، كان المغاربة يطردون الأم والأبناء وينهبون ممتلكاتهم، ٣٨ / ٦٤
لقد كانت القوى الشريرة لمارس [٣] إله الحرب تعمل بكل ثقلها، وكانت جثث الموتى الأبرياء تترك ملقاة في الأرض المهجورة. لقد حاقت الكارثة بالفقراء والنبلاء على السواء. كان الحزن يعمّ كل مكان، وكان الرعب والخوف يغرقان الناس جميعاً وسادت الفوضى البلاد كلها بسبب من هذه الأخطار الماحقة. فمن ذا سيكشف عن كل هذه الدموع التي سفحت والخسائر وأعمال السلب والحرائق والقتل والخيانة وأنات المظلومين وعذاباتهم والقيود التي كبّلتهم وعمليات الاغتصاب التي تعرّضت لها نساؤهم، أو من ذا الذي يستطيع أن يحصي هذه المآسي الفاجعة..؟ إن افريقيا ثلث العالم كانت تفنى وسط اللهيب والدخان.

لقد كان الأمبراطور الخيّر يحسّ في أعماق قلبه بكل هذه المآسي، وكان يفكر فيمن سيوفده الى شواطئنا قائداً لعسكره وقائداً أعلى لجيشه، تحقيقاً لأمله الشديد في وقف هذا الدمار العظيم. وفيما كان الأمبراطور يستعرض في خاطره كل هذه الأمور، كان يوحنا وحده يبدو الرجل المناسب شجاعة وحسن تدبير، كان الوحيد الذي يجمع بين الشجاعة والحكمة. لقد كان وحده القادر على مواجهة القبائل المتوحشة والتوّاق الى الحاق الهزيمة بكتائب الأعداء. ويقيناً، فإن الأمجاد التي حققها الرجل، والأعمال الجليلة البارزة التي أنجزها والإنتصارات التي أحرزها في حرب ضروس خاضتها مملكة تعتز بنفسها، كانت موضع رضى الأمبراطور. لقد تذكر كيف أنه نجح في طرد جحافل الفرس، وكيف أثخن البارثيان (Parthians) [٤] بالجراح وأخضعهم، رغم ثقتهم في قدرتهم على الصمود بفضل كثافة حشودهم ورماحهم. وحينذاك كانت الدماء تغمر كالطوفان حقول نيبيس (Nibis) [٥] الشاسعة بدماء الفارسيين ودم نابيدس (Nabedes) [٦] الذي كان يداني ملك الفرس مرتبة، والذي انضم اليه، اعتماداً على شجاعته الوحشية، ولكنه فقد حلفاءه في لحظة انتصاره. وحينئذ اضطر ملك فارس للفرار بدافع الخوف إلّا أنه لم يستطع أن يغلق بوّابات مدينته. واندفع الفرسان الرومان الى وسط

---

(٣) مارس Mars : اله الحرب عند الرومان.

(٤) البارثيان Parthians : سكان بارثيا بغرب آسيا.

(٥) نيبيس Nibis : مدينة بشمال منطقة العراق الحالية وتبعد حسب تقديرات بروكوبيوس Procopius بحوالي ٩٨ ستيدس من مدينة دارا الفارسية.

(٦) نابيدس (Nabedes) قائد فارسي.

٦٥ / ١٠٢ وادي نهر نيسيبيس (Nisibis) [١] ، وقام القائد المنتصر يوحنا بضرب بوابات الفرس العالية برمحه . لقد كانت جلّ هذه الأعمال الشجاعة التي قام بها الرجل المخلص تمر أمام عيني الأمبراطور ، فأخذ يتفكر ويتأمل في هذه الأعمال التى قام بها الرجل كيف ضرب الأعداء سياجاً حول مدينة ثيودوسيوبوليس (Theodosiopolis) وبدؤوا حصاراً خطيراً للمدينة ، وكيف نجح يوحنا بخفة وسرعة في أن يتسلل تحت جنح الظلام ويجلب العون لتحصينات المدينة المتداعية ، وكيف نجح في التسلل وسط حشود الأعداء حتى دخل بوابات المدينة ، حتى أن ميرميرويس(Mermeroes)[٧] الشديد البأس ، اضطر للتراجع عن أسوار المدينة في هلع ورعب ، ثم تجاسر بما في يديه من أسلحة على الاقتراب من مدينته (داراس) حيث كان القائد المظفر يلقي بأوامره لألويته التي كانت تحيط فتحات حصونها بجدار من الفولاذ اللّامع ، وتجاسر على أن يغري البطل اللّاتيني بالدخول في معركة معه . إلّا أن القائد ، بعد أن انتزع بفضل يقظته ومهارته أول مدينة من الأعداء ، أخذ في تعقب الهاربين ، وسدّ الطرقات أمامهم وحرر جميع الحقول ، خشية أن يدمرها العدو البغيض أو يلحق الأذى بأي كان . وقد استولى أول الأمر على استحكامات الأسوار العالية ، ثم لم يضيع الوقت ، فسرعان ما بدأ التقدم بجسارة نحو الأعداء في وسط الحقول وصرع أعداداً لا تحصى من الأعداء في معركة مظفرة . واضطر قادة الأعداء البارزين للهرب ، وسارعت القبائل لتعلن تحالفها معه ، اما ميرميرويس(Mermeroes) نفسه ، الملك الفارسي ، فقد باء بالهزيمة وأطيح به من على عرشه . وعندئذ لاذ جميع الفارسيين بالفرار خوفاً من الرومان الذين يتعقبونهم ، وأخذوا وهم يهربون يلقون بسيوفهم وأنواطهم اللّامعة . وكانت سيوفهم تلمع ، في خزي ، على طول السهل وعرضه . وتناثرت فوق أرض المعركة أغماد السيوف والحراب والدروع والخوذات ، وجثث الجنود والخيول وحملة أسلحة القادة . ولقد كان من الممكن أن يلقى قائد الأعداء نفس المصير لولا أن القائد العظيم النفس آثر أن يأخذه حياً ، لقد دخل مدينته العظيمة في رفقة بضعة من رفاقه ، مهزوماً مدحوراً ، وبعدئذ ، عندما وقع اختيار صاحب الجلالة الأمبراطورية على فاربيسيوس (Verbicius) أحد أفراد أسرته ومستشاره الأمين لشؤون الدولة ، فأوفده الى تلك الشواطىء

---

(٧) نيسيبيس(Nisibis) : منطقة بشمال غرب ايران.

(٨) ثيودوسيوبوليس (Theodosiopolis) مدينة بأرمينيا أسسها ثيودوسيس الثاني (Theodosius) لصد هجمات الأرمينيين.

(٩) ميرميرويس (Memeroes) ملك فارسي في تلك الفترة.

١٣٩/١٠٣ ليتعرف على أخطار تلك الحرب القاسية ، وقف الموفد وسط السهل وحمد الله. فعندما شاهد بعينيه جنود الرومان المنتصرين وهم يزحفون بأعداد غفيرة ، والأعداء المذعورين وهم يفرون عبر الحقول المخربة ، رفع يديه وعينيه للسماء وقال في حبور : «أيها الإله القادر على كل شيء ، لك المجد الخالد ، لقد أنعمت عليّ بأن قدّر لي أن أشاهد الفرس المهزومين على يد قائدنا الشجاع يوحنا».

ولقد قرّر الأمبراطور ، وهذه الأعمال الجليلة تمرّ على خاطره ، أن هذا الرجل هو الوحيد القادر بخبرته وكفاءته على الدفاع عن ليبيا في الوقت الذي كانت تعاني فيه من الظلم والقهر ، فلم يتردّد في استدعاء القائد من أقصى مكان في الأرض. وخلّف يوحنا وراءه البلاد والأعداء دون تردد أو انزعاج ، واتبع تعليمات الأمبراطور فيما يتعلق بطريق رحلته الى مياه الغرب ، وعاد منتصراً وطأت قدماه الدرجات الذهبية للبوابة الرومانية. ووقف بوقار وفرحة أمام أقدام الأمبراطور الذي أخذ يتطلع اليه. وسرعان ما أخذ يقبّل قدمي سيده الكريم. وهنا طلب منه الأمبراطور أن يسرد في إيجاز ما أنجزه من أعمال في الشرق ، فأفاض في وصف الحروب التي خاضها وأنهاها. وأعرب الأمبراطور عن أمله في أن يواصل ربيبه انتصاراته على الدوام ، ثم أرسله من فوره للمعاونة في الدفاع عن ليبيا.

وبأمر من الأمبراطور ، شحنت السفن بالجنود والمؤن والاسلحة ، ومن بين هؤلاء كان مجندون لا يجيدون فنون القتال ، ولكن كان عليهم أن يتعلموا من المعارك نفسها وأن يساهموا في أن تضع الحرب أوزارها تحت قيادة قائد عظيم. وفي ذلك الوقت كانت الرياح هادئة تدفع بأشرعة السفن الى الأمام وسط أمواج مواتية ، فأصدرت ثيتيس (Thetis) [(١٠)] أوامرها للبحّارة بالإقلاع داعية لهم بحظ سعيد.

وخاطب الأمبراطور العظيم التقى قائده قائلاً : «إن دولتي تحت حكمي تجيز المرء على قدر ما يقوم به من أعمال ، إنّها تساعد الجميع ، وتمنح أعلى الدرجات لمن يخدمها في اخلاص ، والآن استمع إليّ لتعرف أسباب تصرفاتي وأجعلها في خاطرك على الدوام. إن افريقيا المسكينة ترزح تحت وطأة العديد من الأخطار ، ويتردد صدى صرخاتها في مسمعي ، والواجب يدفعني

(١٠) ثيتيس (Thetis) إحدى حوريات البحر وعددهن خمسين وهن بنات اله البحر نيريوس (Nereus) وثيتيس هي زوجة بيليوس ووالدة البطل اخيليس.

١٤٠ / ١٧٦ الى مدّ يد المعونة لهذه الأرض المنكوبة. لقد اتخذت قراري أيها القائد الشجاع : فأنت قادر على معالجة الأمور في ليبيا. هلم بتحريك جيوشك وأعلامك وسارع إلى السفن وعندما تصل عليك أن ترفع الغبن عن أفريقيا بما عرف عنك من شجاعة، وأخضع بسلاحك المتمردين من اللواتيين (Languantan) [١١] . وأجعلهم يحنون أعناقهم الذليلة تحت أقدامنا بشجاعتك. والتزم أيضاً بمبادىء وتقاليد أسلافك القدماء، حرر المنكوبين ودمّر المتمردين. إن هذه هي مشيئتنا السامية : ألا تقتل من يستسلم، وهذه ذروة شجاعتنا، وأن تخضع القبائل المتمردة المغرورة، التزم بهذه الأوامر يا قائدي الشجاع النبيل، واعمل على تنفيذها وإنني أضرع الى المسيح، سيدنا ومولانا، أن يتكفل بالباقي، فتتغير الأمور الى الأحسن، وأضرع اليه أن يهديك في جميع أعمالك وأن يسبغ عليك نعمائه. وأرجو أن تضيف الى أمجادك مجداً جديداً بما تقوم به من أعمال ستعود عليك بألقاب أسمى.

وهنا جثا القائد وقبّل قدميه الشريفين، وبلّلها بسيل من دموعه. ورنا الأمبراطور بنظرة أبوية للقائد وهو يغادر المكان واهتزت جوانحه حزناً على فراقه.

وعندما اقترب القائد ذو الهمة العالية من سفن الأسطول أخذ يشجع البحارة الذين استقبلوه بالهتاف. ثم غادرت السفن الشاطىء وأخذت المجاذيف تهز صفحة الماء المرمرية، ثم أسرع البحّارة بنشر الأشرعة وأخذوا يجذفون بقوة وسط الصرخات العالية والأصوات المخيفة التي تصدر عن نشر الأشرعة، وأرخوا العنان للأشرعة، وأخذت الرياح تدفعها برقة وكانت قيعان السفن تخفي أعماق الماء، في حين حجبت مئات السفن سطح الماء عن الأنظار، وأبحر الأسطول عن طريق مضايق ثريشيا (Thracian) [١٢] حيث يفصل البحر سيستوس (Sestos) [١٣] عن حقول أبيدوس (Abydos) [١٤]، ثم شق طريقه بسرعة بين الأمواج منطلقاً وسط الرياح واقترب الأسطول من شاطىء طروادة الحزين وأعادوا للذاكرة قصائد شاعر سميرنا (Smyrna) [١٥] وأشاروا لأرض أجدادهم من فوق سطوح السفن العالية. كان هنا قصر

(١١) (Languantan) اسم لقبيلة لواتة.

(١٢) ثريشيا (Thracian) بلد يقع بأقصى الجنوب الشرقي لأوروبا ويفصلها عن آسيا مضيقي البسفور والدردنيل.

(١٣) سيستوس (Sestos) أهم مدن ثريشيا وأشهر موانيها.

(١٤) أبيدوس (Abydos) مدينة تقع على الشاطىء الآسيوي لمضيق الدردنيل وهي مواجهة لمدينة سيستوس.

(١٥) سميرنا (Smyrna) مدينة بآسيا الصغرى، يقصد المؤلف هنا الشاعر الكبير هومر (Homer) الذي تدعى مدينة سميرنا أنه من أبنائها وأنه ألف قصائده متغنياً بها على ضفة نهرها نهر ميلوس (Melos)



١٨٥ / ١٧٧



برايم (Priam) [١٦] وهنا مسكن أنيياس (Aeneas) الذي ينزوي بعيداً محاطاً بالأشجار ، وهنا قام أخيل القاسي (Achilles) [١٧] بجر جثمان هكتور (Hector) [١٨] مشدوداً الى عربته

(١٦) برايم (Priam) أحد ملوك طروادة وقتل أثناء حصارها المشهور.

(١٧) أخيل (Achilles) أحد أحفاد ايكوسي (Aeacus) وابن الالهة ثيتيس (Thetis) وأبوه الأمير بيليوس ويعتبر أشجع أبطال الاغريق أثناء حصارهم لطروادة. وعليه ترتكز ملحمة الألياذة للشاعر هومر.

(١٨) هكتور (Hector) ابن الملك برايم وأشجع المذافعين عن طروادة وقتل أثناء حصارها في المبارزة المشهورة مع البطل اليوناني اخيليس.

السريعة، وعلى هذا الشاطىء، ألحق جدهم أنيياس (Aeaneas) المنتصر، الهزيمة بالجبار ديموليوس [١٩] (Demoleus) ١٨٦ / ١٩٦

إن أنيياس (Aeneas) الذي بفضله شيّدت أسوار روما الشاهقة ولمع اسم الأمبراطورية كالشهاب، استطاع أن يبسط نفوذه كملك، على كل الأرض الشاسعة، لقد أخذوا يروون قصص جميع المعارك في حرب الاغريق، كيف خر باتروكولوس (Patroclus) [٢٠] صريعاً برمح هكتور، وكيف هزم ممنون (Memnon) [٢١] بعدما جرحه أخيل، وكيف بكت أورورا (Aurora) [٢٢] وفاة ابنها القوي، وكيف سقطت بنثسيليس (Penthesiles) ا وصيفة [٢٣] المحارب، وسط رفيقاتها، وفي أية ليلة قتل (ريسوس Rhesus [٢٤]، وكيف واجه الشاب ترويلوس (Troilus) [٢٥]، أخيل الجريء، وما سبب سقوط المنتصر تحت سهم أبوللو (Appolo) [٢٦] وكيف سقط الخاطف باريس [٢٧] جريحاً.

وعند ذاك، بدؤوا يروون قصة حرق طروادة الضعيفة، وهروب (Aeneas) أنيياس وكيف أنه بعد أن فقد زوجته، حمل ابنه المعروف باسم لوليوس (Lulus) ووالده واصطحبها معه الى السفن التي حملتهم فوق عديد من البحار.

---

(١٩) ديموليوس (Demoleus)

(٢٠) باتروكولوس (Patrocoius) أقرب أصدقاء البطل اخيليس (Achilles) مات أثناء حصار طروادة مما أجج غيظ اخيليس وقرر الإنتقام له.

(٢١) ممنون (Memnon) ملك اثيوبيا كما تصفه الأساطير اليونانية. وحليف الطروادبين حارب معهم أثناء حصار الاغريق لهم. قتله اخيليس.

(٢٢) أورورا (Aurora) أو أوس الهة الشروق أو بداية النهار.

(٢٣) بنثسيليس (Penthesiles) ملكة الآخرون قتلت أثناء محاربتها لأخيليس في حصار طروادة. والآخرون عبارة عن قبيلة خرافية من النساء المحاربات.

(٢٤) ريسوس (Rhesus) ملك مملكة تراقيا قتله أوديسيوس أثناء حصار طروادة.

(٢٥) ترويلوس (Troilus) ابن من أبناء ملك طروادة برايم قتله اخيليس أثناء حصار طروادة.

(٢٦) أبوللو (Appolo) ابن الاله الأكبر زوس وكان اله الفنون عند اليونان.

(٢٧) باريس (Paris) ابن لبرايم ملك طروادة. خطف الجميلة هيلين من زوجها مينيلاوس (Manelaus) ملك اسبرطة. وتعد هذه الواقعة هي السبب المباشر لحرب طروادة المشهورة.

٢٣٥/١٩٧ وسمعهم بيتر، ابن القائد، وهم يروون قصص المعارك، وعندما سمع باسم الصبي لوليوس (Lulus) انتابته رغبة عارمة لقراءة هذه القصص لأنه كان مشوقاً لمعرفة كل شيء عن الحروب. فلقد كانت تدفعه لذلك روح عالية من الولاء والواجب، وتخيل نفسه أسكينيوس (Ascanius) (٢٨) وأن أمه كريوسا(Creusa)(٢٩)، لقد كانت ابنة ملك، وكذلك كانت أمه ابنة ملك. لقد كان أنيياس (Aeneas) والد اسكينيوس (Ascanius) والآن، فإن يوحنا والده. وشعر بسرور بالغ وهو يفكر في هذه الأشياء، واهتز طرباً وأفضى بأفكاره هذه إلى أبيه وخدمه ولجميع الرجال والسفن تشق بهم عباب البحر. لقد كان هذا بيتر، وحيد أبيه العظيم، والرجل الثاني الذي تعقد عليه الأمبراطورية آمالها.

وأخذ الاسطول يشق طريقه في سلام على سطح مياه بحر إيجه، وبأمان أيضاً راح يغمر عباب البحر الأدرياتيكي تدفعه رياح مواتية، وسرعان ما وصلت سفن الأسطول الى شواطىء صقلية، وتخلت الرياح عن السفن وأصبح البحر ساكناً بعد أن سكنت الرياح. ما من شاطىء آخر يتمتع بمثل هذه الأمواج الرقيقة. لقد سكن كل شيء، حتى الكلاب كفت عن النباح، ولم تكن هناك أمواج عاتية لتدفع الذئاب الى العواء الذي تردد الصخور صداه. وعلى الرغم من تقارب المسافة بين الشاطئين واضطراب الأمواج في المضيق الضيّق، هنا وقفت تشاريبديس (Charybdis)(٣٠) شامخة، وأسكتت الأمواج، وتهاوت الأشرعة والتصقت بصواريها مع سكون الرياح. وعندئذ أصدر القائد أوامره للرجال بطيّ الأشرعة والدخول الى الميناء الهادىء. وعند هذا الامر سارع البحارة للعمل، هرع واحد منهم لفكّ الأشرعة فيما أخذ آخر في طيّها وأخذ ثالث في تشجيع زملائه بأغنيات لطيفة مرحة. وكان الرجال يشجعونهم بصياحهم، بل أن البحارة أنفسهم جمعوا بين العمل والغناء تعبيراً عن القوة والبهجة.

وعلى مقربة كانت هناك حقول كاوكانييس (Caucaneas) في صقلية على شكل قوس يحيط بالشاطىء، وهنا ألقت سفن الأسطول الروماني مراسيها، وحلّ المساء على الأرض والبحر وعمّ الظلام، وعلى سطح السفينة كان القائد العظيم الهمة مستسلماً للنوم، في حين

---

(٢٨) اسكينيوس (Ascanius) أو يوليوس ابن انيياس، مؤسس روما والجد الأول لأسرة جوليان (Julian) المشهورة في التاريخ الروماني.

(٢٩) كريوسا (Creusa) ابنة ملك طروادة برايم وزوجة اينياس الذي فرت معه بعد سقوط طروادة.

(٣٠) تشاريبديس (Charybdis) أو (Scylla) عروسة البحر التي مسختها الالة على هيئة صخرة خطيرة تصطدم عليها السفن فتغرق.

٢٣٦ / ٢٧٦ أخذ البحّارة المتيقظون يتحينون فرصة هبوب ريح رقيقة ، وسرعان ما أخذ الشباب يتسارعون فوق جميع السفن ويعدّون العدة للإقلاع ، وقاموا بفك الأسلاك التي تربط السفن بالشاطىء دون انتظار لأوامر قائدهم . ورفع البحارة جميع الأشرعة ونشروها في اتجاه معاكس للرياح .

والآن ، وصل الأسطول الى منتصف البحر تدفعه الرياح ، وكان الفجر يبزغ والجوّ مشبعاً بالندى ، من الأفق معلناً نهاراً جديداً ، عندما برز شخص أسود ، سواده شبيه بظلمة الليل أمام قدمي القائد ، وبدا من وجهه أنه من المغاربة[1] ، ذا شكل مخيف وعيناه يدوران في محجريها وتتلظيان كالجمر . وسأل الرجل : «إلى أي الشواطىء تقول أسطولك ؟ هل تظن أنه بإمكانك أن تعبر البحر إلى ليبيا ؟» . ورد القائد قائلاً : «أنت ترى سفناً وهي تعبر البحر ، وما زلت تسأل هذا السؤال ؟» ، وهنا بدت سحنة الرجل الكئيب تنذر بالخطر وعيناه لا تزالان تدوران في محجريها وتبدوان مخيفتين في لمعانها الفسفوري ، وقال : «إنّك لن تعبر البحر» . وظن القائد أن الشخص الغريب ملاك مذنب قذفت به السموات المشرقة بعيداً . ومع ذلك فلم يداخله خوف من شكله الذي كان يبدو متوحشاً ، فأخذ يتبعه وهو يحاول الهرب وناضل للإمساك به ، إلّا أن الرجل الغريب نثر من يده ظلاماً كثيفاً مخلوطاً بالتراب أمام عيني القائد ، فأوقعه في اضطراب قبل أن يختفي مع سحابة من الضباب الأسود ، وعلى أية حال فإن ملاكاً آخر أكبر سناً هبط من فوق جبل أوليمبس السامق في لباس أبيض ورداء من النجوم ، ووقف أمام يوحنا وهو يلتمس سلاحه ، فأمسك بيده وخرجت من فمه المقدس هذه الكلمات : «لا تجعل للجنون سبيلاً الى روحك فيدفعك الى مثل هذا الغضب ، وادفع بطيبتك هذا الشر ، أهرب ولا تخف من حديث هذه الروح الشريرة» ورد القائد قائلاً : «أيها الرجل المبارك ومبعوث الإله ، فقد رأيته بنفسك وهو يطلب القتال ويحاول جاهداً أن يسد أمامنا سبل التقدم» فقال الملاك المسن : بصوت كريم : «أيها الرجل السعيد ، اتبع خطواتي وأمض في سبيلك واتخذني قائداً لك» . وبهذه الكلمات أخذ يرفع عالياً مشعله الذي كان يتوهّج بنار متألقة .

ولكن ، عندئذ ، وقف البحارة القائمون على الدفة في السفن بدون حراك وأعطوا ظهورهم للريح مثل الهاربين وقد أخذت منهم الحيرة والشكوك كل مأخذ ، واعترفوا بأن شيئاً ما تغلّب

---

(١) استعمل المؤلف بدلاً من أسم ليبيين أيم ماوري **Maury** للدلالة على سكان شمالي أفريقيا الرحّل وهي كلمة عربية قديمة بمعنى الغرب أو سكان الغرب أي المغاربة التي لا زالت مستعملة حتى الآن . ولا صلة لها إطلاقاً بالكلمة الاغريقية **Mauros** بمعنى أسود والتي لم تعرف إلاّ في الفترات المتأخرة من تطور اللغة الأغريقية . وقد عاورت أحياناً بين اسمي ليبيا والمغرب دون تحفظ شديد لأن الملحمة كلها تحمل اسم الحرب الليبية كما أن أغلب القبائل التي تحدثت عنها الملحمة وأهمها لواتة كانت تقطن فيما يعرف الآن بليبيا .

٣١٨/٢٧٧ على مهاراتهم ، وصاروا وسط هذه الحالة التعسة يفكّرون في الرجوع بسفنهم . كذلك فإن الأشرعة لم تستطع الصمود لهبات الريح القوية ولم تعد لها فائدة ، فعمد البحّارة الى انزالها وتركوا السفن تحت رحمة الأمواج والرياح ، وتناثرت السفن في البحر واستسلمت للخطر وللرياح لتلقى بها حيث تشاء وسط الليل المدلهم . وبدت الأخطار تهدد بتحطيم السفن واغراقها مع القوة التعيسة الحظ . وفقد الرجال كل أمل في النجاة ويئسوا من حياتهم وسط هذه الأخطار الفعلية .

وأخذ القائد الحزين يئن واتجه بقلبه الى السماء ، فلقد كان يلتمس بدموعه الغزيرة عون الإله . ووقف منتصباً ، كمن يصلّي ، ودعا الله قائلاً :« أيها الأب القادر ، خالق كل شيء ، الأبدي والإله ، إن كل العناصر تدلّ عليك وترتعد أمامك ، أنت خالقها وسيدها وصانعها ، إن الرياح والسحب ترتجف الآن أمامك ومن أجلك يكون اهواء خدوماً ، والآن ، وبأمر منك ، تدوس السموات العلى ويرتمي الكون العظيم كله في الاضطراب والفوضى ، أنت عليم بهذا ، أيها الآب الجليل ، وعلمك سابق لكل شيء . إن ما يدفعني للذهاب الى ليبيا ، ليس رغبتي في الحصول على ذهب أو احراز أي مغنم أو جائزة ، ولكن ما يدفعني هو رغبتي في وضع نهاية للحرب وانقاذ الأرواح المسكينة ، هي دي رغبتي الوحيدة ، وهذا ما تتوق اليه روحي . أوامر الأمبراطور وحدها هي التي أرسلتني ها هنا . وأنت السيد ، وسيدنا الأمبراطور يقول أن العمل الطيب والعادل هو بأمر منك . أطل علينا من عليائك ، أيها الاله الكريم المقدس ، ولتر ما نعانيه من محن ، ولتكن في عوننا وسط هذا الدمار العظيم ، ولكن إذا كنت أنا يوحنا ، مجرماً أثيماً في نظرك ، فأقض عليّ بأية ميتة أخرى ، لكن لا تقتلني الآن ، رحمة بولدي بيتر » . وعندما نطق الوالد باسم ولده تعثّرت الكلمات في حلقه ، وأصابت قلبه رعدة وسرت في أطرافه برودة كبرودة الثلج ، وارتجف ارتجافاً شديداً وفاضت الدموع من عينيه كالنهر ، وأطلق صرخة عظيمة نحو النجوم .

ووسط هذه الدعوات الحارة كان الإله يسمع كلامه ويرى دموعه ، فأمر الرياح العاتية أن تسكن والعاصفة بأن تتكسر على حاجز من الجبال ، وسرعان ما تقشّعت السحب ، وبزغت الشمس من جديد وطلع النهار مضيئاً بمصباحه الوردي السماء الصافية . وبأمر من الإله الذي لا راد لأمره عاد البحر الى الهدوء وبدت صفحته كالمرمر الناعم ثم هبّت رياح مواتية ، وأخذ البحّارة السعداء يتواثبون هنا وهناك ، وأخذوا وهم يتصايحون ينشرون الأشرعة فوق صواريها .

وسرعان ما امتلأت الأشرعة بالهواء وأخذ البحّارة يهتفون مرحبين بعودة سفن زملائهم ولمعت الأشرعة فوق البحر كلّه . وأخذت السفن تقترب أكثر فأكثر والريح تدفعها الى الأمام بسرعة . وشقت طريقها في مسار موات في المياه الزرقاء . ٣٠٩ / ٣٥٠

وأخيراً أخذ القائد يتطلع الى شاطىء الأرض المحترقة ، وشاهد ما خلّفته الحرب الغاشمة من دمار لم يكن هناك شك فيا حدث ويحدث ، فقد كانت النيران شاهداً على حقيقتها . لقد كانت الريح تدفع بلهب النيران في أعمدة تلتف حول بعضها البعض ، وكان الرماد مخلوطاً بالدخان ، يعلو النجوم ، ويطلق على قبة السماء رشاشاً من الشرر . وقد شاهد بعينيه لهيب النار يتصاعد ويتأجج ويلف جميع الأشجار في الأرض المحروقة ، والتهمت النار محاصيل الطعام التي كانت قد نضجت في جميع الحقول المزروعة ، وكانت كل شجرة تغذّي النار المتأججة بسيقانها وأوراقها ، وبعد أن تحترق تماماً كانت تتساقط رماداً . وكانت المدن في اضطراب وفوضى بعد ذبح أهلها ، وكانت جميع المباني التي تحطمت سقوفها طعاماً للنيران . ولقد كان من الممكن لإله النار فايثون (Phaethon) [٣١] وهو يعدو بخيوله التي تنفث النار ، أن يحرق كل شيء في جميع أركان الأرض ، وهو يمتطي عربته المشنوقة ، لولا أن الإله القادر على كل شيء أسبغ رحمته على الأرض ، فصرع الخيول النارية بصواعق من السماء ، فأطفأ النار بالنار . . .

كان القائد أسير رغبة عارمة في مدّ يد العون للأرض المنكوبة وتأخذه شفقة عظيمة عليها ، فتثور عواطفه ، فتسيل دموعه كالطوفان على خديه . لقد تجلت شجاعته في السلاح الذي كان يجيد استخدامه ، ويدفعه السخط والغضب الى الخوض وسط الفيضان مباشرة ، إلا أن الطبيعة كبتت فيه هذه الرغبة الجامحة ، وكان الاعتدال من الشجاعة يحكمان على تصرفاته ، فيوازن بين الجليل من الأعمال والصغير منها . ولذا ، فقد أمر سفنه بأن تدور وتتجه صوب الشاطىء بسرعة مستخدمة المجاذيف ، واقترب أخيراً من الرمال المألوفة لديه وهذه سعادة غامرة .

ان البحر الذي كان يضرب بأمواجه ، لم يكن يغسل شاطىء بيزاكيوم (Byzacium) [٣٢]

(١) فايثون (Phaethon) ابن آلهة الشمس .

(٣٢) بيزاكيوم (Byzacium) منطقة بشمال أفريقيا وكونت جزءاً من ممتلكات قرطاجة ، ثم أصبحت جزءاً من ولاية أفريقيا الرومانية ، وأخيراً صارت هي نفسها ولاية مستقلة . وتضم تقريباً تونس الحالية وغرب ليبيا .

٣٨٦/٣٥١ بأمواج متساوية في شدتها. ففي جزء من هذا الشاطئ يتميز بأنه أكثر هدوءاً، استطاعت السفن أن تلقي بمراسيها في ميناء هادئ تمتاز أمواجه المالحة بالهدوء التام، وفي ذلك الموضع لم تكن ريح الجنوب القوية بقادرة على تحريك الأمواج الساكنة، ولم تستطع الريح أن تثير مياه البحر، وثمة جزء آخر من الشاطئ كان معرّضاً لأمواج البحر العاتية التي كانت تجتاح الشاطئ وتحدث أصواتاً مزمجرة وهي تتكسر فوق الصخور وتنتشر فوق الطحالب القاتمة اللون. وهناك كانت ريح الشمال العاتية، وريح الشرق المثقلة بالزوابع، تنتزع مياه البحر من أعمق أعماقه، وهناك كانت السفن التي تتحكم أسلاكها بضراوة مياه البحر، يحكم عليها بالفناء، وكانت ألواح ظهور المراكب تتناثر فوق الحقول الكاسية، بينما ترقد قيدومات (مقدمات) السفن وسط الأعشاب والطحالب. ولهذه الأسباب كان البحارة يهربون من أخطار هذا المكان الداهمة، ويوجهون سفنهم صوب الأماكن الأكثر هدوءاً وضحالة.

وعلى هذا الشاطئ ألقى الأسطول الروماني بمراسيه، في الوقت الذي كان فيه بيليساريوس (Belisarius) [٣٣] والذي كان على وشك الاستيلاء على زعامة قبائل الوندال (Vendal) يطأ بأقدامه الساحل الليبي. ونظراً لطبيعة الميناء المتغيرة، كان البحارة القدامى يطلقون عليه اسم شول (أي المياه الضحلة). وعندما بلغ القائد يوحنا ذو الهمة العالية ذلك المكان، أمر بإنزال الأشرعة، مبارك هو المكان الذي منح الأسطول اللاتيني مكاناً آمناً ليلقي بمراسيه. وكانت المراسي بأطرافها الحادة تربط السفن بالشاطئ في أمان وسلامة. وسرعان ما تعرف القائد الشجاع على الميناء وخاطب رجاله في سعادة وهو لا يزال على ظهر السفينة، قائلاً: «عندما حضرت سفن المنتقمين الى هذه الحقول للمرة الأولى، كان هذا الشاطئ أول مكان وطأته أقدامي، وكنت يومذاك مزهوّاً بشبابي، فقد كنت واحداً من الضباط، وعندما استولى الطاغية الخائن جليمر (Gelimer) [٣٤] على حكم هذه الشواطئ الليبية. وطأت أقدام العصبة الرومانية هذه الرمال للمرة الأولى وارتوت من مياه ليبيا. وحينذاك عندما وصل الجيش في دروعه الجديدة، بدأ في حفر الخنادق على طول هذا المضيق. هل ترى كيف أن هذه الهضبة التي تبدو بعيدة، تبدو مثل كومة من الرمال تحت رحمة أية نسمة صغيرة من رياح الجنوب؟

(٣٣) بيليساريوس (Belisarius) قائد بيزنطي أرسله الأمبراطور جستنيان في العديد من الحملات العسكرية ضد الوندال الذين تمكن من القضاء على وجودهم بشمال أفريقيا.

(٣٤) جليمار (Gelimar) آخر ملوك الوندال بشمال أفريقيا. تقابل مع بيليزاريوس في أكثر من معركة. هزم فيها جميعاً. فقام بتسليم نفسه سنة ٥٣٤م وبه انتهت دولة الوندال بأفريقيا.

٤٢٢/٣٨٧ هناك أقام القائد بيليساريوس (Belisarius) خيامه وأعلامه عالية فوق الربوة ومن حوله التف الضباط والجنود، وقد ضربت خيمتي كذلك في هذا المكان وبصحبتي شقيقي المبارك. وأسفاه، كم يخبئ لنا القدر من بلايا ومصائب، ويعادي الرجال الصالحين...؟ كم انتزع الموت الفرحة من شفاه الأخوان المخلصين فجأة... كم كان أخي السجاع يبطش بالأعداء في قوة وبأس، وكيف كان بقيادته الحكيمة يسيطر على حلفائنا... كم كان عظيماً ذلك الرجل الذي بكته البلاد...؟ ان صروف الحرب لم تنتزع منا هذا الشقيق ذا البأس، فقد كان يعود المرة تلو الأخرى منتصراً على أعدائه. وأسفاه أيها الموت الظالم الباغي، إنك لتعصف حتى بالرجال الطيبين. لقد كنت يا بابوس (Pappus) صورة من أبي وولدي. على أية حال، ثمّة عزاء وسلوان عن هذه المصيبة الفادحة، انك، وأنت المنتصر، كنت تزورني مياه ستيكس (Styz) [٣٥]، ان هذه الأماكن تذكرني بشقيقي المبارك وتجعل عينيّ تغرق بالدموع، إنني أذكر الحروب التي انتهت في الماضي بفضل هذا البطل... إنني أدعو الله أن يجعلني أكثر توفيقاً وأرجو أن يكون هذا المكان بفضل الله أوفر حظاً ممن كان في تلك السنة. وإنني أذكر مع ذلك، أنه في ذلك الوقت، وقت المحنة، لم يلحق بالمعسكر دمار كامل، وما أكثر عدد الرجال الذين أسروا أحياء... لو أن النصر كان حليفي في هذه الحرب فسوف أكمل تحصينات هذا المكان وأجعله صلداً قوياً بالأحجار الصلبة.

هكذا كان القائد يتكلم وينوح على تلك المدن التي هجرها أهلها وعلى البيوت التي كانت صامتة وخالية. لقد كان يتأوه وقد أخذته الشفقة على ما حلّ بليبيا من دمار، فأمر البحارة أن يفكوا الحبال التي تربط السفن بالشاطئ، وينشر الأشرعة مع الريح، وعند مطلع نهار اليوم الثالث، شاهدوا أسوار تايريان (Tyrian) [٣٦] وعاد القائد الى المدينة المدمرة.

ولم يكد القائد يطأ الشاطئ بأقدامه، حتى أصدر أوامره للجنود بالتقدم، وأصدر تعليماته للضباط بتنظيم صفوف كوكباتهم والتقدم للأمام، لقد كان الحزن العميق يثير كوامن غضبه، يقيناً. لقد كان حزيناً على ما لحق الأرض التي يعرفها من خراب، فأصدر أوامره لقواته بالتحرك وهو حزين، وسرعان ما شرع الجنود الشبان في تنفيذ أوامر قائدهم وأخذوا يتحركون

(٣٥) ستيكس (Styx) شلال مشهور بأرمينيا، الموطن الأصلي ليوحنا.

(٣٦) (Tyrian) قرطاج.



هنا وهناك في سرعة ونشاط . وامتشق جميع الجنود سيوفهم واستعدوا للقتال . وأشعلت طبول الحرب بدقاتها النحاسية نيران الحرب في قلوب الرجال . وعندئذ اندفعت تسع كوكبات من البوابات الواسعة وبدأ الجنود من ذوي الدروع يتدفقون من جميع الأسوار ، من هذا الجانب جاء الفرسان ، ومن ذلك الجانب خرج الآلاف من الجنود المشاة والأرض الجافة تئنّ تحت أقدامهم . وبهذه الصورة عمل حاكم هذه المملكة الصغيرة الجميلة على تدمير معسكره ، إذ أمر جميع جماعات النحل الغفيرة بالخروج من خلاياها ، وأن تطير فوق الأرض الذهبية ... لقد كان الحاكم على الأرجح ، إما يعدّ نفسه للمعركة عندما ثار غضبه فدفعه الى لقاء قائد الأعداء ، أو أنه تسرع بالخروج لإبعاد ذكور النحل عن مملكته ... لقد سارع المحاربون ، امتثالاً لأوامر قائدهم بالخروج من الخلايا من جميع منافذها وأثاروا أعداءهم بطنينهم المدوي . وهكذا خرج الجنود من كل جانب من جوانب قرطاج واندفعوا الى السهول في ابتهاج وراياتهم عالية ، وهنا انتصبت حشود كثيفة من الكتائب في أسلحتها . كان البعض يحملون الأقواس وجعب السهام ، في حين كان البعض الآخر منتصباً في دروعه البراقة .

وكانت الرماح والدروع تلمع في الضوء في حين انتصب الفرسان على جيادهم بدروعهم ٤٤٣ / ٤٦٩ وخوذاتهم ، وهنا ثارت سحابة عجيبة من التراب وتحولت الى ضباب كثيف وأخذت حوافر الخيل تدقّ الأرض الصلبة وتهزّها ، وامتلأ الهواء بسحب الرمال . وفي مقدمة الصفوف كان القائد يتقدم ويشجع جنوده ويثير حمية ضباطه وهم في سلاحهم المعروف ، بتذكيرهم بالمعارك السابقة التي خاضوها في بلاد فارس ، وما كان يستطيع أن يثير حمية هؤلاء الأبطال إلا بالثناء على ما قاموا به أثناء المعارك . ذلك أن جوبتير (Jupiter) [٣٧] نفسه ، كما يروي الشعراء في قصائدهم الوثنية ، عندما قادت فليجرا (Phlegra)* القاسية تمرد العمالقة ، أوحى للقوى السماوية بما رسمه القدر : كيف يمكن إخضاع وتدمير مكان الأرض بصاعقة تضربهم ، وبأي رمح يمكن لمارس (Mars) أن يشلّ الأطراف ، وقد استطاعت أثينا (Athena) [٣٨] عند رؤيتها لـ جورجون (Gorgon) [٣٩] أن تحولهم الى جبال ، وكيف استطاع أبوللو (Apolo) بسهامه الكثيفة أن يحلّ بهم الدمار ، وأيهم استطاعت (ديانا Diana) [٤٠] السريعة أن تصيبه بقوسها اللولبي .

وبعدئذ سارع الجيش بشق طريقه وسط سهول بيزاسيوم (Pyzacium) الى المكان الذي كان أجدادنا يسمونه معسكر انطونيوس (Antonios) [٤١] وفي ذلك المكان لم يكد القائد يوحنا يقيم معسكره حتى وفد إليه رسل من الطاغية ، وسمح لهم القائد النبيل بدخول خيمته وإبلاغه بطلبات سيدهم القاسي . وعندئذ ، قال ماكسيوس (Maccus) الذي كان ملماً باللسان الروماني : « ان قائد الشعوب اللواتية (Languanta) الضاربة ، البطل جونفاين أنتالاس (Guenfeian Antalas) [٤٢] طلب منا أن نسألك هذا السؤال : أنت يا يوحنا يا من

(٣٧) جوبيتر (Jupiter) أقوى آلهة الرومان وأبوهم جميعاً وخالق الرعود والبرق والأمطار والشمس.

(٣٨) أثينا (Athena) إلهة مدينة أثينا وراعية الفنون والحكمة والحيل الحربية. وهي ابنة أكبر الآلهة اليونانية زيوس.

(٣٩) جورجون (Gorgon) ثلاث أخوات يرسمن عادة على هيئة غيلان (جمع غول) مجنحة ولهن أفاعي في رؤوسهن بدلاً من الشعر.

(٤٠) ديانا (Diana) آلهة القمر عند الرومان.

* فليجرا (Phlegra) أو (Pallene) منطقة في مقدونيا سميت على أحد الآلهة الأسطوريين الذين تحاربوا فوقها ضد عمالقة الأرض.

(٤١) انطونيوس (Antonios) لم يستطع أحد من المحققين معرفة مكانها بالضبط.

(٤٢) جونفاين أنتالاس (GuenFeian Antalas) أشهر بطلي الملحمة من الجانب الليبي. أما الآخر فهو كاركاسان.

٤٨٨/٤٧٠ تعرفك العصابات الماسيلية (Massylian) [٤٣] في أيام سليمان* (Solomon) الذي كان مصدر خرابنا ومصائبنا، أنت الذي كنت القائد الثاني على شواطئنا، وكنت يوماً ما حامي الرمال على طول البحر، هل تعرف كم عدد جنود سليمان الذين سقطوا في تلك الحرب الضارية... وكيف امتلأت الأنهار بجثث القوات الرومانية إبان تلك المذبحة، وكم عدد رجالك الذين أفنتهم المعارك فوق الحقول؟... ألم تسمع بذلك الدمار الذي لحق بقائدك في تلك الحروب؟... هل تتجاسر الآن على مهاجمة أمم لا تقهر؟... ألست تعرف بأس: لواتة (Illasquas) في الحرب، هؤلاء الذين يعرف القاصي والداني بشهرتهم القديمة والأبدية؟ هؤلاء الذين كان «ماكسيميان» [٤٤] حاكم الدولة الرومانية وأمبراطور اللاتين يعرف أسلافهم حق المعرفة. فهل تجرؤ أنت بقوتك الصغيرة التي سيكون الدمار مصيرها عن قريب، على مجرد النظر الى قواتي؟ هل أنت بمستطيع تحمّل ضربات أيديهم القوية أو حتى النظر الى وجوه رجالي في ساحة المعركة أيها القائد الروماني؟ خير لك أن ترتد على عقبيك وأن تجمع أعلامك وتنسحب، وتنجو بحياتك. ولكن، إذا كنت تظن أنك قادر على دخول

---

(٤٣) ماسيليان (Massylia) نسبة الى احدى القبائل الليبية القديمة، وكان مركز إقامتها بالجزائر الحالية يشير الى حرب القبائل الليبية الأولى مع البيزنطيين.

(٤٤) مكسيميان Aurelius Valerius Maximianus ٢٨٥ — ٣٠٥م) اختاره ديوكليشيان ليكون شريكه في ادارة الدولة الرومانية وأعطاه الجزء الغربي منها، اتخذ من ميلانو عاصمة له. قام بإخماد العديد من الثوراة ضد السلطة الرومانية ومنها ثورة القبائل الخمسة Quinquegentiani بشمال أفريقيا والتي أشارت لها الكثير من المصادر القديمة

Aurelius Victor “De Caesarius, 39, 22

Eusebius Works ed. Rudolf Helar, 1956

وكذلك الحديثة، لكنهم جميعاً تقريباً لم يشيروا لحرب بين مكسيميان واللواتيين. كوريبوس وحده يشير لذلك. وفي ضوء الأدلة الأثرية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت خلال تلك الفترة وأثرت تأثيراً مباشراً على حياة المدن الساحلية: لبدة، صبراتة وأويا وغيرها، فإن هناك احتمال كبير في أن مكسيميان قد وصل بحملته الى غرب ليبيا الحالية محاولاً التخفيف من ضغط القبائل بزعامة لواتة على المدن الساحلية التي كسدت حركتها التجارية مع الجنوب وحاولت تطوير نفسها على عجل مما زاد في إرهاقها مادياً، وعلى عادة حرب القبائل الصحراوية لم يحرز ماكسيميان انتصاراً حاسماً عليها على ما يبدو، ففضل الانسحاب وذلك لكثرة مشاغله مكتفياً بإبعادهم عن المنطقة الساحلية مباشرة. للمزيد، أنظر:

Dr. Mohammed T. Jerary: **Lawata: Prolegomena, Source book and Preliminary Study, Univ. of Wisconsun, 1976.**

* Solomon سليمان خلّف القائد بيليزاريوس في قيادته للجيوش البيزنطية بأفريقيا، وربما يقصد الرسول الليبي بكلمة «سبب مصائبنا» أن سليمان قام بتعيين ابن أخته سيرجيوس Sergius حاكماً لمنطقة طرابلس. ارتكب الأخير عدة تصرفات خاطئة أثناء فترة حكمه وأهمها قتله لمجموعة كبيرة من شيوخ القبائل الذين قدموا للتشاور معه في مدينة لبدة.

معركة معي ، واذا كان يرضيك أن تذهب ريحك ويكون الموت مصيرك ، فلماذا إذن لا تعجل **٤٨٩ / ٥٢٧** في تحريك أعلامك وخيولك . أبلغني بنواياك وسوف ألاقيك أينما تشاء ولن أتأخر عن تنفيذ ما رسمته لك الأقدار . هذه هي أوامر القائد الشجاع لنا لنبلغها لك ، ولك أن ترد بما تراه » .

وهنا ردّ القائد الهادئ العظيم الذي لم تثر رسالة العدو حفيظته بقوله :

« لست في حاجة لأن أرد على هذا العدو القاسي ، وعلى أية حال فإن هي إلا أيام معدودات ويكون جوابي على رسالة قائدكم الطاغية . سأقول لكم جوابي فيما بعد » . .هكذا تكلم ، ثم أمر بأن يوضع الرسل تحت حراسة خاصة ، ثم أخذ يعدّ نفسه للأعمال الشجاعة الجليلة . من كان يظن أنه لم تزل هناك فرصة لضمان سلامة هؤلاك الرجال ؟ كم كان هذا القائد ذو البأس عظيماً في صبره ، وفي تقواه وفي قدرته على الحكم . ان قلوب (الليبيين) كانت تشتعل بغضب جنوني ، ولكنه أظهر كل رحمة وعفو وأخضع أعماله لما تقتضيه مبادئ الكرامة اللاتينية ، لم يشأ أن ينتقم من المغرور بقتله فوراً . ولكنه كان يرجو أن ينقذ المسحوقين وأن يقوي من عزيمة المظلومين . وهكذا ، فإن الفضائل التي تتحلى بها روما ستبقى وستظل باقية على الدوام . لقد أمر بأسر الرجال ، وأبقى عليهم حياتهم ووعدهم بألا ينزل بهم جامّ غضبه .

وعندما خرج لوسيفير (Lucifer) (٤٥) من أعماق البحر وجعل الشمس تشرق بأشعتها الحمراء ، أمر القائد بإزالة المعسكر بأكمله ، ثم أمر كتائبه بالخروج ، وعندما أعطى القائد إشارة التحرك ، أخذت الطبول تدوي بأصواتها النحاسية التي تدخل الرعب في القلوب وتنزع النوم من أجفان النائمين ، وأخذ الجنود يشجعون زملاءهم ويطلقون صرخات عالية أوقعت الخيام في اضطراب ، وأخذ الخدم ينزعون الخيام التي كانت مثبتة في الأرض . ويقودون الخيول الملجمة من حظائرها ، وتجميع الأسلحة جميعها ، ولكن عندما أخذت حشود المقاتلين في التقدم بمجموعاتها المنظمة ، وفي رفع أعلامها المنتصرة ، فإن القائد الحذر ، أخذ يخاطب ضباطه بكلمات منتقاة بعناية ، وأخذ يستعرض مرة أخرى أسباب الحرب ، ثم أصدر تعليماته لهم قائلاً : « أيتها العصبة الرومانية أمل المملكة ورجاؤها ، أنتم يا من اشتهرتم بالتفوق والامتياز ، وأنتم حصن الأمبراطورية ومصدر بهجتها ، وأنتم ثمرة كفاحنا ، قد تعرفون مدى ثقتنا في هؤلاء الناس ، ومع ذلك ، فإنني أذكركم بما يتصفون به من خداع ومكر ، لكي تأخذوا حذركم

(٤٥) Lucifor أو Eosphoros نجمة الصباح أو إله الصباح .

٥٧٣/٥٢٨ منهم ، ولكي تنجزوا ما خرجتم من أجله . ان المعارك الضاربة لم تخل من خداع شرير ، إلا أن المحاربين المغاربة كانوا على الدوام يشنون الحرب عن طريق الخداع والخيانة ، ويكمنون في انتظار عدوهم ، وهم آمنون في مخابئهم ، ان الزيف وحده هو الذي أبقى على بأس هؤلاء الـ(Massylian) ومكّنهم من أن يحاربوا ، رغم ما يعرف عنهم من جبن ، طالما أمدتهم الصخور بمخابئ على قمم الجبال ، أو على ضفاف الأنهار العالية ، حيثما تنمو أشجار الزيتون ، أو حيثما تشمخ أشجار البلوط بأغصانها العالية الكثيفة الورق ، فتوفر لهم المخابئ . ان المغاربة يحاولون بهذه الخدع جميعاً دخول المعركة ، ذلك أنهم ، بسرعة انقضاضهم على العدو من عل وهو في غفلة ، يمكنهم أن يلقوا في قلوبهم الرعب ويسحقونهم وسط هذا الاضطراب ، معتمدين في ذلك على كثرة عددهم وعلى طبيعة المكان وعلى خيولهم المدربة . من ذلك أن واحداً فقط من جنودهم يخرج مخادعاً الى السهل المفتوح لكي يستفزّ الخصم الى الحرب ، ثم يقفل هارباً أمام أنظار العدو لكي يزداد عدد من يتعقبونه ، ولا يفتأ هذا الجندي عن التلويح بحربته والدوران بحصانه المدرب . لكن ، عندما يندفع العدو في اثره يهرب في خفة ومهارة ، ويحدث هذا تشتيتاً في سراياهم المنظمة ، إذ طالما كانت جماعة من جند العدو في أعقابه ، ظانة أنها منتصرة ، فإن رجالها يتناثرون فوق جميع الساحات ، وبمثل هذه الحيل ، يقود الجندي المغربي باصطناعه لمعركة ، طابور جنود الأعداء الى وسط أرض العدو ، الى أن يقع في كمين في أحد الأودية المحصّنة . وعندما تنجح حيلته ، يطلق العنان لجواده ويحرك الجنود المختبئين في كلّ جانب ، وأي جندي ينتابه الخوف ويحاول الهرب في لحظة الغموض الأولى ، يكون له المغربي بالمرصاد ، فيرديه بضربة من رمحه أو فأسه . ولكن ، إذا صمد الرجال في شجاعة ولم تحاول أية مجموعة تعقب من يتجاسر على القتال ، فسوف يظل الرجال واقفين في ثبات وقوة ، مما يدفع العدو للتراجع والفرار من ساحة القتال . وهكذا ينهار خط الهاربين ، وهكذا يقاوم الجندي الصامد . ان الأقدار ستقهر الخائفين وتساعد الشجعان اليقظين على هذه الصورة ، ان الأقدار غالباً ما تتجلى للكثيرين ، وان الكثيرين قد استطاعوا انتزاع النصر من بين مثل هذه المخاطر . وأنتم ، أيها الضباط ، اظهروا بأسكم في محنة الحرب ، بما ينبغي أن تتحلوا به من حذر وشجاعة وقوة شكيمة ، نظموا صفوف جندكم في سرايا ووزعوا كتائبكم وتقدموا بجميع أعلامكم ، ولتجعلوا من مهمة الحراسة أسمى أهدافكم ، ولتقم كلّ جماعة بمهمة الحراسة كل في دورها ، وبهذا ستقهرون العدو . وليقم كل جندي من جنودكم ، وكل ضابط من ضباطكم ، بالتقدم أمام معسكره ، بين وقت وآخر ، لاستطلاع الأودية المريبة ولتمهيد السبل أمام الزاحفين . وبهذا سيكون الجيش كله في أمان ، لأن العدو لا يستطيع أن يباغت اليقظ

على غرة ، ولا أن يهاجم من في حماية الحرس . ولكن ، إذا كان المغربي ، كعادته ، يعدّ للمعركة بخدعة خافية ، فلتبعثوا برسول سريع على جواده ليبلغني الأمر ، وحركوا كتائبكم اليقظة في سرعة . أيها الضباط : اعملوا بهذه التعليمات وسوف تكفل لكم السلامة . »

ولم يكد القائد ينتهي من خطابه ، حتى ردّ عليه الجند بهتافات مدوية ، وأخذوا يكيلون له المديح ، ويهتفون ويصفقون وقلوبهم تغمرها السعادة والفرحة ، ثم بدؤوا في تنفيذ أوامره في ابتهاج .



٥٨١ / ٥٧٤



الكتاب الثاني

في غمار المعركة المحتدمة ، تمّ طرد المغاربة المخربين من المنطقة بأكملها ، ووطأتهم أقدام ١ / ١٩
الأعداء وهم يفرّون خوفاً ، تاركين المدن المحاصرة مهجورة . ووقع الإضطراب بين صفوفهم
فلجؤوا للجبال العالية ، ثم أقاموا أكواخهم المفزعة في الغابات ، وكانت الأودية والمنحدرات
مليئة بقبائل لا حصر لها ، انتشرت في طول وعرض الحقول والأنهار . وكانت طوابير جنودهم
الكثيفة تحجب الأرض المجاورة ، كما حجبت أكواخهم المعلقة بالجبال والغابات . ومن هذه
الأماكن انطلقت جميع أنواع الحيوانات الوحشية هاربة خوفاً من رماح المغاربة القساة ، إلّا
أنها لم تستطع النجاة من ذلك الهول . فأخذت تتساقط ورماح الليبيين مغروسة في صدورها ،
ولم تستطع الطيور أن تحتفظ بأعشاشها فوق الأغصان العالية والمتوسطة الإرتفاع ، لأن
الليبيين أقاموا سقفاً كثيفاً من أغصان الأشجار واحتل الجنود المغاربة جميع قمم الجبال ، التي
بدت تماماً مثل الأرض عندما يغطيها الصقيع وتحجبها السحاب وعندما تغطي الحقول والجبال

٢٠ / ٤٧ والأشجار جميعاً طبقة بيضاء ، ويسكن الهواء ، وهنا تنتزع العواصف ملامح الأشياء التي لا تخطئها العين. وتختفي النجوم من أبراجها.

أي شاعر ذو موهبة جديدة يمكنه أن يعدد ويصف لي مثل هذه الأمم والقبائل والمعارك الكثيرة؟.. أنت وحدك يا جوستينيان (Justinian) [١] ستعلمني هذا كله ، وستجعل آلهة الشعر تتشجع لنظم هذه الأغنية بكلمات عذبة مستساغة ، بدل كلماتي المتعثرة ، في مواجهة هذه الألسنة الليبية التي تنبح بأسمائها المتوحشة.

في أول الأمر خرج انتالاس (Antalas) [٢] أمير المغاربة ، إلى الحرب انتقاماً لمصرع أخيه. وعندما صار من رعايا الأباطرة الرومان ، كان أسيراً لدى الضباط الرومان ورفيقاً مخلصاً لقادتنا. وعندما كان يضرب بيمينه القوية في الحرب ، كان يثير اعجابهم ببراعته الشيطانية ، وحينما كانت الحرب ، كان يقود قبائله من ذوي البشرة البرنزية لتقاتل وتحصل على غنائم الحرب. وعندما عاد السلام الى أرض ليبيا ، كان مخلصاً للرومان وظلّ على ولائه عشرة أعوام كاملة. ولكن ، وأأسفاه ، يا لها من حرب تلك التي استعرت بسبب سخافة رأي قائد جبان ، وكم تسبّب هذا الرأي السقيم في اخراج نيران كانت قد أخمدت... وعندما تنشب الحرب ، فإن ضراوتها تندفع الى الأمام لا تلوي على شيء ، إن الغضب وحده كان سبب غدره وخيانته وهو الذي بذر بذور تلك المذبحة. فقام بتعبئة وتحريك قبائل ليبيا المعروفة بخشونتها ، وألقى بالعالم كله في فوضى بتلك المذبحة. ولقد تبعه الـ (فريكسيس (Frexes) [٣] مع الجماعات التي تنتسب اليهم بقرابة ، كانت تلك القبائل تكيل المديح لحاكمها وهي رافعة رؤوسها ، فقد كانوا جنساً يتحلّى بالشجاعة ذا بأس شديد ، عنيفاً في الحرب ، سواء أكانوا من الجنود المشاة الذين يزحفون في ثقة وسط أعدائهم ، أو من الفرسان الذين يضربون بكعوبهم بطون خيولهم الثائرة. من هذا الجانب جاءت كوكبات الفرسان التي يقودها سيديفان (Sidifan) [٤] حاملة

---

(١) جستنيان (Justinian) : امبراطور الجزء الشرقي من الأمبراطورية الرومانية : (٥٢٧م — ٥٦٥م) ، أكبر انجازاته هو تجميع القانون الروماني ، وأشهر قادته : بيليزاريوس الذي تمكن من استعادة شمال أفريقيا من الوندال (٥٣٣— ٥٤٠م). فشلت كل حملات جستينيان في اخضاع فارس وكانت تلك أبرز سلبياته.

(٢) أنتالاس (Antalas) : أحد الزعماء الليبيين الذين أبلو بلاءاً حسناً في مقاومة الرومان.

(٣) فريكسيس (Frexes) : قبيلة ليبية.

(٤) سيديفان (Sidifan) : مقاتل ليبي.

اسلحتها ، وتقدم القائد بقوة حتى توسط طابور الفرسان ، ثم قام بتحريك وقيادة تلك الكتيبة ٤٨ / ٦٩ المسلحة . لم يتعود على الهزيمة ، يجري هنا وهناك فوق الحقول الفسيحة ، ومن هذا الجانب سارعت كتائب سينوسديسا (Sinusdisa) [٥] الى الدخول في المعارك ، وتبعتهم قبائل سيلواكاي (Silvacae) [٦] المتوحشة ، وقبائل نافور (Naffur) [٧] بأسلحتها القاسية ، ثم قبائل سيلكادينيت (Silcadinet) [٨] الرهيبة التي أعدت للحرب عدتها وسط الغابات العالية ، بخدعهم المخيفة . لقد ألقى بالرعب في قلوب الأعداء بتلك الكمائن التي أعدوها ، وتقدمت صفوفهم هادرة تضرب هنا وهناك تحت جنح الظلام ، ثم تبعتهم القبائل التي تسكن جبال قوربوم (Gurubum) [٩] والأودية الشريرة ، وتلال ميركوري (Mercury) [١٠] ، أفيرا (Ifra) أو (Ifera) [١١] بغاباتها الكثيفة ، وتولى قيادتهم القائد العنيف أوتيليتين (Autiliten) الذي لم يكن أقل من أبيه شجاعة وجسارة ، وقد أطلق العنان لجنوده ليرتكبوا كل ألوان الجرائم ، يشعلون النار في كل شيء ويسلبون وينهبون ويذبحون ويسوقون الأسرى أمامهم . ثم جاء كل من سيلوازام (Silvaizam) [١٢] وماكاريس (Macares) [١٣] فشيّدا أكواخها البدائية تحت ظلال صخرة ناتئة ، فوق الجبال العالية الشديدة الإنحدار ووسط الغابات الكثيفة ، وتبعها كاونس (Caunes) [١٤] وسلذاكتاي (Silzactea) [١٥] ، وكانت تتدفق بينهما مياه النهر الذي ينبع من جبال وادارا (Vadara) [١٦] ويأخذ مجراه من ذروة الجبال ويتدفق خلال الضفاف المقوسة والمروج ، ليصب في الحقول المسطحة ، ثم جاءت القبائل التي تسكن جبل أقولوموس

---

(٥) سينوسديسا (Sinusdisa) : قبائل ليبية .

(٦) سيلواكاي (Silvacae) : قبائل ليبية .

(٧) نافور (Naffur) : قبائل ليبية .

(٨) سيلكادينيت (Silcadinet) : قبائل ليبية .

(٩) بوروبوم (Gurubum) : ربما بتونس الحالية .

(١٠) ميركوري (Mercury) : اسم كثير التداول بشمال افريقيا .

(١١) أفيرا (Ifara) أو (Ifera) : غير معروفة .

(١٢) سيلوازام (Silvaizam) : قبائل ليبية .

(١٣) ماكاريس (Macares) : قبائل ليبية .

(١٤) كاونس (Caunes) : قبائل ليبية .

(١٥) سيلزاكتاي (Silazctea) : قبائل ليبية .

(١٦) وادار (Vadara) : نهر مجردة .

٧٠ / ٨٧ (Agalummus)[١٧] الذي تعلو قمه على السحاب، وجبل ماكوبياس (Macubias)[١٨] الذي يحمل نجوم السماء الواسعة، لتخوض غمار المعركة. ثم جاءت تلك القبائل التي تعيش في منطقة ساسكار (Sascar)[١٩] وتعيش على الشعير على الأرض التي تغطيها النباتات الشوكية. ومن مناطق بعيدة جاءت قبائل استريكس (Astrices)[٢٠]، أناكوتاسور (Anacutasur)[٢١]، سيليانوس (Celiannus)[٢٣]، أماكلاس (Gallica)[٢٣]، التي تعيش في منطقة زيرزيليس (Zersilis)[٢٤]، الخشنة بحقولها الضيقة، وسرعان ما بعث جاليكا (Gallica)[٢٥] الشرير برجال يتصفون بالشراسة، كذلك بعثت الحقول التعيسة بجيوشها التي استقبلتها الحاضنة تيليباريس (Tillibaris)[٢٦]، من أراضي تالالاتيان (Talacatéan)[٢٧] التي مرّت الأم الشريرة مارتا (Marta)[٢٨] بشواطئها الى البحر. لقد كان يمكن للعصبة الرومانية أن تتفادى رؤية هذه الحقول الحزينة، لو لم يقطع القدر المعادي حتى للرجال الأخيار آخر خيط. لقد كان هذا مرضاة لك أيها الأب القادر على كل شيء، وقد كانت هذه أوامرك.

لقد قام أحد الرّسل بالتوجه إلى أقصى مناطق ليبيا على ظهر جواده، ليستدعي القبائل التي لا تقهر لمحاربة الأجانب، وتجمعت قبائل لواتة (Ilasquas)[٢٩] التي لم تهزم أبداً، ألوفاً لا حصر لها، وملأت قلوب العالم كلّه بالرعب وهي تزحف للأمام بسرعة، وتبعتها قبائل أوستور

(١٧) أقولوموس (Agulmmus) : جبال غربي ليبيا.

(١٨) ماكوبياس (Macbias) : ربما جبل بن ينس بتونس.

(١٩) ساسكار (Sascar) : غير محددة المكان.

(٢٠) استريكس (Astrices) : قبيلة ليبية.

(٢١) أناكوتاسور (Anacutasur) : قبيلة ليبية من قبائل المنطقة الغربية بليبيا.

(٢٢) سيليانوس (Celiannus) : قبائل ليبية.

(٢٣) أماكلاس (Imaclas) : قبيلة ليبية.

(٢٤) زيرزيلس (Zersilis) : ربما زرزيس الحالية بتونس.

(٢٥) جاليكا (Gallica) : منطقة هزم بها القائد الروماني يوحنا.

(٢٦) تيليباريس (Tillibaris) : مدينة بتونس ربما رمادة.

(٢٧) تالالاتيان (Talalatean) : منطقة بتونس ربما منطقة رأس الصين.

(٢٨) مارتا (Marta) : مدينة بتونس.

(٢٩) لواتة (Illasquas) : قبيلة ليبية.

٨٩ / ١١٥ (Austur)[٣٠] وأطلقت العنان لخيولها وهي واثقة في قوتها ، في أعداد لا حصر لها . وهذه القبائل معروفة بشجاعتها في الحرب ، كما أنها معروفة بشدة حذرها ، ذلك أن المحارب من قبائل أوستور (Austur) وهو يتمزق شوقاً للدخول في معركة غير مأمونة على السهول المكشوفة ،يقوم بتجميع أبله ويقيم أسواراً ويحفر خنادق ، ثم يضع مختلف قطعان الماشية وسط حلقة على أمل أن يوقع الأعداء في شراك هذه الحواجز ويسحقهم في غمرة الاضطراب الذي يسود صفوفهم . ذلك كان الوقت الذي هرع فيه الأسكويس (Illasques) الرهيب الى إثارة تلك المذبحة وإلحاق الهزيمة بصفوف الجند المحصورين في تلك المناطق الضيقة ، وعنئذ اقترب المخرّب من السهول وهو أمن وأخذ في تعقّب الجنود الباقين وأقام مذبحة جديدة وأوقع الاضطراب والفوضى بين صفوفهم ولقد كانت لديهم المجانيق كذلك ، وهي آلات ضاربة من آلات الحرب ، وهناك ، على السهول نصبو خياماً وزينوها بأعلامهم . إن هؤلاء الناس مجموعة من الرجال القساة الغلاظ القلوب ، تعلموا الجرأة والجسارة مما أحرزوه من انتصارات لا حصر لها ، ولذلك فهم لا يقعدون عن الحرب أبداً ، إن قائدهم لا يخشى من الدمار أو الهزيمة ، وإن كان حرياً به أن يخشى مما يخبئه المستقبل . لسوف يندم طويلاً على غلطته وجبروته ، إن(Illasques) الشجاع ، قد شاهد ذلك اليوم الذي خرّ فيه جريحاً على هذه السهول الواسعة ، واضطر الى تسليم أسلحته الضاربة ، وامتنع عن النهب والسلب وشنّ الحروب . إن قورزيل الجبّار كان قائدهم ، وكان قورزيل (Gurzil) [٣١] كاهنهم ، ويقول الناس ، إن أمون الحكيم (Ammon)[٣٢] كان أباه ، والعجيبة كانت أمه . تلك كانت خرافات العقول العمياء هكذا كانت تلك الهالات من القداسة تخدع الناس التعساء .. ثم جاء جنود أفورارس (Ifurares)[٣٣] بأسلحتهم المميتة . لقد كان هؤلاء الجنود مشهورين بما يلبسون من دروع ويحملون من أسلحة وكانوا شديدي البأس في استخدام السيوف ، وكان من عادتهم أن يزحفوا صوب أعدائهم وهم يتقافزون . كذلك فإن جماعات موكتونيان (Muctunian)[٣٤] - التي

---

(٣٠) استور (Austur) قبيلة ليبية .

(٣١) قورزيل (Gurzil)- اله ليبي .

(٣٢) أمون (Ammon) : اله ليبي مصري مشهور .

(٣٣) أفورارس (Ifurares) : قبيلة ليبية .

(٣٤) موكتونيان (Muctunian) : قبيلة تعيش بمنطقة سرت .

١٤٥ / ١١٦ كانت تسكن طرابلس المنعزلة ، بدأت تهبط من مناطقها الحارة ، كما أن بلدة قادابس (Gadabis)[٣٥] أرسلت رجالاً من قلعتها الشريرة ، كما أن مدينة ديقديق (Digdiga)[٣٦] التي تحميها أسوار منيعة ، قدمت للمحاربين مجموعة من الرجال من منطقة مجاورة . وعندئذ تجمعت القبائل التي زحفت عبر البحيرات في قواربها قبائل ويلانيديان (Uelanidean)[٣٧] وكانت تجري فوق الماء بمهارة وتصطاد السمك بصنانيرها المعقوفة ، واندفعت قبائل باركاي (Barcae)[٣٨] بضراوتها المعهودة . لقد هجرت أراضيها وأخذت تستعدّ للزحف على أراضينا . إن الحرب وضراوتها قد وفّرت السلاح لهؤلاء الرجال . لقد كانوا لا يغطون جنودهم بالدروع أو يربطون اليها سيوفهم ، كما جرت العادة ، بل كانوا يربطون سيوفهم بحبال ربطاً خفيفاً يسمح بأن تتدلّى أغماد السيوف على سيقانهم العارية . إن المغاربة لا يزينون أسلحتهم بأغطية معدنية ، كما أنهم لا يشدون أحزمتهم بأزرار من أي نوع وكانوا يدفعون بكوكباتهم الى المعركة دون أن يتمنطقوا بأحزمة ، وكان كل واحد منهم يحمل زوجاً من الحراب القوية النصال . وكانوا يرتدون ملابس من النسيج الخشن تتدلّى من سواعدهم المرفوعة ومن أكتافهم . وكانوا يرتدون عباءات من الكتان يلبسونها من خلال رؤوسهم الحمقاء ، ويربطونها بعقدة محكمة ، في حين يضعون أقدامهم السوداء في صنادل (أخفاف) مغربية .

هكذا ، عادت أعداد القبائل (Marmarican)[٣٩] التي نكبت بها أفريقيا أثناء الحرب . من كان يتصور أن بلداً واحداً تعيساً يمكن أن يظل على قيد الحياة ؟ أيتها القوى التي تسكن السماوات .. لم يكن هذا كل شيء فقد خرج من الشاطىء الآخر زعيم المنطقة المواجهة ، يشكو من الدمار الذي جرته عليه القوات الرومانية في الأيام الخالية بما شنته عليه من حروب . لقد كان هذا مصدر سخط القائد الجبّار . وقد رافقته في زحفه قبائل لا حصر لها ، تلك التي كانت تسكن جيميني بيترا (Gemini Petra)[٤٠] وفي حقول : زرزيس (Zersilis)[٤١] المعروفة

---

(٣٥) قادابس (Gadabis) : مدينة قريبة من لبدة.

(٣٦) ديقديق (Degdiga) : مدينة بالغرب الليبي بمنطقة لبندة.

(٣٧) ويلانيديان (Velanidean) : قبيلة ليبية.

(٣٨) باركاي (Barcae) : سكان مدينة برقة — ١٨٠ ميل غربي شحات.

(٣٩) مارماريكان (Marmarican): منطقة بأقصى شرق ليبيا ، يقصد القبائل الليبية عموماً.

(٤٠) جيميني بيترا (Gemini Petra) : منطقة بالجزائر.

(٤١) زرزيس (Zersilis) : زرزيس بتونس.



يخشونها ، وتلك القبائل التي تسكن الجبال المجهولة والأماكن المهجورة في منطقة نفوسي (Nafusi) [٤٢] الكئيبة ، وتلك التي تعيش في الأرض المرعبة وتتغذى من ثمار جبل أرزوقيس (Arzugis) [٤٣] الكريه «هكذا كان القدماء يسمونهم كذلك هبطت قبائل أوراسثانيان Aurasi Tanian) [٤٤] من مناطقها العالية. ولم تكن قواتهم تدخل المعارك كمشاة ، بل كانت تقاتل بضراوة شديدة وهي على ظهور الخيل. كان هؤلاء الفرسان مسلحين برماح ذات نصلين مثبتين في عصى من خشب الصنوبر القوي ، وغالباً ما كانوا يحمون ظهورهم بدروع قصيرة ، أو يجعلونها تتدلّى من جنوبهم. [٤٥]

وا أسفاه ، إن المزارع المغربي الذي كان يحصد مرتين في السنة محصول فاديس (Vadis) الزكي الرائحة العطرة ، ويقوم مرتين بربط حزم الشعير بالقش ، قد تملكته ثورة الغضب فوق

(٤٢) نافوسي (Nafusi) : منطقة نفوسة غربي طرابلس.

(٤٣) ارزوقيس (Arzugis) : منطقة غربي طرابلس.

(٤٤) أوراسيتانيان (Aurasi Tanian)

(٤٥) فاديس (Vadis) وادي ربما بمعنى الوديان عامة.

١٥٨ / ١٦٥ الرمال الجافة تحت الشمس المتوهجة ... ما أعظم حبه للمغانم والسلب والنهب آنذاك .. لقد تحمل الشمس الحارقة وقاسى من الجوع والعطش وشدة حرارة الأرض ، كل ذلك في سبيل رغبة وحشية في القتال وفي الكسب الرخيص الدنيء .

والآن رأت قوات الجيش وهي تسرع بالزحف أن قوات العدو الكثيفة كانت تحتشد فوق قمم جميع التلال والجبال ، وإن تلك الأماكن التي كان يلفها الدخان ولهيب النيران ، والغابات التي كانت تحجبها صفوف الجنود الكثيفة ، كانت تبدو بلا أفق .



لقد كانت جميع مساكنهم مغطاة ومحجوبة عن الأنظار . وفي كل مكان ، كانت أصواتهم ٢٠٠/١٦٦ تدوي في الهواء في زئير متواصل ، ولقد كان رجع الصدى من الغابات والغيطان يجعل المرء يظن أن تلك الغابات والغيطان تتعرض لعاصفة هوجاء ، أو أن أمواج البحر تتكسر في عنف على صخور الشاطئ . في هذا الجانب كانت تتعالى صرخات الجنود الشبّان ، وفي ذلك الجانب كان يتردد صهيل الخيول ، وكانت صرخات النساء المدوية تصفع الهواء وتضطرب الأرض نفسها تحت وطأة هذا الغليان . أنظر ، لقد جرت مجموعة من الرعاة من الوديان هاربة قبل وصول العدو ، وكان ثغاء الأغنام يتردّد صداه فوق المراعي ، فيما امتلأ الجو بغبار كثيف من الرمال ، وجاء الفرسان في أعقابهم وأرخوا للخيول العنان فوق السهول وكانوا أول من يستولي على غنائم الحرب من القطعان السمينة . وأنظر ، جاءت جماعة قليلة ومتناثرة من الممرات المحيطة لكي تقف في وجوههم بلا نظام أو ترتيب . أما المغيرون فلم يواجهوا هؤلاء الخصوم ، بل أطلقوا صرخاتهم ثم استدعوا بإشارة متكررة بقية رجالهم من الغابات ، وبهذه الطريقة المغربية استدعوا قواتهم لنجدتهم . وعندئذ اندفع رعاة الفريكسيس (Frexes) [٤٦] مسرعين لكي يدخلوا مع المهاجمين في أول صدام في شكل مناوشة خفيفة . لأنهم كانوا جماعة من الهاربين الذين لا يجيدون إلّا رعي القطعان ، ولكنهم لا يثبتون في الحروب . وعلى أية حال فان الحرب لم تبدأ بسفك الدماء ، ذلك أن الضابط المغوار جيبيسيريث (Geisirith) [٤٧] كان قد سبق الطابور بأمر من قائده ، في صحبة أمانتيوس (Amantius) [٤٨] الحكيم لاستطلاع أماكن الأعداء ولاستكشاف الأودية وتمهيد الطريق أمام الجنود . واتخذ الجنود الرومان أماكنهم فوق استحكامات عالية . كان الجنود يرقبون في حذر تلك القبائل الكريهة . وكانوا لا يشكون لحظة فيما ينبغي عليهم أن يتحملوه من أجل قائدهم العظيم ، ولم يكن في مقدورهم أن يتحملوا عبء صدامات غير منظمة أو أن يستطلعوا الأدغال الكثيفة ، فمن كان غيرهم يستطيع مراقبة هذه الآلاف من الرجال . لقد كانوا في أعداد كبيرة كأعداد الجراد التي تتناثر بفعل الريح القوية فوق الحقول الليبية في نهاية فصل الربيع ، أو تلقي بها ريح الجنوب بدوّاماتها العنيفة الى البحر مباشرة . وعند ذاك ، كان المزارعون يرتجفون من الخوف ، خشية أن يخرّب

(٤٦) فريكسيس (Frexes) : قبيلة ليبية ربما الفراشيش .

(٤٧) جيبيسيريث (Geisirith) : ضابط روماني .

(٤٨) امانتيوس (Amantius) : روماني .

٢٠١ / ٢٣٦ هذا الوباء محاصيلهم . ويتلف فواكههم وبساتينهم المزدهرة ، ويلحق الضرر بأشجار الزيتون التي تفتّحت أزهارها ، والآن ، بدأ الجنود الرومان في العودة لإبلاغ قائدهم بالأخبار ، ولكن العدو بفضل خفة حركته أطبق عليهم وحاصرهم ، ورغم هذا فإن طابور الجند اقترب منهم ، وبدأ العدو يتجمع في صفوف متماسكة من الجبال ، ويتدفق على جميع الحقول من جميع الممرّات . وكانت بينهم قبائل : أوستور(Austur)[٤٩] ، وموتونيان (Mutunian)[٥٠]، تزحف على ظهور الخيل بأسلحتها التي لا تقهر .وظهرت لواته (Illasguas)[٥١] الشجاعة واقتربت الجماعة من القوّات الرومانية المعادية أكثر فأكثر ، واندفعت الى الأمام على ظهور خيول لا حصر لها ، وأوقعت القوة المهاجمة الاضطراب بين صفوف الرومان وشدّدت عليهم الخناق ، وأخذت أعدادها تزداد كثافة ، ثم تغلّبت على الرجال . لقد كانت ساحة المعركة مغطّاة بالرماح ، وكانت الأرض تهتزّ تحت وطأة المعركة الضارية ، تماماً مثلما تدفع الرياح السحب الجارية في صوت مدوّ راعد . وعندئذ تمطر السحاب وتتوهج برقاً ورعداً وتهب عاصفة عاتية وترسل بوابل من البرد الكثيف ، وهنا ينظر المسافر المقهور الى الأرض بوجهه الحزين ويصكّ على أسنانه ، ويرجع مغلوباً على أمره تحت وطأة المطر والريح ليلتمس مكاناً أكثر أمناً بين الغابات ومساكنها . ولقد تراجع الرومان على نفس الصورة ، بعد أن غلبتهم قوة العدو . وعلى الرغم من أن الشجاعة المأثورة عن الرومان كان يمكن أن تتجلّى في أعمال تتسم بالشجاعة ، إلّا أن العدو الذي احتشد لصد الرومان كان أكبر من أن يقهر واستطاع الرجال أن يتفرقوا ولكن لم يتخلوا عن رماحهم . وكان السيف وحده يكفي بالكاد لطرد هؤلاء الرجال . ونادراً ما كان الدرع يكفي للصمود لضرباتهم . كانت الأصوات الصاخبة الكئيبة تضرب صفحة السماء ، وكانت الدروع تئن تحت ضربات الأسلحة . كانت حياة الرجال محفوفة بأخطار لا توصف . وفي نهاية الأمر ، استطاعت الكوكبة الرومانية أن تنتزع نفسها ، شيئاً فشيئاً ، من المعركة ، وكافحت من أجل الاستيلاء على التلال المواجهة لأرض المعركة .

وفي تلك الأثناء ، كان الرسول السريع ، قد أبلغ رسالته ، وهكذا وقع المعسكر في اضطراب وهياج شديدين .

(٤٩) أوستور(Austur): قبيلة ليبية .

(٥٠) موتونيان (Mutunian): قبيلة ليبية كانت تقيم بمنطقة سرت الحالية .

(٥١) (Ilasguas) : لواتة : قبيلة ليبية .

لقد أبلغ القائد أن العدو الغاشم قد انحدر من الغابات والجبال في أعداد لا حصر لها ، وأن ٢٣٧/٢٧٣
الكوكبة محاصرة بالرجال والسلاح ، وبأن الضباط لا بدّ وأن استسلموا في مثل هذه المعركة الضارية . وسرعان ما اندفع جميع الفرسان الى السهل المكشوف ، وكانوا مدفوعين بروح الوطنية والعاطفة الجيّاشة وخشية قائدهم . وبصوت يبعث الرعدة في القلوب أخذ القائد ، يحثّ الجنود على الشجاعة وكان يضرب برمحه كل من كان يحاول النكوص من الجنود ، وأصدر أوامره لجنده بمغادرة المعسكر ونجدة أصحابهم . وإذ كان يقود قوات الفرسان الخفيفة في السهل المكشوف ويسبق الضباط ، أخذ يعنف هؤلاء الذين كانوا يتباطؤون في مغادرة المعسكر وأمر بقرع الطبول ذات الصوت النحاسي لتحريكهم ، وأخذ نفير الحرب يدعو الجنود مراراً وتكراراً بصوت مدوّ . وفي أعقاب الفرسان ، سارت صفوف المحاربين موزعة في كتائب عديدة . وأثارت حوافر الخيل عاصفة من التراب فوق السهل حجبت أشعة الشمس ، وغشيت قبة السماء سحابة من الرمال المتصاعدة ، تماماً مثلما يحدث عندما تهبّ الريح الشرقية جبال ايولوس (Aeolus) [٥٢] وتثور في عنف بالغ . وعندئذ تكتسح العواصف الشاطىء الرملي فيضطرب الجو بعصفات الريح العنيفة فتتمزق السحب تحت وطأة الرياح القادمة .

وهكذا أوقفت القوات الرومانية بوحداتها المتماسكة الصفوف الاضطراب في السهول ، واستطاع ميلانجوس (Melamgus) [٥٣] اليقظ أن يراهم وهم قادمون من وراء الجرف الصخري المواجه لهم ، فأطلق صرخة مدوية كإشارة ليبية لتفريق قواته . وبدأ جنوده ينسحبون من السهول تدريجياً ، والتمسوا الأمان في معسكرهم .

ولكن ، عندما وصل القائد الشجاع محفوفاً برجال حرسه ، شاهد العدو على قمم الجبال ، واستقبل رجاله بسعادة غامرة وهم عائدون سالمين وسعداء . وقد أخبره الرجال عن تلك المعركة الضارية المؤسفة التي خاضتها الجماعة وسط أخطار رهيبة ، كما أخبروه عن تلك الممرات الشريرة ، فأصدر القائد اليهم بتعليماته بحفر الخنادق وإقامة معسكر لا يبعد عن العدو إلّا قليلاً . وسرعان ما قام الرجال بتنفيذ التعليمات فأقاموا خيامهم البيضاء في لون الجليد فوق

---

(٥٢) أيولوس (Aeolus) منطقة جبلية بمنطقة تساليا باليونان وهي المكان الذي انطلقت منه احدى قبائل اليونان المشهورة وهي قبيلة الأيوليين.

(٥٣) ميلانجوس (Melangus): مقاتل ليبي.

٢٧٤ / ٣١١ السهل المنبسط وفي ذلك المكان الذي حصّنه الجند الرومان بالخنادق بدؤوا في تنفيذ مهامهم المختلفة ، فقام عدد من الجنود بإعادة الأسلحة الى أماكنها ، فيما أخذ البعض الآخر في تعبئة الجعبات بالسهام وإعادة شد أوتار الأقواس ، وكان البعض لاّ يزال يثبّت عمدان الخيام في الأرض المغطّاة بالحشائش ، ووضع التروس مسنودة على الرماح ، كما كانت العادة في جميع أرجاء السهول ، وزودوا دروع الصدر والخوذات بأحزمة جلدية قوية ، وأخذ البعض الآخر في تجميع القاذفات والأسلحة الأخرى في أكوام ، فيم كان آخرون يجمعون بحماس الخيول الجيّدة ويقدمون لها العلف . كان ثمة رجل يجيد الطهي يسرع بوضع المرجل فوق النار ليعدّ الطعام . وثمة رجل آخر كان يضع الماء البارد في صفرة ، فيما كان آخر يضع أرائك مقوسة على الأعشاب . وأخيراً كان ثمة رجل يضع الأطباق في أماكنها استعداداً للوليمة بعد أن غسلها في مياه جارية .

وفي غضون ذلك كلّه ، كان القائد يعمل الفكر فيما يشغله من أمور ، ويفكر في القبائل وأراضيها وفي الأسرى . هؤلاء التعساء الذين كانت الحرب أغرتهم بالغنائم رغم كونهم من الأفارقة . لقد كانت تلك الهموم تثقل وجدانه . وأخذ يفكر ويعيد التفكير فيما ينبغي عليه القيام به والهواجس تحيط به من كل جانب . لقد كان آنذاك على استعداد للدخول في المعركة بدافع من الشجاعة ، إلّا أن إيمانه حثّه على التجمّل بالصبر . خشية أن يتسبب أي عمل عشوائي في القضاء على الأسرى الذين حمل السلاح من أجلهم ، وظل أرقا بلا نوم فتضاربت مشاعره ، وكان عقله يقفز من بديل إلى آخر ، فكان يتخذ القرار في قرارة نفسه ثم يعارضه . كان قلبه ساحة لمعركة بين التقوى والغضب . كان مثل المزارع الذي يجد حقوله وقد أعطت ثمارها مخلوطة بالأشواك ، فيعتصر الحزن قلبه ويحرص على انتزاع الأشواك من الحقل في عجلة ، إلّا أن تفكيره في المحصول يشغل باله ويخاف من الخسارة المتوقعة لو أن الأشواك المنزوعة بإهمال قد تعطل نمو محصول الشعير . أو أن هذه الأشواك المزعجة لا تموت كما ينبغي لها وسط المحصول . وهكذا أيضاً فإن الأب القائد كان يوازن بين تلك المشاغل واحدة بعد الأخرى في قلبه . فيضع كلاً منها في الميزان ليرى أيها ترجح كفته ، وما ينبغي عليه فعله . لم يكن يستطيع أن يتوانى أو يتلكأ في اتخاذ القرار . وأخذ يزفر زفرات حرى وهذه الهموم تشغل كاهله ، وأخذ صدره يعلو ويهبط وقد أخذ القلق منه كل مأخذ فنهض واقفاً وعقد العزم على مواجهة تلك المشكلات وسط المعسكر ، وأخذ يذرع الممرات جيئة وذهاباً والتفكير المضني يثقل عقله وجسده .

٣٤٣/٣١٢ وكان ريكيناروس (Recinarius)[٥٤] مساعد القائد والرجل المعروف بطيبة القلب وحكمة الرأي ، يرافق القائد كظله ، وقد أثقلت فكره هموم مماثلة ، ولقد كان القائد يحرص على إبقائه الى جانبه كرفيق مخلص وسط الأخطار الرهيبة . فقد كان بطلاً في شجاعته وحصيفاً في ابداء المشورة ، وكان القائد يشعر بالابتهاج والفرحة لانتهاء الحرب ، حتى في لحظة الانتصار ، لأن هذا الرجل تحمّل معه العديد من الأعباء الثقيلة ، ولأنهما بلغا معاً تلك النهاية الموفقة لتجربة الحرب ، وهكذا كان رفيق القائد ، قوياً بصورة تمكنه من تحمل هذه الهموم الثقيلة ، وقادراً على بث العزاء والسلوى في حديث هادىء يجري بينهما .

قال القائد مخاطباً رفيقه : « إن عواطفي تتذبذب بين المخاطر التي تحيط بنا ، ويخفق قلبي وسط هذه الهموم ، فيما أفضل فرصة لتأمين سلامتنا في هذا الموقف المحفوف بالشكوك ، إن الإنتصار الذي ينطوي على خسائر فادحة لا يعد انتصاراً . ولو أن الأمور التي دخلت الحرب من أجلها قضى عليها قضاءاً مبرماً ، فما فائدة الإنتصار إذن ؟ إن جميع الحلول تنطوي على المتاعب وهذا يثقل كاهلي من ناحية ، فإنها تنذر بخسارة فادحة ، ومن ناحية أخرى فهي تؤدي الى اطفاء جذوة أمجادنا . إنّها تنتزع من بين أيدينا الإنتصارات التي أحرزناها ، لو أننا جانبنا التقوى والعطف ، وإذا قرّرنا القتال ، فسيموت الأسرى الأفارقة الذين تختلط صفوفهم بصفوف القبائل المحلية . فأي جدوى في قتالنا لو سببنا لهم التعاسة ؟

وعلى أي حال ، فإن العدو لم يهزم بعد . عليك أن تشير عليّ بما ينبغي عمله في محنة هذه الحرب الخطيرة ، قل لي ما الذي ينبغي عمله ؟ » .

في هدوء وإيجاز ردّ البطل ريكيناروس (Recinarius)، وفي نبرات واضحة ، قائلاً : « الشجاعة المشوبة بالاعتدال وموازنة جميع الأشياء ، هذا أهم شيء ، وهو وحده الحلّ المرضي ، وهو وحده القادر على قهر هذه القبائل وتهدئتها . ومن الأفضل لك ، أيها القائد العظيم ، أن تتغلب على شجاعتك التي لا تقهر بالتزام التقوى وإطاعة الضمير ، وعندئذ سيكون النصر حليفنا في كل ما نقوم به من أعمال . إن هذا ما علّمتنا إياه حروف الأيام . علينا الآن أن نبعث بسفراء الى ذلك الطاغية الأهوج ، يحملون عهد السلام ، وعلى هؤلاء الرسل أن

(٥٤) ريكيناروس (Recinarius) : أحد مساعدي القائد الروماني يوحنا .

٣٤٤ / ٣٨٠ يستعيدوا الأسرى وأن يطلبوا الى الطاغية أوستور (Austur) [٥٥] الرحيل عن أراضينا مع قبائل لواته (Illasguas) [٥٦] المتوحشة وإلا فسوف نضع في أعناقهم نير الأمبراطور الذي أرغموا على وضعه في أعناقهم الذليلة أكثر من مرة ، فإذا غادروا المنطقة فسوف ينجو الجميع . ولا بأس عليك إن أنت عفوت عن القبائل وأحرزت بذلك انتصاراً سلمياً . ولكن ، لو أنهم ركبوا رؤوسهم واستمروا على تمرّدهم ، فسوف نقمعهم بالسلاح ، ولن يكون هناك سبب لأن نخجل مما سيلحق بالأسرى التعساء ، فإن هم قتلوا ، فلا ملامة على يوحنا . ان التقوى التي تغمر روحك ستظل بلا شائبة كما كانت منذ بداية الحملة . » ... وقد رضي البطل بمشورة رفيقه المخلص ، إلا أنه على الرغم من تحرره من همومه ، لم يبق ساكناً ، فقد كان هناك همّ آخر يشغل باله ، فلقد بدأ في تنفيذ مخططه الكامل ، وأصدر أمره لحامل درعه بأن ينقل عرضه للطاغية المغرور . وبهذه الكلمات أصدر للرجل تعليماته : « بلّغ هذا الكلام للمتمرّد وصك سمعه بهذه التحذيرات ، طالما أن قبائله ترتكب أفعالاً سيئة ، فإن العطف الروماني سيشملهم برحمته ويعلو عن جميع الجرائم ، ويزيل عنهم التهمة . ان الرومان لن يسارعوا بشنّ الحرب على أية قبيلة أو على كل قبيلة ، إذا هي أمسكت عن القتال ، وسعت الى عقد معاهدة والتمست العفو والسلام . إن الأمبراطور المدفوع بطيبته ، يحب أن يملك العالم كله بالحفاظ عليه وعلى حياة الناس والتمسك به وحكمه ، وبرفع أقدار هؤلاء الذين أخضعوا لحكمه وبكسر شوكة المغرورين ، انني أرجو ألا يجعل الخوف والقلق قلوبكم مشدودة الى آثامكم . ستكون الأمور جميعاً في صالحكم لو رجعتم عن هذه الأرض ، وسوف نأتي إليكم لكي نمنحكم العفو والسلام . انكم تعرفون ، مهما كثر عددكم ، مدى بأس الرومان ، وكم يتصف حكمهم بالكرم والخير والفضائل . أيها التعساء المساكين : أي حظّ عاثر تنوء به كواهلكم ؟ أولم تكونوا على الدوام رعايانا المخلصين ، وكنتم تفرحون لانتصاراتنا ، وتخضعون لنا كما ينبغي لكم ؟ أية أقدار شريرة جرّتكم في غروركم الى ضراوة الحرب ؟ ولكن الآن ، وأخيراً ، عليكم أن تنبذوا تلك الأفعال الشريرة التي ارتكبتموها في هذه الأرض التعسة . وأنت أيها الرجل التعس ما جدوى استفزازك للقوات الرومانية ؟ ولم تعد العدة للقذف بهؤلاء الرجال التعساء في أتون الدمار الكامل ؟ هل تظن أن أية قبائل قادرة على إلحاق الهزيمة بالجيوش الرومانية ؟ ...

(٥٥) أوستور (Austur) : يشير الى قائد القبائل الليبية .

(٥٦) (Illasguas) لواتة : قبيلة ليبية .

لقد قهرنا مملكة بارثيا (Parthia) [٥٧]، وقبائل : لازي (Lazi) [٥٨] وهونس (Huns) [٥٩] ٤٠٦/٣٨١ وفرانكس (Franks) [٦٠] وجيتيا Getae [٦١] وجميع القبائل المتناثرة في الأرض، انها تخدم جميعاً الآن في قصورنا، سعيدة بأنها أقلعت عن الحرب، وبأن تقوم بتنفيذ أوامر الأمبراطور، وأن تحنوا جباهها أمام سلطاننا. عليك أن تستمع الى هذه النصيحة بسرعة وأن تنقد هذه القبائل وعشيرتك. إننا لم نبعث بهذه الرسالة لأننا جبناء نريد السلامة لأنفسنا، وليس لأننا نفرّ من الحرب ونلتمس السلام. ان تقوانا تعمّ العالم، وترعى سلامتكم وتخشى عليكم وعلى ما في أيديكم من أسرى، أيها التعساء، ان هذه المسؤولية الثقيلة تدعوني الى محاولة انقاذ أرواح قواتك وهي على وشك أن يحلّ بها الدمار. ولسوف يؤذن لي بأن أمنحكم العفو من أجل الأسرى الذين في أيديكم. لكن، إذا دفعتك غلظة قلبك الى عصيان أوامري، اذن، فلتستعدّ للحرب غداً، وأعمل على إحاطة خنادقك بالتحصينات. أطلق قطعانك الى المرعى كما جرت عادتك، وأقم الأسوار التي سنقوم باقتحامها، واجمع قطعان أغنامك الثاغية، وقطعان الماعز المثقلة بحملها، والظبيان التي تصرخ وسط هذه القطعان. ليس ثمة حاجة لتدمير أبراجك الفارغة بالمنجنيق، فلسوف نكشف أعداءنا بطردهم بعيداً، وسوف نقوم بنهب جميع الكباش من وسط قطعان أغنامك، ولسوف نتناول إفطارنا فوق أسوارك المنهوبة ونحن في سعادة غامرة، ولسوف نشقّ تمثال قرزيل (Gurzil) [٦٢] التي تقول الروايات أنه يجلب لكم الحظّ ويحمي جيشكم، الى نصفين، ولسوف نحطم هيكله الخشبي ونلقي به طعاماً للنيران

---

(٥٧) بارثيا (Parthia) : جغرافياً تقع بغرب آسيا تضم جنوبي خراسان وما حولها. أخضعها الفرس ثم الاسكندر المقدوني ومنذ سنة ٢٥٦ ق. م. تكونت بها مملكة محلية باسم أسرة أرساكيس، واستطاعت الدولة الجديدة بسط نفوذها على مناطق واسعة من غرب آسيا ودخلت في علاقات طويلة ومتقلبة مع الرومان الذين تمكنوا من الاستيلاء عليها بعد حروب طويلة.

(٥٨) لازي (Lazi): واحدة من القبائل الكثيرة المتناثرة بمنطقة القوقاز. حاربوا الرومان في مواقع عديدة منها حربهم ضد الأمبراطور مارشيان سنة ٤٥٦م وكذلك الأمبراطور جستينيان الذي عمل على نشر المسيحية بينهم.

(٥٩) هونس (Huns) قبائل جرمانية مشهورة.

(٦٠) فرانكس (Franks) تجمع قبلي جرماني هاجم منطقة الراين الجنوبية سنة ٢١٠م واستولوا على شمال غاليا أي فرنسا الحالية وتحت زعامة ملكهم كلوفز Clovis سنة ٤٩٦م كونوا مملكة واسعة اشتبكت مع الرومان في عدة مواقع. وعنهم أخذت فرنسا الحالية اسمها.

(٦١) جيتيا (Getae) قبائل بمنطقة البلقان ذكرت كثيراً عند المؤرخين القدماء وعرفوا في الفترة المتأخرة باسم داكي حاربوا الرومان كثيراً الى أن تغلبوا عليهم وصيروهم ولاية باسم داشيا خلال القرن الثاني الميلادي.

(٦٢) قرزيل (Gurzil) إله ليبي قديم.

٤٠٧ / ٤٢٢ المتأججة ، وعندما تتفرق قبائلكم أيدي سبا فسوف نتعقبها في السهول والجبال ، وحيثما امتدت أيديكم المتوحشة لترتكب الفظائع . سوف يكون انتقاماً في حرب عادلة ، بعد أن نقهر على السهول رجالكم ونقطع رؤوسهم ، عندئذ ستدركون مدى تعاظم قوتنا في الحرب ، ولسوف تتعلمون عندما نثأر بسيوفنا لهؤلاء الأفارقة التعساء ، وعندما تسقط صفوفكم صريعة في الخنادق هنا وهناك » .

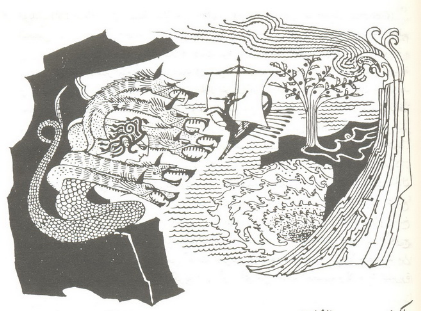
ولم يكد القائد ينتهي من كلامه حتى كان الرسول يسرع في طريقه صوب الجبال ، فاندفع من خلال الخيام مخلّفاً المعسكر وراءه ، ثم أخذ يسعى الى مقرّ قيادة الطاغية المتوحش . وهلّ الليل برطوبته التي حجبت النجوم المتلألئة والكواكب السيّارة في قبة السماء ، أما القمر فلم يعد يضفي بضوئه على الأرض الحالكة الظلمة ، فقد كان قد غاص في البحر في نهاية الشهر ، إلا أن خيام الضباط لم تكن تشعر بالظلام الحالك ، وعلى طول السهول كانت النيران تتأجج



من المواقد وعلى الجبال العالية ، كان الأفق يتوهج بالنيران ، ومن الأدغال الكثيفة كانت ٤٦٧/٤٢٣ تتصاعد سحابة متوهجة . ترى ، من كان يستطيع أن يميز بين السماء والأرض في مثل تلك الليلة؟ من كان يستطيع أن يعرف أن النجوم هي التي تتلألأ ، فقد كان المكان كله مضيئاً ، فالأرض كانت تتوهج بالنيران ، وقبة السماء كانت تتوهج بضوء النجوم . وحيثما كانت تتطاير شرارة أو جسم ناري عبر السماء ، كان يظن أنه نجم يهوي في ظلام الليل . إن أي شخص كان يشاهد الخيام في السهل البعيد ، كان يظن جهالة أن النجوم ترقى الى مواضع غريبة في السماء ، وعلى صفحة الماء كان البحّار يضلّ طريقه ولم يكن بقادر على تحديد مجرات النجوم ، ويضطر في نهاية الأمر أن يعود أدراجه بزورقه ويتخلى عن الرحلة .

وكان المغاربة المسلحون اليقظون يمضون الليل الطويل بلا نوم ، يجرون هنا وهناك ويطوفون بالخنادق بآذان مرهفة يصغون لكل صوت تحسّباً لأي شخص يحاول تحت جنح الظلام أن يداهم المعسكر بحيلة ما . كان الجنود الليبيون يقومون بدورياتهم وبحراسة الخيام كل في دوره ، وكان كل منهم يأخذ نصيبه من النوم وهو في كامل عدته . وكان بعض الجنود يعدلون دروعهم الواقية ، فيما كان آخرون يشدون جعبات السهام حول أعناقهم في حين كان آخرون يمسكون بالحراب والأقواس . كانوا يجلسون متكئين على سيوفهم ورؤوسهم منحنية فوق صدورهم ، لم تذق أعينهم طعم النوم إلا قليلاً ، وكرة بعد أخرى ، كانوا على وشك رفع رؤوسهم ، إلا أنهم لم يقووا على ذلك ، فكانوا يغلقون عيونهم ويديرونها في محاجرها ، وكانت رؤوسهم تهتز وهي متدلية فوق صدورهم . وفيما كان هؤلاء يقومون بأعمال المراقبة والداورية كل في دوره ، كان هناك شبان آخرون ينعمون بنوم هادئ في الخيام الآمنة ، وكانت عقولهم وحدها هي التي تفكر في أعمال الحرب الكريهة . ان افتقار الجنود للنوم كان يزعج أرواحهم المضطربة وكانوا يتوهمون رؤية صور شتى في الليل . كان الجندي عندما يريح أطرافه في إغفاءة رقيقة كانت أحلامه تطير بأجنحة بلّلها الندى . كان يحلم بأنه يهاجم معسكر الأعداء من فوق الجبال العالية ، كان ينام وجسده بلا حراك ، لكن عقله كان يعمل . يشنّ الحرب ويهزم الأعداء ويطردهم أو يصيبهم بجراح ، أو يتفادى ضربات العدو بترسه الواقي . كان إحساسه وبداه موزّعين . وكان كلّ منهما يتحرك . كان يحلم بأنه يناضل من أجل حياته بين الغابات ، إذ كانت ساقاه الخائرتان تبدوان عاجزتين أثناء نومه . وغالباً ما كانت عيناه تريان الحرب الضارية وهي تطبق عليه . وكانت عيناه تشاهدان النضال رغم أنهما مغلقتان ، وفي فزع شديد كان يحاول أن يندفع وأن يحرك يديه . ولكنهما تكونان عاجزتين وهو نائم . كم من مرة ضرب بسيفه

٤٦٨ / ٤٨٨ المهزول رفيقاً في السلاح ظاناً أنه من الأعداء، وكم من مرة كان الرجال يسخرون من أحلامهم وهم يروون محنة تلك المعارك الوهمية. وهكذا كان جيش المغاربة، وهو يتكهّن بما سيكون عليه موقفه في وسط الغابات، يحلم بأن حظّه العاثر سيجرّه الى مأزق. كان يحلم بأن معسكره قد سقط في قبضة الأعداء، كان يبدو عاجزاً، لا يستطيع حتى البكاء على إبله المسروقة، أو أن ينهض للانتقام لها، وكان كل جندي يرى طابور الإبل وقد تبعثر فوق السهل بأكمله، ويداه مرفوعتان بلا جدوى. وكان الجنود النائمون يرون رجالاً منهم وقد سقطوا صرعى في الأراضي المقفرة البعيدة. كان أي واحد منهم يحاول الهرب يجد نفسه عاجزاً وتتهاوى ساقاه تحت ثقل جسده وهو نائم. كان العدو الغاشم يثير الرعب في نفوس بقية الرجال جميعاً، ويغرس رماحه ونصاله في بطونهم، وفيما كان يحاول في عنف أن يتفادى ضربة جارحة، ضرب صدر امرأته... ثم يرى امرأته وقد أخذوها منه، يرى العدو الناهب وهو يجرجرها من شعرها. وهكذا كان كل واحد من الجنود يحلم، ويثير الحلم الرعب في نفسه. فينتفض جسده، وكانت الرؤى التي رأوها تبث الرعب في نفوسهم وهم يروون قصصها، ولكنهم كانوا يسعدون عندما يدركون أنها كانت مجرد رؤى زائفة. هؤلاء التعساء المساكين، لقد كان الوقت الذي ترك لهم مصدر ابتهاج شديد.



الكتاب الثالث

كانت المشاغل والهموم تثقل فؤاد القائد الذي لا يقهر ، فكان لا يسمح للنوم أن يداعب ١ / ١٥
جفونه من فرط اهتمامه برجاله ، بل ظلّ ساهراً وعيونه ترقب قلب المعسكر . وكان ضبّاطه يحيطون به من كلّ جانب في حلقة متراصّة ، وهم يعقدون مجلساً للتشاور حول الأمور الملحّة ، ويمضون الليل بطوله في مناقشات مسهبة ومتنوعة . وأخذوا يستعيدون ذكرى مباهج حياة الجندية ، وكلّ محنة مؤسفة مرّ بها جيش اللاتين في غزو العالم وإخضاعه . كانوا يروون قصص تلك المعارك حسب نوعيّتها ، تلك المعارك التي أبلوا فيها أحسن البلاء ، ويتحدثون بمرارة عن تلك المعارك التي لم يحسنوا الإعداد لها . وفيما هم يروون قصصهم المختلفة ، قال القائد فجأة :

« لكم أتذكر جيداً ، أيها الرفاق ، أحوال أفريقيا عند وصولنا آنذاك ، عندما حلّ انتقام الله بهذه المملكة المتوحشة ، فقضى قضاءً مبرماً على الطاغية الكريه وعلى قبائل

٣٧/١٦ الوندال (Vandal) [١] في السنة المائة من حكمهم ،فعلى الرغم من أن جيلمار (Gelimer) [٢] البغيض كان قد جرّ الخراب على أفريقيا بما ارتكبه من آثام ، إلا أن القائد العظيم بيليزاريوس (Belisarias) [٣] كان في ذلك الوقت قد أخضع القوة السيدونية [٤] للعبودية ، وعرض الطاغية الأسير أمام أنظار الزعماء في المدينة . كم من مرة نجح هذا القائد بقوته الجبارة في إنهاء الحروب بسرعة فائقة ، وكم كان الحظ حليف هذا البطل عن جدارة ، كان جيشه قد اتخذ مأوى في ظلال الأشجار الكثيفة ، وعلى الرغم من أن الوقت كان خريفاً ، وعلى الرغم من أن الجيش خاض الجانب الأكبر من المعركة في منطقة فويبوس (Phoebus) [٥] التي يبهر ضياؤها الأبصار ، وفوق الرمال الساخنة ، إلا أن حرارة الشمس الشديدة لم تؤذي الجنود. وعندما استتب السلام ، وأسر الطاغية ، لم تكن خيرات ليبيا أقلّ مما كانت عليه قبل المعركة . ولقد تركت ليبيا وهي تنعم بوفرة في الموارد ، وزراعة جيدة ، وبعد رحيلي ظلت على تلك الحال الطيبة ، بل وحسّنت أحوالها . إنني أذكر كيف كانت بخصوبة أرضها ووفرة محاصيلها تتوسع وتنتج أجود أنواع الزيتون وعصير اله الخمر (Iacchus) [٦] من الكروم . كان هناك سلام راسخ في هذا المكان . فما الذي أصاب هذه البلاد بجنون الحرب ، وكيف أشعل الغضب الأهوج النار في هذه الحقول التعيسة؟ أي من آلهات الحرب تحرك هذه الأعداد التي لا حصر لها من الناس ، وتلهب ظهورهم بسوطها الكريه؟ ... أو ، أي من الهات الغضب والأرواح الشريرة

---

(١) الوندال Vendal — : قبائل جرمانية غزت فرنسا سنة ٤٠٦م ثم اسبانيا ، بعدها عبروا لأفريقيا سنة ٤٢٩م واستولوا على قرطاجة سنة ٤٣٩م كون ملكهم فيسريك (Gaiseric) أمبراطورية تضم شمالي أفريقيا الغربية وجنوب ايطاليا وشرق اسبانيا وبعض جزر البحر الأبيض. استطاعوا سنة ٤٥٥ غزو مدينة روما ونهبها . استمرت دولتهم حتى سنة ٥٣٤م حين قضى عليهم القائد البيزنطي بيليزاريوس . (Belisarius)

(٢) جيلمار Gelimer : آخر ملوك الوندال بشمال أفريقيا.

(٣) بيليزاريوس (Belisarius) : انظر مادة بيليزاريوس ، ص :

(٤) سيدونيان (Sidonian) : ربما يعني الشاعر هنا الوندال الذين كانوا يقيمون في قرطاجة التي أسسها أصلاً الفينيقيون من صور.

(٥) فويبوس (Phoebus) - مؤنثها (Phoebe) وتعني متألق أو لماع. وفويبوس لقب من ألقاب الإله أبوللو أو فويبي (Phoebe) فهو لقب الالهة أرثيميس Artemis وأحياناً تطلق كلمة Phoebus على الشمس و Phoebe على القمر.

وربما عني الشاعر هنا أن المعركة تمت في منطقة مشمسة ومقمرة أي منطقة صافية السماء.

(٦) Iacchus) : ابن الإله زوس وهو إله الخمر وعرف فيما بعد باسم (Bacchus)

مزجت أرواح هذه القبائل بنار فايتو (Phaeton) [٧] وجاءت لتغرق كل شيء في أتون هذا ٣٨ / ٧٠ الدمار الشامل؟ ليتكلم أي من الحاضرين هنا يجد في نفسه القدرة على إنبائنا عن ذلك الزمان؟ . . . » .

وهنا ردّ جينتيوس (Jentius) ، وهو واحد من الرجال البارزين ومن الزعماء ، على قائده بقوله : «أيها القائد الهادي لضباطك ، أنت يا من تستحق منا كل ثناء ، وسند هذه الأرض المتداعية ، وأمل ليبيا ، أنت يا من أسبغ الفخار على انتصاراتنا ، لك أقول ، أن مصدر هذه الحرب الكريهة الحالية خاف علينا ، ولا يزال سراً مغلقاً بين طيات هذه المخابئ. ان مساعدك ساسيليديس (Caecilides) [٨] من أبناء هذه المنطقة ، ويستطيع ، إن أذنت له ، أن ينبئنا عن أسباب نشوب هذه الحرب . لا ريب أنه على علم بكلّ شيء . فأبن البلد يعرف كل شيء يقع في بلده . الناس والأماكن ، ومصدر الشر ، والبلاء الذي حلّ في الأزمان الغابرة . » .

وطلب القائد من ليبيراتيوس (Liberatus) أن يتكلم ، فامتثل الأمر في سرعة وقال بنبرات واضحة : «سأحاول ، يا أعظم القادة ، أن أبيّن أسباب هذه البلايا والشرور وأن أصدع لأمرك . ومع ذلك ، فعندما أحاول الكلام ، ينبعث لهيب مميت في أعماقي ، ويصيب الدم البارد جوانحي باضطراب ، وتصعب عليّ رواية القصة رغم تحمّس لساني . لقد طلبت إليّ أن أتحمّل تلك المحن مرة أخرى وأنا أروي قصة الحرب الضارية التي ناءت أفريقيا تحت ثقلها . ولكن ، طالما أن أوامر سيدي وحاكمي تلحّ عليّ ، فلتمض بعيداً أيها الحزن ، فلسوف أتغلب عليك بجسارتي . فلا بدّ أن أصدع لهذه الأوامر وأن أنفذها في خشية ورضوخ .

في البداية ، عانت أفريقيا من خراب مضاعف ، والآن ، وكرة أخرى ، وأسفاه ، تعاني من دمار مزدوج . ان الشر الذي عمّ العالم أخذ يعمّ أرضنا . لقد كان آبوينفان (Juenfan) [٩] سبب تعاستنا في وقت ميلاد أنتالاس (Antalas) [١٠] المتوحش . في الأزمان الغابرة كان السلام يسود أرض ليبيا . وكانت أفريقيا المسكينة تفرح بأن تتزيّن بتيجان جديدة . كان

---

(٧) فايتون (Phaeton) ابن اله الشمس . استأذن والده في قيادة عربة الشمس ، فلم يحسن قيادة خيول العربة بما أغاضها وكادت أن تحرق الكون باللهب ، فأسرع زيوس بقتل فايتون رأفة بالكون.

(٨) (Liberatus = Caecilides) عسكري روماني بارز .

(٩) جوينفان (Juenfan) : والد الزعيم الليبي أنتالاس .

(١٠) أنتالاس (Antalas) : قائد ليبي له دور بارز في الملحمة .

٧١ / ٩٨ المزارعون يحصون محاصيلهم من الحبوب الذهبية ، وكانت الحمرة تصبغ وجنتي (Bacchus) [١١] عندما يحتسي نبيذه المعتاد . وكان السلام البهيج يزين جميع أشجار الزيتون المثقلة بثمارها . وقد ازدهرت أحوال البلاد لمدة ثلاثين عاماً بعد مولد أنتالاس (Antalas) ، حتى أن أكبر جانب من بلادنا كان مشرقاً وقوياً ، حيث كان (لوسيفير — Lucifer) [١٢] يبعث بضوئه المباشر الذي كان يفوق ضوء جميع النجوم في قبة السماء . ان المآسي التي جلبها لوينفان (Luenfan) وقومه على بلادنا ، عمّت عليهم وعلى أولادهم ، أيها الأب القوي القادر ، فعندما كان رضيعاً ، سرعان ما أمسك بثدي أمه بشفتيه المتوحشتين ، وعندئذ أضرمت روحه بنيران الهة الغضب ماجيرا (Megaera) [١٣] فطارت الشائعات تتنبأ بأمور مفزعة . وتوجه أبوه بنفسه الى معبد أمون (Ammon) [١٤] الزائف ، وطلب من الآلهة نبوءة صادقة عن ولده المجرم وقدم الكثير من الأضحيات على مذبح جوبيتر [١٥] ثم توجه الى المذبح الكئيب لأبوللو (Apollo) [١٦] أشاد بمجد فويبوس (Phoebus) [١٧] وسفكت الدماء على المذابح الرهيبة من أجل أكثر النبوءات شراً ، عندما قامت الكاهنة معصوبة الرأس ، بذبح حيوانات من كل نوع ، وأثارت الأقدار . وفي مبدأ الأمر ، انتزعت في عنف أحشاء الحيوانات التي ذبحتها وأخذت تتفحص الخيط الطويل من الأمعاء ، ثم رمت بالأجزاء الداخلية الكريهة في لهيب النيران الأبدية . وبعدئذ ، بدت مثل الحيوان المتوحش وأصابها جنون مفاجئ . وفي هذه الهيئة المرعبة ، أخذت في الوقت نفسه توجه نصال السكاكين الى جسدها وتغرسها في لحمها ، وتزيد من جراحها بضربات من يديها من جديد ، فانبثق دم غزير من جسدها . ورفعت رأسها عالياً ، ثم أخذت ، وهي تدير عينيها في محجريهما ، تثب عالياً وتدور بجسدها بقفزات وتشنجات شريرة . وأخذ اللون الناري يخضب وجه الكاهنة المقدسة عندما غشته علامة الألوهية . كانت

---

(١١) (Bacchus) : إله الخمر .

(١٢) (Eosphoros = Lucifer) : نجمة الصباح أو الهة الفجر .

• (Luenfan) : والد أنتالاس .

(١٣) ماجيرا (Megaera) احدى ثلاثة أرواح شريرة / تيسيفون Tisiphone مختصة بالقتلة ، اليكتو Alecto مهتمة بالعقاب الأبدي ، وميجارا (Megaera) وتختص بالحقد الأسود .

(١٤) آمون (Ammon) إله مصري أكبر معابده توجد بواحة سيوة ويرمز اليه بقرون كبش .

(١٥) جوبيتر (Jupiter) : أكبر إله الرومان .

(١٦) أبوللو (Apollo) أحد آلهة الإغريق والرومان .

(١٧) فويبوس (Phoebus) لقب لأبوللو .

رقبتها وشعرها يتحركان في حرية فوق كتفيها . وكان صدرها يدمدم بلهاث خشن ، ثم أخذت ٩٩/ ١٣٧ تتمتم بكلمات مضطربة ومشوشة ثم تنطق بكلام يحمل معنى مزدوجاً والزفرات تموج في صدرها وهي تتلقى وحي الآلهة . وبهذه الصورة ، انتفض إله النار (Vulcan) واقفاً ليشعل نيرانه ، وليدفع الرياح بمنفاخه بمهارة ويجمعها معاً . وبعد أن أضرم النيران ، أخذ يثير هبات قوية من الريح الشرقية ، ويجدّد الزوابع في أتونه . وعندئذ أخذت الكاهنة تتنبأ بالمصير المشؤوم ، وكان جوابها في هذه الكلمات الشريرة : (Luenfan) ، ان الأقدار قد حكمت بدمار قبائل الوندال وبخراب ليبيا كذلك ، ان الأقدار سوف تخفف من النير الذي يطوّق أعناق الليبيين . وعندما يبلغ ولدك مرحلة الرجولة ، فإن جميع ألوان الجنون والغضب ستلقى بالعالم التعيس الى أتون الفوضى . ان تيسيفون (Tisiphone) [١٨] الملتهبة بدأت ثورة غضبها مع ثعابينها الملتوية وأرسلت بخصلات شعرها الخشن مع الهواء . ان وجنتيها مبلّلتان بالسمّ الأسود الذي تفرزه ، انهم يشوهون ملامحها بعيونهم وبألسنتهم ذات الشعاب الثلاث ، فما يبدو صدغاها مرعبين بما يغطيهما من دماء متخثرة . إنني أرى الأنهار وهي تتدفق من الجبال مصبوغة بدماء الوندال . أنظر ، انهم يحرقون المدن الليبية بالنيران ، ثم يستولون على الغنائم بعد أن ينتزعوها من بين الحطام . لماذا ، أيتها القوى العليا ، دبرت هذا الدمار الشنيع ؟ . ولماذا تحطمين كل شيء في نفس اللحظة ؟ . ولماذا جعلت قوة المغاربة تتعاظم ؟ سوف ترين كيف سيهلكون كرة أخرى ، أي جدوى من أن تكون الشجاعة التي لا تقهر سبباً في جلب الدمار في فترة قصيرة . ان الطفل سيقيم كثيراً من الأمم ويقعدها تحت اسمه ورايته ، وان سنوات عمره ستكون في أيدي أقدار متغيرة . ان أفريقيا المرهقة ستدعو خالقها ، الإله الذي تعبده والذي ينبغي على الجميع أن يؤمنوا به . وعندئذ ، وأأسفاه ، سيقوم قائد الأمة الرومانية العظيم القوي بتوجيه قوته التي تحارب في الشرق الى هذا الجزء من العالم . أنظروا ، ان أساطيله تثير الرعب في العالم بأسره .

والآن أرى الصبي الذي لا يقهر ، فريسة رعب مفاجئ عند وصول الأساطيل ، ويضع نير الرومان في عنقه وهو يلهث . ان قوة قاهرة تخضبه ، ومع ذلك فإنه يناضل من أجل تلك القيود التي تطوّق عنقه . انظروا ، كيف ينجح في تحطيم السلاسل ويعد للحرب كرة أخرى ، وتطلعوا الى هذا الجمع الحاشد من الناس الذي يلتفّ حوله ، وهو يندفع لقلب كيان العالم . فلماذا تفرح هذه القبائل بهذه الانتفاضة ، وهي على وشك الهلاك وسط هذا العالم الذي يسقط ؟ ما الذي

(١٨) تيسيفون (Tisiphone) إحدى ثلاث أرواح شريرة وهذه مختصة بعقاب القتلة.



يجعله يرقى الى هذا الارتفاع الشاهق الذي سيسقط منه؟. انظروا ، انه يمضي عائداً ، وهو مثقل بالغنائم ، ثم يعود في نهاية الأمر ليستحمّ في الحقول الذي تغطيها دماؤنا.»

كانت وهي تتكلم تهزّ رأسها في عنف وتدير وجهها للخلف من شدة الغضب. وفجأة ، انتابتها رعدة قوية ، ثم صمتت وتهاوت الى الأرض في عنف. وأخذت تدمدم بشفتيها كلاماً غير واضح يماثل في صوته ذلك الصوت الذي يصدر عن ماء ينساب من انبوب برونزي مجوف.

ومع ذلك ، فإن هذه الردود الغريبة أنعشت الناس وأسعدتهم ، فالتزموا الصمت لأنهم كانوا أهل قبيلة متواضعة مهيضة الجناح. لقد كان يجتمع في شخصه أمل القبيلة ومخاوفها ، فأظلوه بحمايتهم وعاملوه كما لو كان شخصاً مقدّساً وسعدوا بتلك المكاسب التي وعدتهم بها الأقدار.

وكان الصبي قد بلغ السابعة عشرة من عمره عندما امتدّت يده للسرقة. وعلى غرار

١٩٤/١٥٧ (كاكوس = Cacus) [١٩] الذي كان على وشك أن يفقد حياته على يدي هرقل فقد تسلل تحت جنح الظلام ، وأطبق بيديه على كبش كبير كان يقود قطيعاً من الأغنام . ورفعه عن عنقه وحمله وهو يقاوم بشدة . ثم جرّه الى كهف وخنقه بأن أطبق بقبضته القوية على عنقه . وسقط الكبش قائد القطيع ممدّداً أمامه على الأرض تحت قدميه ، وهو يلهث . وبعدئذ استخدم سكينه الحادة لسلخ جلد الكبش ولم يبق إلا اللحم ، ثم قام بتقطيع الحيوان الى قطع صغيرة ، ثم علقه من أطرافه على سفود ليحترق في النيران الملتهبة . وأخذ يعمل أسنانه الحادة في جثة الحيوان والنار تتقد ، والخوف يمتلكه ، فأتى عليه كلّه . ومنذئذ ، بدأ يكثف من سرقاته لكي يطعم معاونيه بتلك السرقات التي تجري في الخفاء . ثم بدأ يستميل إليه أشخاصاً يشاركونه في سرقاته ، وأخذ يدربهم على السرقة وكيفية التسلل بهدوء تحت جنح الظلام . وكان ينجح مرة في سرقة قطيع كامل من الأغنام ، ومرة في سرقة قطيع من الماشية . وأعدّ مخابئ لكي يخفي فيها غنائمه في الجبال العالية بين الصخور المخفية . وكان يجرؤ على إعداد كمين في وادي محتل ، ثم يقوم باستفزاز جيش الوندال من مخبئه .كم من قائد وكم من عدو صرعه بسيفه ، بعد أن كان يوقعهم في كمين في منتصف الممرات . لقد كان هذا الرجل الكريه ، مدفوعاً بتلك الألوهية الشريرة ، يتطاول على الكتائب الليبية ويصرعها برمحه فوق السهول الفسيحة .

ولقد كان الزمان يرمي هذا الشعب المسكين بأقدار مريرة ، فخربت المملكة في سنتها المائة . ثم ، ولأول مرة ، بدأ فريكسيس (Frexes)[٢٠] في إضرام النار في المدن في بلادنا ونهب البيوت واكتساح السهول . وهنا تجرأ نافور (Nafuır) [٢١]، بعد أن تعب في تعبئة قوته الكبيرة ، على شنّ حرب مضادة . وبعد أن جمع الرجال من بين الناس العاديين من كل مكان ، بدأ في الزحف على حدودنا ، واضطرنا المصير العاثر لترك أراضينا وديارنا الغالية في رعب وفزع . واشتعلت نيران الغضب في أعماق ذلك اللص المتوحش حتى لم يعد هناك مكان يأمن المرء فيه على حياته . لقد تعرضنا للظلم وطردنا من أراضينا بسبب هذه الأقدار الشريرة . وفي تلك الفترة

(١٩) كاكوس (Cacus) : عملاق ينفث ناراً مع أنفاسه وهو ابن هيفايستوس (Hephaestus) إله النار والفنون الحديدية . قتل كاكوس من قبل هيرقل الذي كرّم لدى الرومان لهذا السبب .

(٢٠) فريكسيس (Frexes) قبيلة ليبية .

(٢١) نافار (Naffur) قبيلة ليبية . ولا بد أنه يقصد رئيس قبيلة النافور .

١٩٥ / ٢٣٠ الحرجة من حكم الوندال تلاشت جميع مباهجنا وأفراحنا . وقد جاء علينا زمن كنا نبكي فيه بأسى على آلهتنا . واضطررنا الى أن نلتمس أرضاً آمنة نلوذ إليها .

وعندئذ قام هلدمير (Hildimer) (٢٢) بشنّ الحرب بقواته ، ولكن كان مقدّراً له أن يواجه الكارثة ، لأنه لم يكن معتاداً على قتال المعارك . لم يستطع أن يقهر العدو بقوته كما أنه عجز عن الاصطدام بقواته الضارية . ووسط الجبال تقطعت خيوط حظه العاثر لأن المحنة أفزعته . ان الأقدار الظالمة غالباً ما ترعى هؤلاء الذين يلحقون الأذى بالخيّرين من الناس . فلقد كان قد نجح في رفع رايته فوق قمم الجبال وفي الغابات ونجح جيشه في محاصرة العدو من فوق الصخور . ولم يكن أمام العدو منفذاً للهرب بعد أن أطبق عليه من جميع الجوانب ، ولم تغنه أعداده ، ولم يكن أمامه أي أمل للنجاة ، ولم يستطيعوا الصمود . إلا أن الصخور الشديدة الانحدار وقفت عقبة أمام القوة الرومانية ، ووجدت قبيلة الأعداء حماية في المنحدرات الصخرية ، وكانت تحيط بها الوديان الجبلية من كل جانب . ووسط تلك الغابات والأدغال ، كان يوجد مكان موحش محاط بالمنحدرات الصخرية من جميع جوانبه . وعلى الرغم من أنه كان شديد الانحدار ويمتد الى قمة عالية ، وعلى الرغم من أن منحدراته كانت مغطاة بأدغال كثيفة من أشجار الصفصاف ، فقد كانت تمتد فوق أعلى قممها مساحة من الأرض ذات قمة مسطحة ولم يكن هناك طريق يؤدي الى ذلك المكان ، اللهم إلا مجرى واحد ، يمكن أن يؤدي الى القمة المسطّحة بمسارات ملتوية شديدة الوعورة . وإيجازاً ، كانت تلك المساحة من الأرض بلا طريق يؤدّي إليها ومحاطة بغابات كثيفة .

وعندما تبين هلدمير (Hildimer) أن الأخاديد تطوق المكان مثل القلعة وأن ساحة القتال كانت مجرد سفح تل بلا ممرّ ، خشي من المجازفة بمواجهة خطر داهم . وعند تلك النقطة أصدر أوامره لصفوف الجند بالوقوف تحت أعلامها ، ولكنه لم يكن يدري من أي موضع يمكنه الاقتراب من مواقع العدو المحصنة . وباءت كل المحاولات بالفشل لأن الأقدار كانت معاكسة . وكانت الشمس وهي تعلو الى كبد السماء ترسل بضوئها الباهر . وأحس الجند بأن حلوقهم تحترق بسبب العطش ، ودفعت حرارة الشمس القائظة الجنود الى التقدم . وجرّ العطش بعضاً منهم الى حيث كانت المياه الباردة أسفل السفح ، فانسحب الرجال لأن مجرى

---

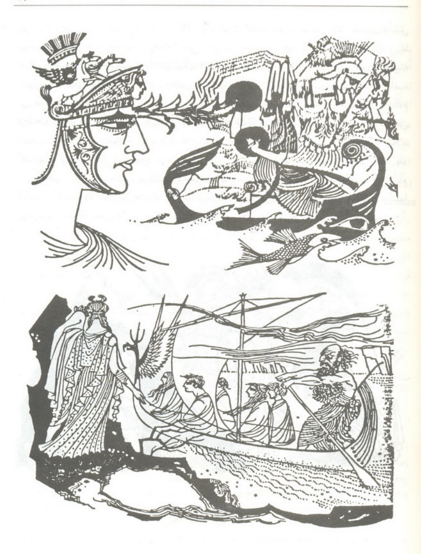
(٢٢) هلدمير (Hildimer) : ملك وندالي .

الماء كان بعيداً جداً وقتذاك. وكان الخدم يحملون قرب الماء المصنوعة من جلود الحيوانات، ٢٧٢/٢٣١
ويملأونها من مياه عثروا عليها في وادٍ عميق. ولكن، عندما وصل أول جندي من جنود
الوندال الى تلك المياه التعيسة، وأعلن أنه ارتوى من الماء، سرعان ما اندفعت جماعة كبيرة من
الجند الى المجرى. وهكذا تجري المقادير، ويتسبّب الحظ العاثر في إبادة الجيش. بل وأكثر من
هذا أن أحد حملة الأعلام ظن خطأ أنه ينبغي تحريك العلم من مكانه، ومن ثم هبط بحصانه
من الجبال العالية. وتبعه الجيش بأسلحته الكثيفة، وأصبحت المنحدرات الصخرية مكشوفة.
ولكن، عندما أرادوا التماس موطئ فوق الصخور وأداروا ظهورهم، ظن العدو أنهم يهربون.
فاندفع جنود الأعداء هابطين من قمم الجبال، وألقت تلك المحنة الرعب في قلوب الجميع، بما
فيهم الضباط والقادة. وعمد الجنود الى انتزاع الأعلام والهرب. ولم يكن هناك سهل يمكن
للخيول أن تركض فوقه عندما أطلق لها العنان. وسقطت الخيول مذعورة وسط صخور الجبل
وأحجاره العالية ومنحدراته. وتهاوت تحت أثقال أجسادها. ولقي الجنود التعساء نفس
المصير، عندما ألقى العدو المندفع الذعر في قلوبهم وأخذ يتعقبهم في حماسة واندفاع. وسقط
حشد كبير من الجنود في جميع الجوانب وتمزقت صدورهم بأسلحتهم. واندفع البعض من
الجنود منكفئين على أسلحة زملائهم الذين سقطوا، فما تراجع البعض منهم بعد سقوط
زملائهم. ووسط هذه الفوضى الشاملة اندفع طابور الجنود هابطاً من الجبال العالية. وحتى
عندما جرت اشتباكات بالسلاح، فإن الخيول الجسورة كانت تندفع للأمام أثناء عملية
الانسحاب السريع، فتسقط وتسحق راكبيها تحت أجسادها الثقيلة. وعلى نفس الصورة،
كان السبيل المندفع من الجند يطيح بحبات الزيتون من أشجارها. ولم تكن قوة العدو السبب
فيما حدث، بل كان الحظ العاثر الذي تسبّب في سحق الجنود والتعجيل بدمار دولتهم القوية.

وهنا عاد الجيش المحطّم، وأطاح بالملك الخائر الرعديد الذي أبلته السنون، والذي كان
يرتجف خوفاً من الكارثة، وسلّم صولجانه للطاغية الباغي. وعندها، حزن الأمبراطور حزناً
شديداً على انفصام عرى تحالفه مع هذه المملكة، وبعدئذ أوفدت روما جنودها الى ليبيا
ليحرزوا انتصاراتهم المألوفة. ومع ذلك، فإن العديد قد هلكوا أثناء تلك المذبحة التي لم
تستغرق وقتاً طويلاً، وذاق الكل طعم تجارب الحرب المريرة. ذلك أن أفريقيا كانت آنذاك
تعاني من خراب مزدوج، فمن ناحية، كانت تعاني من تلك الحرب المستعرة، ومن ناحية
أخرى، كانت فريسة أعمال السلب والنهب التي يقوم بها الطاغية. ولقد حرم القدر الظالم
سكان البلاد من الأمن الذي يعيشون فيه، وكان الموت يتهدّدهم من كلا الجانبين. فمن أين







٢٧٣ / ٢٨٩ يهربون؟ والى أي جانب يميلون؟ لقد كانوا يتعرضون للسلب والنهب من كلا الجانبين وأطبق الرعب على الرجال جميعاً ، وهكذا حلّ الخراب بجميع أرجاء ليبيا ، أعظم البلاد ، بما تعرضت له من نهب وسلب تماماً مثلما تهلك السفينة وسط رياح عاتية . ان الأمبراطور ، بطيبته المعهودة ، أشفق على هذه البلاد ، وقضى على تلك المحن التي نزلت بشعب قرطاجنة وخلّصه من متاعبه وآلامه . وكقائد منتصر ، استطاع أن يقضي على كلا الشرّين وأن يوفّر لحكام قرطاجنة المزيد من الأمن . ان جيشكم قد خلّص الأفارقة التعساء من براثن الموت ، ورفع عن الشعب المنكود نير العبودية . وبعد ما عانيناه من أحزان ، فإنكم أعطيتم الفرحة لهذه البلاد الصديقة . وطالما وقفتم في وجوه هذه القبائل ورددتموها على أعقابها وطالما أخضعتم العالم كله لسيطرتكم ، فإن المتوحشين سيظلون يرتجفون فرقاً وسيظلون خاضعين لسلطانكم . في الأيام الغابرة ، كان قادة المغاربة يخشون قتالكم ويفزعون من طريقتكم في ادارة المعركة . وكانوا يهرعون ، بسرعة وعن طيب خاطر ، للاستسلام لكم والالتزام بقوانين الأمبراطور .



٢٩٠/٣١٣ وهكذا تحررت بلادنا عشر سنوات كاملة ، وازدهرت وعاشت في سعادة ، رغم ظهور بعض المتمردين بين وقت وآخر ، إلا أن العدو كان يقهر قبل أن يحصل على أي مغنم . لم تعرف أفريقيا الحرب ولا مآسيها طالما كنتم متيقظين ، أيها الآب . وكانت لوكاديا (Leucadia) [٢٣] تتابع باهتمام معارككم وبطولاتكم . فلقد ارتوت الحقول بالدماء وتغطت بطبقة بيضاء من العظام . لقد كانت الرؤوس تطيح من فوق أبدانها بضربة محراث ، وكانت جثث القتلى تتناثر فوق الحشائش . لقد كان الكلّ يدرك إنجازاتكم الحربية ، بتأييد من الله وبفضل سيوفكم . من غيركم كان قادراً على أن يقيم فوق هذه السهول كلّ هذه النصب التذكارية للانتصارات؟ انكم ، بعظمتكم ، قد أضفيتم مزيداً من الشرف والفخار على نصب سليمان (Solomon) [٢٤] التذكارية ، وأضفتم لها المزيد من النصب . وذات مرة ، أعلن يوداس Iaudas [٢٥] الفظ الحرب عليكم ، ولكنه قبل أن يبلغ السهول المكشوفة ، ارتعد خوفاً عندما رأى الرومان يهاجمونه في وسط الغابات . وبالمثل ، فإن ستوتياس (Stutias) [٢٦] خرج من منطقتنا وحاول شنّ الحرب عليكم . لقد كانت هذه المحنة من فعل أيدينا ، وحلّت على مملكتنا الموالية لكم تلك الهموم التي لا توصف . فقد نشبت الحرب الأهلية من جديد وتعرضت قرطاجنة ، بعد أن ألغيت المعاهدة ، لأعمال السلب والنهب ولأخطار داهمة في حرب من جانب واحد . ومع تلك ، فقد لحقت الهزيمة بالعدو واستسلم في زمن وجيز . ورأته (ميمبريسا -(Membressa) [٢٧] وهو يتجمع فوق حقولها ، فعمدت الى الفرار بالمثل ، عندما نجح بيليزاريوس (Belisareus) المنتصر ذو البأس ، في قهر العدو بقوته المتواضعة .

---

(٢٣) لوكاديا (Leucadia) : ليكودا مكان غير معروف بأفريقيا ، هناك مكان اسمه ليكاس (Leucas) بآسيا الصغرى وهناك جزيرة في البحر الأيوني بهذا الاسم اشتهرت بمياهها العميقة والمظلمة والخطيرة . وقد ذكرها الشاعر فرجيل في ملحمته (Aen III 274) في هذا الإطار السيء بالنسبة للبحارة . غير معروف لماذا ذكرها الشاعر هنا ، اللهم إلا إذا كان يرمز لبطولتها في مقاومة الرومان سنة ١٩٧ ق.م. (Liv. XXXIII. 17)

(٢٤) سولومون (Solomon) : قائد روماني .

(٢٥) يوداس (Iaudas) ليبي .

(٢٦) ستاتيوس (Stutias) : أحد زعماء المقاومة الليبية ضد الرومان .

(٢٧) ممبريسا (Membressa) يحددها المؤرخ بروكوبيوس (Procopius "B.U. III, 15") انها تقع على بعد ٣٥٠ ستاديا من قرطاجة* علماً بأن الستاديا تقدر بأقل من مائتي (٢٠٠) متر . وكان ضمن ولاية البروكونسول الرومانية التي كانت تضم معظم تونس الحالية وغرب ليبيا .

* كما يضعها كتاب (Itinerarium Autonini) بأنها حوالي ١١٦٧ ميل من مدينة هيبو و (٥١) ميل من قرطاجة .

٣٢٤ / ٣٣٨ ولقد أحرزتم النصر في وسط ساحة القتال كذلك ، فلقد ، داهمتم معسكرهم في شجاعة وفرقتم صفوفهم بسيوفكم البتّارة ، وفي شجاعة مماثلة ذبحتم رجالهم في حين قام جيرمانوس (Germanus)(٢٨) بتفريق شمل قوات الطاغية المهزوم . لقد كانت (Cellas Vatari) (٢٩) ترنو إليكم في حب جارف كما شاهدتكم أوتينتي (Autenti) (٣٠) وأنتم تقهرون عدوها اللدود .

وعندئذ عمّ الهدوء بلادنا ونعمت بالرخاء . لم تعد هناك حروب ، ولا عصابات نهب وسلب شرهة ، ولا جنود جشعون يجرؤون على الاقتراب من مساكننا الريفية البسيطة . لم يعد أحد يطمع في ممتلكاتنا . وعم الرخاء الجميع ، وبسط السلام جناحيه على ربوع ليبيا الآمنة . ووقتذاك ، أفاضت إلهة الزراعة سيريز (Ceres) (٣١) بخيراتها من الثمار ، وكانت أشجار الكروم مثقلة بثمارها من الأعناب ، كما كانت أشجار الزيتون مثقلة بحبات الزيتون التي تتلألأ مثل الجواهر . كان الجندي ينعم بالسعادة في بيته وهو بعيد عن الحرب ، وبدأ المزارع في زرع كرمته الجديدة في حقله . وفي سعادة كان يقود ثيرانه ويربط بها المحاريث . ثم كان يبذر البذور ويقبع في سفح الجبل يشدو بأغانيه دون أن يعكّر صفوه أحد . وكان المسافر لا يجد بأساً من أن يغني للقمر وهو آمن . لقد عاد السلام بوفرة في الموارد ، وكان التجار يغنون في كلّ مكان . وكانت الأرض تردّد أصداء الأغاني والأصوات المنطلقة بلا قيود أو خوف . هنا كان يغني صاحب المحراث السعيد والمسافر المرح . وكانت آلهات الغناء والشعر التسع يفتنّ الرجال ويحركن قلوبهم بأغنيات شتى . عندئذ كانت الحرية شاملة كاملة ، وان كان ذلك لفترة وجيزة فحسب . ذلك أن الأقدار تنظر بعين الحسد لهذا العالم التعس . وأنت يا لاشيسيس (Lachesis) (٣٢) ، لماذا تربط مصائر الرجال بمثل هذا الخيط الرفيع ؟ لماذا تهزّ هذا الخيط هزاً رفيقاً ؟ الآن ، لقد تحطم مصير العالم .

(٢٨) جيرمانوس (Germanus) قائد روماني .

(٢٩) (Cellas Vatari) : لم يستطع تحديد المكان على الخريطة وربما هناك خطأ في قراءة النص الأصلي للمخطوط . بروكوبيوس (Procopius "B. V and, 2: 17:: 6") يروى أن يوحنا حارب إحدى معاركه الأولى في مكان يعرف باسم سكالاويتيرس ، وهناك مكان بنوميديا القديمة يعرف باسم (Vatari) وهي ربما مدينة القطار الحديثة . لكن سيلاس واثارا غير موجودة وربما أخطأ أو سهى كوريبوس في أثناء كتابتها .

(٣٠) أوتينتي (Autenti) قرية تقع ما بين مدينتي تيفيس Thavis وتيفيستا Theveste القديمتين ، وتبعد عن سبيطلا الحديثة بتونس بحوالي (٣٠) ميل .

(٣١) سيريس (Ceres) : الهة الزراعة عند الرومان ويحتفل بها عادة في ١٩ أبريل من كل سنة ويرمز اليها بسنبلة قمح أو سلة فواكه .

(٣٢) لاشيسيس (Lachesis) : احدى ثلاثة آلهات تقرر وجود وطول عمر الانسان ثم تاريخ وفاته ... وللأشيسيس مهمتها تقرير طول عمر الانسان .

لقد أعدّت العالم لأغلال من الحديد أو البرونز... ٣٣٩ / ٣٧٣

ان الرعب قد انتشر وعمّ، مكتسحاً كل شيء في طريقه، ولم ينفثئ الغضب. والآن، فان أفريقيا الأفضل، قد أعدّت قوات جديدة.

وبدأ هذا البلاء في القضاء على الجيش البشري وتدمير العالم المتداعي. لقد بلئ هذا البلاء شواطئنا وتفجّر. لم يسمع أحد من قبل مثل صوت الموت الذي كان يسمع آنذاك، لم يسمعه عند بداية تكوين الأرض، ولا حتى في زمن بيرها (Pyrrha)[٣٣] أن عام الهلاك هذا أثار الجحيم من أعماقه فأخرج أشباحاً تصنع الأعاجيب وحضرهم بين صفوف الأحياء من الناس. كان الرجال يصابون بجراح من سهام سماوية، ويرون الكوارث المختلفة والرؤى المخيفة تخرج من أعماق الأرض. وقتذاك، لم يعد الموت الرهيب يثير الذعر في النفوس، لأن الناس، على مختلف أعمارهم، كانوا قد ماتوا دون خوف. وحرم الجنس البشري من أن يسفح دموعه المريرة، فلم تبك عين، إذ كان كل امرئ مشغولاً بنفسه خائفاً على حياته. لم يجد الموتى من يقوم بمراسم الدفن، ولم يدوِّ العالم بصوت الحزن، لم يكن الزوج يحزن على امرأته، ولم تكن العروس تحزن على عريسها. لم يكن الوالد يحزن على ولده، ولم يكن الولد يحزن على أبيه. أواه يا للعنة على تلك القلوب التي لم تبك إزاء هذا الموت الغريب. لقد كان الموت جديراً بحزن عام، ولكن ما من بيت شهد أهله وهم يذرفون دموع الحزن. مثل هذا الموت كان شيئاً لا قيمة له في نظر الجميع، الآن، أصبحت المدن الخالية بدون سكانها الليبيين. وفي كثير من البيوت لم يكن هناك سوى شخص واحد تائه وحده، لكي يحافظ، بلا جدوى، على مال أبيه. ان الرجل الظالم الذي ورث آلاف الآباء قد أتخم بالثروات. فقد جاء الرجل الغريب فنهب إرث الأسلاف والمحاصيل والفضة والذهب والملابس معاً. كان الناس قد ملأوا ضياعهم في جشع بتلك الأشياء. كانت الصناديق مكتظّة بمقتنيات العائلات من مخلفات الأجداد القيّمة، إلا أن الجشعين من الناس لم يكن شيء يشبع نهمهم أبداً. فقد تكالبوا على عقد زيجات غريبة.

---

(٣٣) (Pyrrha) زوجة (Deucalion) وهما الوحيدان من بني الانسان اللذان بقيا على قيد الحياة بعد الفيضان الأكبر. أمرهما الوحي أن يلقيا عظام أمهما وراء ظهرهما، وفسرا ذلك بأنه يشير الى أمهما الأرض، فأخذا حجرين: ورمت بنيرها(Pyrrha) فجاءت النساء، ورمى ديوكاليون (Deucalion) فجاء الرجال. (انظر الشاعر أوفيد).

(Ovid. Met. 1.324 - 415)

٤٠٧ / ٣٧٤ فكانوا يتزوجون من الأرامل الثريات ، ولم تكن العذارى يجدن من يطلب أيديهنّ للزواج . كانت أرملة الزوج الغني تطلب من أجل ثروتها ، أما العذراء لم تكن تعطى سوى مهر قليل . وهكذا ، في ذلك الزمن الرهيب ، لم تكن المرأة ترضى بأن تظل أرملة ، وفاء وحزناً على رجلها الميت .

ولهذا ، فقد أنشئت محاكم من جميع الأنواع ، وبدأت القضايا الكئيبة تطلّ برأسها . وعمّت الفوضى البلاد ، وأثارت الكثير من المنازعات الضارية . ونزعت التقوى من قلوب الناس كلية ، ولم يكن هناك إنسان يلتزم العدل إرضاء لضميره . ولقد كان هذا هو السبب في أن الخالق القادر الذي أسخطه ماكان يحدث ، شاء أن تحلّ نقمته على ذلك الشعب التعس ، وألا يتحقّق له رجاء . ان الخالق قد شاء أن يصلّت عدواً كان قد ترعرع على هذه الأرض . لقد كان هذا الرجل كان الحزن يعتصر قلبه على وفاة أخيه ، لا يملك القوة التي تمكنه من التمرد . ومع ذلك ، ففي حين كان يطوي قلبه على شن الحرب ، فإن قدره التعيس كان يدرك بعين الخيال أن قوات الأعداء التي لا حصر لها ستهلك عن آخرها . ذلك أن الوباء ، حليف الحرب ، لا يؤذي تلك القبائل الضارية . ومع ذلك ، فإن قائد الأعداء كان خائفاً ، وحرص على ألّا يصيب جيشه هذا الوباء الأسود الذي تفشّى في الأرض المنهوبة . ولكن ، عندما انحسر الوباء ، بدأت غريزة القتال تشتعل في قلبه ، ومن ثم دفع بقواته الضاربة الى الحرب . لقد بعث برجاله الى أقصى المناطق الصحراوية في ليبيا وأكثرها جفافاً ، حيث كان فايتون (Phaeton)[٣٤] قد أحرق الأرض بحرارة الشمس الملتهبة ، ثم صرعته صاعقة رعدية . لقد أخذ يدرّب هؤلاء الأشرار ويحرّضهم على ذبح رجالنا . ووقتذاك ، تدفقت القبائل المتوحشة على الأرض الليبية . وبدأت أعمال السلب والنهب في كل مكان ، ودفعت نيران الغضب هذا المجرم الناهب الى اجتياح أرضنا وإشعال النار في مساكننا وإلقاء مدننا في جحيم من النيران .

وعندما رأى سليمان (Solomon)[٣٥] هذه الحرب المستعرة ،أخذ في تجميع القوات الرومانية من كل مكان وسارع الى مواجهة المصير الذي كان ينتظره . وسرعان ما بعث برسالة تتضمن تلك الأحداث المؤسفة ، كما أن كوسينا (Cusina)[٣٦] القوي ، أحد زعماء ليبيا

---

(٣٤) فايتون (Phaeton) ابن إله الشمس .

(٣٥) سولومون (Solomon) قائد روماني .

(٣٦) كوسينا (Cusina) زعيم قبيلة ليبية وحليف للرومان .

٤٣١/٤٠٨ وصديق سليمان (Solomon) الحزين، والذي كان على الدوام مخلصاً وحليفاً للدولة الرومانية [٣٧]، أثارته تلك الحرب الباغية، بدأ زحفاً سريعاً مع قواته من ماستراشيان (Mastracian). وانضم إليه في زحفه بيلاجيوس (Pelagius) [٣٨] الجسور، الذي كان وقتذاك قائداً لمنطقة طرابلس. إلا أن القوة التي جردها لم تكن حسنة الطالع، فقد جرّ معه الى الحرب الوثنيين من رجال قبائل ميكاليس (Mecales) [٣٩] المعروفين بخشونتهم. ودونما دراية بالمعارك، اصطحب معه تحت قيادته ايفوراكيس (Ifuraces) [٤٠] المزيف. أيتها الأقدار... عندما تضربين ضربتك، فأنت تغلفيهم مراميك بستار من الغموض على الدوام. وأسفاه لك يا سليمان (Solomon) التعيس، كان ينبغي عليك أن تضم هذه القوات الى جانبك، إلا أن تعيس الحظ دائماً ما يتجنّب الصواب. ولا مفرّ لأحد من قدَره.

وحلّت النهاية بأرضها. ان الأقدار المنذرة بالشر كانت تسارع الى دمار ليبيا، ووقتذاك، كان العدو الذي لا يرهب شيئاً والواثق في قواته، كان يتجمع لخوض المعركة وسط الغابات. ووقتذاك، كان قائدنا على وشك إلحاق الهزيمة بالعدو الذي كانت قواته تتراجع مولية الإدبار خوفاً ورعباً. واندفع قائدنا، وهو يتأجج بنيران المعركة، الى وسط صفوف الأعداء وأخذ في تعقب ومطاردة كتائبهم في كل الاتجاهات، إلا أن القدر قلب له ظهر المجن، وتحوّل عنه الحظ السعيد، وقطع لاشيسيس (Lachesis) [٤١] خيط الأمل. وهنا رفرفت الهة النصر المقهورة بجناحيها في الاتجاه المعاكس وولّت هاربة. عند ذاك وجدت الأقدار الكئيبة رجلها، ذلك أن جونتريث (Iuntarith) [٤٢]، مصدر هلاكنا، نشر الرعب في صفوف قواتنا واستطاع أن يحول الجيش الروماني بأكمله عن طريقه المرسوم. لم يكن الحظ العاثر ولا العدو الذي كان يتهدّدنا ولا الخوف المرير، هو الذي يثقل كاهل جنودنا المقهورين. ولكنه كان ذلك الرجل،

---

(٣٧) (Mastracian) مكان غير معروف.

(٣٨) بيلاجيوس (Pelagius) : قائد منطقة طرابلس الرومانية.

(٣٩) ميكاليس (Mecales) : احدى القبائل الليبية.

(٤٠) آيفوراكيس (Ifuraces) : قبيلة ليبية.

(٤١) لاشيسيس (Lachesis) : أنظر الملاحظة رقم ٣٢.

(٤٢) جونتريث (Guntarith) حاكم ولاية نوميديا الرومانية والذي قام بانقلاب سنة ٥٤٥م. قتل فيه حاكم أفريقيا العام أريوبيندوس (Areobindud) وأعلن نفسه حاكماً لأفريقيا المستقلة. لم تنجح ثورته إذ قام أحد قادة الجيش باغتياله وأعلن ولاءه من جديد للأمبراطور جستنيان.

٤٣٢ / بنواياه الشريرة المبيتة ، هو الذي تحول عن المعركة وانتزع أعلامه وتظاهر بالهرب . عندما شاهدته الكتائب جميعاً وهو يفرّ في رعب ، تبعته تاركةً قائدها على السهول ، يقاتل وسط الخنادق . وفي الوقت نفسه ، فقد تسبب هذا الحظ العاثر في إضرام نيران الحقد في قلب العدو أكثر فأكثر ، وفي تعاظم قوته ، في حين لم يعد على رجالنا إلا بالموت والرعب ، ودفعهم الى الهرب بصورة غير كريمة ، وهذا ما تجري به المقادير عندما تتحطم الدول وتحدث من ضرورية . وأخذ العدو يلاحق قواتنا ، وقد ازداد جسارة بما لديه من سلاح بتّار . وفي غمرة هذا الهلع والرعب ، سقط سليمان (Solomon)[٤٣] صريعاً ... وأسفاه ... وقد اخترقت قلبه نصال ونصال . وعندئذ عمت الفوضى ، وحينئذ ، لم يبق أحد على ولائه للقضية التي يحارب من أجلها ، فاندفعت القوات المتحالفة لانتزاع الغنائم في غمار المعركة . وعندئذ ، أخذ المزارع صاحب المحراث يبكي ، وهو يهرب ، على ثوره الذي سلبه الأعداء ، وحلّ الدّمار بجميع البيوت بما فيها من متاع وأثاث . ان الفقراء وحدهم هم الذين لم ينكبوا بهذا الحظ العاثر ، ولكن الكارثة حلّت بالأغنياء . وبعد انهيار قوة سليمان (Solomon) ، أطلق العنان لأعمال السلب والنهب ، ولم يسلم أي جزء من البلاد من شرور تلك الحرب الضارية . وفي جميع الأماكن ، كان المجرمون الذين يرتكبون أعمال السلب والنهب يشعلون النيران في المدن والحقول . ولم تكن المحاصيل والأشجار هي وحدها التي ذهبت طعاماً للنيران ، فقد أتت قطعان الماشية والأغنام على المحاصيل والأشجار التي سلمت من ذلك البلاء . لقد وقعت أفريقيا بأسرها تحت رحمة المغاربة الطغاة . وأسفاه ، كم كان الحزن مريراً ، لم تستطع أية قوة أن تصمد فوق السهول ، ولم يستطع أي جندي أن يدافع عن الأسوار المحيطة بالمدن . وبسخط من الله ، أصبح كل شيء عرضة للسلب والنهب . وكرة أخرى ، أخذ ستوتياس (Stutias)[٤٤] الزائف يصول ويجول وسط المعركة تحت قيادة انتالاس (Antalas)[٤٥] وأصبح ، كواحد من الطغاة ، له الحق في أن يتوجه الى كل مكان لنهب كل شيء يقع تحت حكم سيده المغربي المتوحش .

---

(٤٣) سولومون (Solomon) قائد روماني ، مات سنة ٥٤٤م في معركة كيليوم (Cillium) « القصرين الحالية بتونس » ضد جيوش القبائل الليبية .

(٤٤) ستوتياس (Stutias) : أحد زعماء الحرب الليبية ضد الرومان .

(٤٥) أنتالاس (Antalas) : أحد زعماء الحرب الليبية ضد الرومان .



الكتاب الرابع

إذا كنّا قد ارتأينا أن نستعيد ذكرى ذلك الطاغية الباغي ، فانظروا كيف تتفجّر جوانحي ١ / ٨
بحزن عميق وتقشعر له عظامي . ومع اضطراب فكري ، فإنّني أتردد في استعادة ذكرى تلك
الأعداد الكبيرة من الضباط الذين قتلوا ، والمصائب التي حلّت بي و برجالي . أذكر أن الجنود
الخونة أكرهوا الجنود المذعورين على تسليم أعلامهم للأعداء الأشرار ، وأن رواية مأساة
سقوطنا ليستغرق زمنا طويلاً ، إلّا أنه يمكنني أن أتعرض بإيجاز للآثام والأخطاء التي ارتكبت
في تلك الحرب .

لقد كان القائد هيميريوس (Himerius) [1] المسؤول عن حماية المدينة المحاصرة ،

هيميريوس (Himerius) : قائد روماني .

٩ / ٤٣ وكان هو ورجاله يحرسون الأسوار والأبراج. إن الخيانة وحدها هي التي انتزعت هؤلاء الرجال التعساء من وسط التحصينات وألقت بهم بين براثن المغاربة، فقد وردت الى المدينة المحاصرة رسالة مشؤومة، باسم القائد، ودخل أحد الجنود، وهو سينون (Sinon) [٢] آخر، وزعم أن الرسالة من عند القائد يوحنا. وقرأنا أوامر الطاغية، اعتقاداً منّا بأنها أوامر قائدنا. وكان مضمون الرسالة، أن القائد يحثنا على الإسراع للإشتراك في معركة وسط الحقول، وأن نقوم بالمثل بتدمير تحصينات المغاربة المتناثرة. وبسبب الاضطراب الذي أحدثته الرسالة، وقع الضباط في الفخ، ومن ثم أصدرنا الأوامر بتحريك الأعلام والقوات. وجاء القائد نفسه بسرعة الريح وتبعته قوات الفرسان تحت جنح الظلام لتلحق سريعاً بأعلامها وأعلام حلفائها. ولقد ظنّ الجنود أنهم أبطؤوا أكثر ممّا ينبغي. وأخيراً اندفع سينون (Sinon) الشرير الى الأمام لتجهيز رجاله وإتمام الخدعة. وعندما انبثق فويبيوس (Phoebus) [٣] الحزين مع جياده النارية من وسط الأمواج الباردة، تكشفت الخدعة. وعندئذ، وأأسفاه، شاهدنا ونحن مكروبين، أعلام الطاغية قادمة لمواجهة أعلامنا، ورأينا المغاربة المسعورين وهم يعربدون فوق السهل كلّه. فتراجعنا في خوف، فمن ذا الذي كان يقدر على الصمود في وجوههم.. ولحق كل من أنتالاس وستيوتياس (Stutias) الهائج بالقوات المذعورة في الساحة. لم تكن هناك من سبل للنجاة. فقد أطبق علينا العدو بصفوفه المتراصة وأحاط بنا من كل جانب، وقد بلغ الذعر بالجنود أقصاه. لقد كان الموت ماثلاً أمام أعينهم، وحرمهم الحظ العاثر من كل عون. أواه، لو أن الموتى ظلوا وسط السهل، وظل ذلك العار بعيداً عن أيدينا... وهكذا أكرهت الجياد الجسورة على الفرار هرباً. وكانت أصوات حوافرها تدوّي من فرط سرعتها، وطرد العدو المتوحش الجنود المذعورين من فوق الجبال. وكان سيبار (Cebar) [٤] حصن عال يقع على حافة السهل المكشوف. واتجهت جماعتنا البائسة الى ذلك الحصن بخيولها. واستطاع الجنود الحفاظ على الحصن ومعهم عدد من المدافعين التعساء، بل

---

(٢) سينون (Sinon) سينون معلوم أنه عندما فشل الإغريق في أخذ طروادة قام أحدهم ويدعى أبيوس ببناء حصان خشبي وبداخله وضعت مجموعة من الفرسان. تحرك الحصان خارج أسوار طروادة التي رفع عنها الإغريق الحصار، وتظاهر أسطولهم بالإبحار الى جزيرة تينيدوس (Tenedos) تاركين ورائهم شخص واحد فقط وهو سينون (Sinon) الذي يستشهد به الشاعر هنا.

(٣) فويبيوس (Phoebus) : لقب لإله الشمس.

(٤) سيبار (Cebar) : اسم لحصن غير معروف لمكان.

٤٤ / ٨٢ إن القائد كان في وسط الجنود بنفسه . ولم تكن قد التزمنا الحيطة الواجبة باغلاق البوابات ، بل أعددنا الخيول للرد على اي هجوم يشنه المشاة ، ونجحنا في إبعاد العدو عن الأسوار عندما أخذ يتقدم نحوها . وعندما احتشد الجند ، اندفع الطاغيتان وتبعتهما كتائب اللواتيين (Languantan) ونفور (Naffur) [٥] في أسلحتهم ، وعندئذ ، اندفع ستوتياس (Stutias) [٦] الذي كان يتظاهر بوقف المعركة الضاربة ، إلى وسط الصفوف شاهراً سيفه . واستطاع بخبث أن يقنع المغاربة المتوحشين بترك ساحة المعركة ، وكبح جماح غضبهم المتأجج بكلام خبيث . وفي نفس الوقت ، كان يمنحهم الأمل ، ويحضهم بمختلف الوسائل على الاشتراك في الحرب الأهلية . وتحت وطأة الخوف ، ألقى الرجال بسلاحهم وهرعوا الى الطاغية وركعوا عند قدميه وهتفوا له . ووقتذاك ، لم يكن أمام الضباط من سبيل للخلاص . ولكن ، لماذا أعيد رواية المأساة كلها ؟ لقد التمسنا العفو ونلناه على التو . وألححنا على العدو بأن يقسم بحياته ففعل . وتظاهرنا بأننا سنكون في خدمة الطغاة ، وسلمت مدينة جوستينيان (Justinian) لليبيين ولمصيرها المجهول . وفيما بعد ، سنحت لي فرصة الكلام مع رفاقي وحثهم على تغيير موقفهم . وكان مارتوريوس (Marturius) [٧] رجلاً حكيماً ، فاستطعنا كلانا أن نستهوي قلوبهم الى العودة للانضواء تحت أعلامهم . ووافق الرجال ، وقرروا محاولة الهرب من المعسكر المشؤوم . لقد كانت ظلمة الليل البهيم هي التي أنقذت حياتي وحياة مجموعة من رفاقي . واستطعت أخيراً أن أصل الى بيتي وأن أرى زوجتي . وكذلك أفلح مارتوريوس (Marturius) في الهرب والتخلص من العدو المقيت . وتبعه الرجال ، وبقي في المعسكر من أراد البقاء . وكانت مدينة جوستينيان مفتوحة أمام أية غارة ليلية . ذلك أن أحد المواطنين المخلصين ضاق بنير الطاغية الغاشم ، فقام بفتح أقفال البوابات . ومع ذلك ، فقد ظلّت الأعلام داخل الأسوار المحيطة بالمدينة ، ولم يكن أحد بقادر على التجمع في السهل المكشوف ، واختبار قوة جماعة العدو . كذلك ، فما من قائد كان يجرؤ على أن يضع ثقته في حليف . طالما ظل ستايوس المخرب على قيد الحياة .

وبينما كانت أفريقيا المنكودة تقاسي الكثير من تلك الأخطار الداهمة ، تألق البحر بسفن

---

(٥) نفور (Naffur) قبيلة ليبية .

(٦) ستوتياس (Stutias) قائد ليبي .

(٧) مارتيوس (Martirius) : قائد روماني .

٨٣ / ١١٥ القائد أريوبينديوس (Ariobindeus) [٨] . وذهل الناس لدى وصول القائد وسارعت لواتة قبائل لواته (Languantan) [٩] بالهرب من البلاد . أواه ، ليت أريوبينديوس(Ariobindeus) البليد لم ينظر إلى آلهة الفينيقيين (Phoenicians) . ذلك أن أفريقيا ، وقد ألمّ بها وقتذاك شر أفدح ، عانت من المذابح وأعمال السلب والنهب ، عندما وقعت فريسة لأطماع قائدين . فعندما تستقر السلطة في أيدي جماعة ما ، فإنها لا تتسع لزعيمين متكافئين . ولم يشهد أي عهد من العهود أو عصر من العصور صداقة تقوم بين شركاء في الحكم . إن المثال الذي خلفه لنا أسلافنا يعلمنا هذا الدرس . فعندما تبدأ الخطوة الأولى ، فلا بدّ أن تتبعها الثانية . والرأس هو الذي يسيّر الأطراف ، كما أن أغصان الشجر تعطي ثماراً من نوعيتها ، كذلك ، فإن العالم الذي لم يكن قد اكتمل بعد ، وكانت محاصيله هزيلة لا تكفي ، لم يكن يستطيع أن يدعم حاكمين ، وكذلك كانت الحال مع روما ، أقوى الممالك وأشدها بأساً ، والتي أقامت أسواراً جديدة بسفك دماء أبنائها ، وهكذا ، كانت إرادة هذين القائدين موزّعة بسبب التنافس والخلط ، وكان كل منهما يزدري الآخر ويخالفه ، فظلّا في نزاع مقيم . وانشطرت الدولة شطرين ، لكل شطر قادته وزعماؤه . وإذا كان أحدهما يأخذ به الغرور فيهدّ نفسه الرجل الأول ، فقد كان الثاني لا يقبل بأن يكون الرجل الثاني . ولقد كانت أفريقيا تبكي بعد أن أصبحت بلداً قفراً بسبب أعمال السلب والنهب على يد المغاربة . وقد حاول سكان البلاد بأمر من زعمائهم ، وبخاصة يوحنا الجسور ، أن يشتبكوا في معركة مع العدو المتوحش بقوات غير متكافئة ، ولكنهم هربوا ولاذوا بالفرار . لقد كان الاضطراب الذي يسود عقول الرجال سبباً في هزيمتهم . ومع ذلك ، قام القائد يوحنا بتحريك أعلامه كرّة أخرى ، وخرج لمواجهة الموت في قتال عدو متراص الصفوف . لقد كان يعتمد على جسارته الشخصية ، واستطاع أن يجتذب عدداً من المدافعين عن حقوق الشعب الى القتال معه . لم يكن يخشى من الاشتباك في قتال مع قوة عاتية وضخمة . كان حبّه لبلاده يملأ شغاف قلبه ، وبهذا الحب لم يكن يأبه للموت صريعاً على أيدي أعدائه . وعندما تبين أن العدو الغاشم يسارع للإطباق عليه ، لم تهن عزيمته وخرج الى حتفه راضي النفس . لقد أقام أعلامه فوق السهول وخاطب قواته ، وكله ثقة في حلفائه ، قائلاً : «أن تزدري الحياة من أجل بلادك ، فإن هذا يمنحنا حياة أعظم . قانون الحياة يقول بأن

(٨) أريوبيندوس (Ariobindus) تولّى حكم افريقيا سنة ٥٤٥ بعد عزل سيرجيوس (Sergius) ، لم يبق أريوبيندوس في الحكم سوى بضعة أشهر ، إذ أطاحت به مؤامرة جونتاريس (Guntharis) .

(٩) (Languatan) قبيلة لواتة .

الموت مصير كل حيّ ، ولا يفلت منه أحد، إن قضاء الموت سيحل بصورة أو بأخرى. ١١٦/ ١٥١
ولكن ، أن يموت الإنسان ميتة كريمة ملؤها الفخار والمجد ، هو أعز وأغلى أمنية يتمناها الإنسان ... أيها الرفاق ، العدو ماثل أمامنا ، فإلى متى نتهرّب من القتال؟ وإلى متى سيظل العدو يسخر منا ونحن نفر هاربين أمامه . ويعتقد أننا لسنا أهل حرب؟ الآن ، قد حان الوقت لنواجه ما يتهددنا ، هذه ساعة الاقدام. أيها الرجال ، اني أعرف بسالتكم وأؤمن بولائكم على الدوام. انهضوا ، أهل روما وفرقوا شمل هذه الأمم المغرورة تمجيداً لأمبراطورنا المقدّس. أغسلوا هذا العار الكبير عن ضباطكم. لو افترضنا للحظة أننا نريد الهرب ، فما الذي سيحدث؟ إن العدو يسحق الرجال الهاربين ويصرعهم في صورة مذلة غير كريمة ، كأنهم نساء. فكروا في غير الهروب وأدرؤوا عنكم هذا العار. أواه ، لو كان هذا المتوحش ستوتياس أمامي الآن يتحداني بالسلاح ، بعد أن تلقّى به الأقدار بين يديّ.. عندئذ كان ممكناً أن تلقى صدورنا ضربات الواحد منا للآخر وينتزع الموت أرواحنا ، وأما أفلحت في اختراق جسد الطاغية برمحي فأصيبه بجرح مميت. وحتى لو أنني لحقت به وكان قدري أن أموت ، فإن الدولة ستفقدني ، ولكنها ستقضي على جريمة الحرب الأهلية».

وأنظروا ، بينما كان القائد يخاطب رجاله ، اندفعت قوات ماسيليان(Massylian) (١٠) الكريه تطبق على الرجال بأعلامها المعادية ، وفي مهارة تتسم بالخبث والغدر استطاعت القوة المعادية أن تتخذ مواضعها واصطفت في خط طويل على طول ضفتي نهر قريب. ثم بدأت المعركة بوابل من السهام المجنحة من جانبنا ، واخترقت أجساد الأعداء الكريهة. وهنا دارت القوة المعادية بخيولها وفرت عبر النهر ، وكر القائد في أعقابها وعبر النهر في خفة يحيط به ستار كثيف من الأسلحة. وإذ كان لا يخشى الخطر أو الموت ، فقد اتخذ مساراً لا يمكنه الرجوع منه ، وأخذ يهاجم جنود العدو. لقد كان في قتاله مثل الليث الضاري الذي يعمل أنيابه ومخالبه في أجساد قطعان الماشية والثيران الوحشية تمزيقاً ، فيبقر أحد أفراد القطيع ويصرع الآخر ، فيتفرق شمل القطيع المذعور في جميع الإتجاهات ، ويفر الراعي. وبعدها يجول فوق الحقول الشاسعة ويزأر مكشراً عن أنيابه الملوثة بالدماء التي يعملها في أجساد الضحايا فيمزقها ثم يمضغها. وهكذا ، صنع قائدنا يوحنا ، فأوقع الاضطراب بين صفوف الجنود المسيليين وأخذ يعمل فيهم سلاحه تقتيلاً وسط السهول. وعلى غرار ما فعل أخذت كتائبنا تهاجم طوابير

(١٠) ماسيليان (Massylian) : قبيلة تقيم بنوميديا.

١٥٢ / ١٦٣ العدو الهاربة ، وتصرعها بسيوفها . وكان القائد المتقد حماساً يطير فوق السهل بأجمعه مع رفاقه متعقباً المغاربة الهاربين وهو في قمة انتصاره . كانت الدماء تتجمع في غزارة في ذراعيه ، وكان القائد والمحارب يمسك بسيف مخضب بالدماء ولكن ، كم كان حظه العاثر محزناً ومفزعاً . أواه من هذه الكارثة العظيمة . وقتذاك ، كان العدو قد استسلم مهزوماً ، وكان الفرسان الرومان يعملون سيوفهم في قوات العدو و يصرعونها فوق الحقول هنا وهناك ، في ساعة انتصارهم .

ولكن ، قام(Stutias) ستوتياس المخيف فجأة بتحريك أعلامه المعادية وانطلق خارجاً من وسط الوديان ومضى معه(Hermogenes) هيرموجينيس[11] الذي كان سبة في جبين الدولة



(١١) هيرموجينيس (Hermogenes) : ضابط روماني انضم لصفوف الليبيين ضد بني قومه ، إيماناً بقضية أو لمصلحة معينة يرتئيها .

١٧٣/١٦٤ الرومانية ، وتاوروس (Tauras) [١٢]، وانضمت الى هؤلاء المتمردين ثلة من القوات الرومانية لا تنتمي الى قواتنا ، ومرة أخرى فرضت علينا الأقدار أن ندخل في حرب أهلية ونرفع السلاح ضد بعضنا البعض . وكان أبناء الشعب الواحد يهاجمون بعضهم البعض ، وأزهقت أرواح بأيدي الأهل والعشيرة . لقد كان يوحنا صاحب القلب الكبير أول من تبين أعلام قوات ستوتياس ، فوقف بجسارة في وجوههم وقوسه في يده . ولكن رفاقه عمدوا الى الهرب ، إذ عجزوا عن مواجهة الطاغية الغاشم . ومع ذلك ، لم يتردد يوحنا في وضع سهم في قوسه ، وشد القوس بكل ما فيه من عزم ثم أطلق السهم . وانغرز السهم في وجه الطاغية الغشوم وحطمت عظامه حتى النخاع . وانغرز السهم بأكمله في ساق الطاغية وتخضبت ريشاته بالدم [١٣] ،



(١٢) تاوروس (Taurus) ضابط روماني انضم للحرب مع الليبيين مثل هيرموجينيس.

(١٣) كان من عادة الرومان وضع ريش الطيور في سهامهم لزيادة سرعتها وقوتها عند اطلاقها . (المترجم).

١٧٤ / ٢١١ وسال الدم ولوث رداء القائد. وعندها، عمد ستوتياس (Statias) الجريح والمهزوم الى الهرب فوق جواده، وسارع رفاقه الى حمله بعد أن سقط وهو يحتضر وأرقدوه وراء شجرة غليظة الساق. وعندما نظر القائد المنتصر خلفه، شاهد رفاقه يهربون فوق الحقل، فألمّ به حزن عميق وأصابه في أعماقه. فأخذ يصرخ فيهم وهو محزون ومكروب: «ممن تهربون أيها الرفاق. إن النصر حليفنا أيها المواطنون. إن ستوتياس يرقد الآن ممدّداً فوق الأرض بعد أن اخترق سهمي جسده وهرب من المعركة. أديروا أعلامكم. إلى أين تهربون؟ الى أين يقودكم مصيركم المؤسف؟، أيتها البسالة الرومانية، إنك تتبددين». وأخذ بهذه الكلمات يوبخ قواته التي أرهبها المصير الذي حلّ بها، ولكن، لم يعد منهم أحد لساحة القتال وأخذت قوة الليبيين تتعقبهم، واكتسحتهم بآلاف لا حصر لها وهم يفرّون مذعورين.

وفي وسط الحقول، كان هناك مجرى نهر شديد الإنحدار يفصل بين حدود الأراضي المجاورة. وفي هذا المجرى ألقت الجماعة الهاربة بنفسها هرباً من الموت، وأخذت تتساقط فوق ضفتي النهر وفي المياه. وحمّ قضاء الموت المفجع، فوأسفاه على هؤلاء المساكين الذين وقعوا فريسة لتدافع زملائهم الأهوج وخشية العدو. وقد دفعت وطأة الهجوم الكاسح الكثيرين منهم ليسقطوا فوق أسلحة زملائهم الذين تساقطوا قبلهم. فاخترقت النصال أجسادهم. وكانت الجياد الجسورة تطأ أصحابها بقوائمها ثم تهوي فتسحقهم تحت ثقلها الكبير. وهكذا هناك الجنود التعساء وجماعة المدافعين معاً، وفي نفس الوقت، سقط قائدنا صريعاً بعد أن اسره الأعداء. ومع ذلك، فإن قائدنا لم يمرغ كرامته أمام الأعداء، وارتضى مصيراً كمصيرنا، كما أنه لم يخش سيوف الأعدام عندما أسروه.

ولم يحاول مارتوريوس (Marurius) [١٤] الهرب، بل اندفع مع جماعة من رجاله لمواجهة الموت على أيدي أعدائه، إلّا أن الأقدار قد كتبت النجاة للجسورين وأنجتهم من ميتة بشعة.

وفي نفس الوقت، كان ستوتياس (Stutias) ينوح وروحه تفارق جسده. وأخذ هذا القائد المتوحش يعرب عن ندمه لشن تلك الغارة. كان يتنفس وهو يئن وينحى باللائمة على نفسه وهو مكروب قائلاً: «أية متعة أيمة وجدتها في هذه الحرب؟ لماذا كنت على الدوام ناكراً لجميل سيد هذه المملكة ولم أخلص له أبداً؟ والآن، الميتة النكراء التي تصيبني وأنا في هذه الحال من التعاسة، هي ميتة مجللة بالعار. أيها الموت الكريه، سوف أصف العقاب الذي

(١٤) مارتوريوس (Marturius) : قائد روماني.

استحقه. إن كاتيلين (Catiline) [١٥] الذي أثارته الأرواح المنتقمة، هو رفيقي الآن. إنني ٢١١/٢٣٣
الآن أرى (تارتاروس (Tartarus) [١٦] مقسوماً الى نصفين، وكسرات النار واللهيب
المستمر، إن الحرب قد أوقعت بي هذا العقاب العادل على خيانتي، في صورة هذه الميتة
البشعة. أرجو أن ينوح اللاتين عليّ، وأن يتعظوا بهذا العقاب، وأرجو أن يظلوا على ولائهم
لملكتهم ولمولاهم». هكذا تكلم، ثم اختطف الموت الكريه روحه.

وعندما مات ستوتياس (Stutias) حزن الناس حزناً مريراً على زعيمهم، وبدأت
شجاعة الرومان ترتد اليهم، وبدأت قواتنا تشق طريقها الى السهول كرة أخرى. لكن،
أنظروا، إن جونتاريث (Guntarith) [١٧] الشرير، المتمرد التعس الحظ، الكريه الأحمق
والزاني واللص والسفّاح، والمخرّب والشرير الذي يثير الحروب. عاد مرة أخرى وهاجم قائدنا
بسلاحه الكريه قبل أن يستعدّ للقائه، وسحقه، واستطاع بالمكر والخديعة أن يأسره، حانثاً
بيمينه. إن المهابة أمام الأمبراطور الشديد البأس لم تردعه، ولم يخشى من شن الطاغية، وأن
يصبح طاغية، لكم قاسي تيريانس (Tyrians) [١٨] أهل صور من المخاطر والمذابح على يدي
ذلك الطاغية، فلقد أعمل فيهم سيفه، إلّا أن ذلك كان لفترة قصيرة فحسب، ذلك أن فترة
حكم ذلك الطاغية الشرير القاسي لم تدم طويلاً. فلقد أنقذ الأب الطيب أثاناسيوس
(Athanasius) [١٩] الأفارقة من تلك المذبحة بحكمته التي لا تبارى. كان وحده الذي استطاع أن

---

(١٥) كاتيلين (Catiline) : كان المدبر الرئيسي للاطاحة بحكومة روما سنة ٦٣ ق. م. تمكن الخطيب سيسرو (Cicero) وآخرون من اكتشافها فسجن كتالاين ثم قتل سنة ٦٢ ق. م. (حوله ألف الرومان عدة كتب أهمها كتاب للمؤرخ سالوس وآخر بقلم الخطيب سيسيرو.

(١٦) تارتاروس (Tartarus) : قبل خروج الديانات السماوية حاول الإنسان في غالبية الحضارات القديمة تفسير خلق الكون عن طريق العديد من الروايات والأساطير والتفاسير العلمية والفلسفية البسيطة وبعضها المعقد. وفي الحضارة اليونانية حاول هومر (Homer) حوالي (٨٠٠ ق. م) تفسير الكون عن طريق وضع (Oceanus) (الماء) و Tethys (الأرض) مسؤولين عن خلق الآلهة والبشر، أما الشاعر الاغريقي هيسيود (Hesiod) (حوالي ٧٠٠ ق. م.) فيرى أن خايوس (Chaos) هو أصل الكون ومنه جاءت الأرض GE وتحتها يقع Tartarus أو العوالم المظلمة. ثم هناك (Eros) أو الحب وهناك أيضاً الليل. ثم بقية العناصر.. الخ..

(١٧) جونتاريث (Gontarith) قائد ولاية نوميديا الرومانية الذي كان يطمح الى الاستقلال بافريقيا فقام بقتل حاكمها أريبيندوس (Aerobindus) وأعلن نفسه مستقلاً عن بيزنطة. أحلامه لم تطل فقد قتل من قبل ضابط أرمني قام بعدها بإعلان الولاء للأمبراطور. أثناء هذه الأحداث كانت وظيفة يوحنا الرسمية هي كونه قائداً لولاية طرابلس.

(١٨) ص (٧) تيريانس (Tyrians) يعني أهل قرطاجة.

(١٩) ص (٧): اثاناسيوس Athanasius روماني.

٢٣٤ / ٢٧٠ يعيد ليبيا الى حكم الرومان ورعايتهم ، وأن يحكم بالموت على ذلك الطاغية السفاح ، وقتذاك ، كان الأرمني(Armenien)وسيلته لتنفيذ مخططه البارع . فقد استطاع برزانة الكهول أن يدفعه الى قتل البطل الغاشم القاسي . إن الرجل الكهل لم يخش من مواجهة الأخطار في سبيل حريته . وهكذا تجرع جونتاريث (Guntarith) المنكود كأس الموت بسيف الأرمني (Armenian) . وسالت دماؤه على موائد الإحتفال بحكمه التعس الذي كان شديد الرغبة في الحفاظ عليه . وهكذا فإن أفريقيا التي كانت تهلك من جرّاء ذلك الخراب الوبيل ولا تجد النصير الذي يثأر لها ، انحدرت الى الهاوية . إنّها تقف في انتظارك وهي عاجزة . فلتمد لها يد العون وهي تنتحب على مصيرها ، فأنت قادر على ذلك . إن بسالتك معروفة في جميع أنحاء العالم . وبيديك وعقلك الراجح ستقوم بأعمال جليلة باهرة .

لقد كان القائد المدافع عن حرية الشعب يستعيد هذه الأمور في ذاكرته ، وكانت عيناه تدمعان وهو يتكلم عن الحرب . كان يبكي في حزن مرير سقوط ليبيا وانهيارها ، كما كان يبكي على المصير الذي لقيه ضباطه . لقد أضطرب تفكير القائد الخير وأخذ يتأوه ومعه ضباطه .

لقد قاموا للمعركة بروح لا تقهر ، بعد أن سحقوا الحزن والعار بقلوبهم الصلبة . كانوا قد لطّخوا وجوههم بالدموع ، وكانت وجوههم قد أبيضت ثم اكتست بحمرة قانية ، ثم كشفت عن الغضب الذي كان يعتمل في قلوبهم . والآن ، كانوا يستعجلون شروق الشمس ، ويتأهبون للحرب .

كان فويبوس Phoebus [٢٠] بضوئه الباهر يمزق أستار السماء الزرقاء ، وينشر أضواء مشعله على الأمواج المرتعشة ، وأشرقت الشمس على أفريقيا . وعند ذلك ، أخذ الضباط يحركون صفوف الجند بشتى الأوامر ، ويحثون الجنود الشجعان والمدافعين عن حقوق الشعب للنهوض للقتال . كان كل ضابط يشجع رجاله ويقودهم . وصدرت الأوامر بتفكيك المعسكر ، وتجهيز الأسلحة وانتظار أوامر القادة . وقام الرجال بتزيين الأعلام وحملها ، وشعروا بالسعادة عندما رأوا النسيم يداعب أعلامهم المشرعة ، ولكن الأب يوحنا نهض مدفوعاً بضميره الحي وبقلبه المليء بالتقوى ، ثم انحنى وركع . وفي توسل وتضرع ، رفع عينيه ويديه وأخذ يدعو قائلاً : «أيها المسيح ، يا أبا البشر ، إنني أسبح بمجدك بقلب صاف ولسان

(٢٠) فويبوس (Phoebus) لقب لاله الشمس.



٢٨١ / ٢٧١ عفيف. الحمد والشكر لك ولا أحمد سواك. أنت، يا خالق العالم، تقهر الأمم، وتطفيء نيران حروبها. إنك تسحق الأيدي الكريهة الغاشمة، وكنت على الدوام عوناً لمملكتنا. أيها الإله القادر، أنظر إلى هذه المدن التي أشعلت هذه القبائل الغاشمة النار فيها، وانظر الى أرض هؤلاء الناس. الآن، لم يعد أي فلاح يزرع أرضه، وليس من قسيس يذرف دموعه على معابدك باسم هؤلاء الناس. إن الناس جميعاً في الجبال ينؤون بالتزامات ومواثيق ظالمة وأيديهم موثقة خلف ظهورهم. أنظر، أيها الآب المقدس، وعجل باطلاق صواعقك، واخضع قبائل

٢٨٢ / ٣٢٣ المغرب تحت أقدامنا. وأنقذ الأسرى والأفارقة من براثن هذه القبائل الهمجية، وأشمل، أيها الأب المقدس، أبنائك الرومان بعطفك وانعم علينا بالأفراح بدل الأتراح».

وكان وهو يتكلم على هذه الصورة، يذرف الدمع سخياً فوق الرمال الجافة، فقد كان الحزن والتقوى يهزانه هزاً، عقله وجسده معاً. وبعدما قال في إيجاز ما أراد قوله، سكت عن الكلام. ثم نهض وهو مبتهج، يمسح سيل الدموع الذي كان يتدفق من مآقيه، وارتسمت على وجه البطل ملامح الرزانة والجدية، وأمر كتائبه المسلحة بالإسراع للقتال. وقام بنفسه يتسلّق ربوة كان يبدو عليها فارع الطول، عالي المكانة، حيث يستطيع أن يوجه ضباطه بحكمته المأثورة. وحوله التف ضباطه الأصفياء ونخبة من المدافعين عن حقوق الشعب الشجعان. ثم جاء الجنود في صفوفهم المتراصة وأحاطوا بقائدهم من جميع الجوانب في حشد كبير. لقد كانوا مثل النحل، يشكل سرباً ضخماً ربط أقدامها ببعضها الى بعض وهم يتبعون ملكهم. ويقف قائد السرب على قمة شجرة أو يختار مكاناً بين الأغصان ذات الأوراق الكثيفة. وهناك يستقر بنفسه، ويكون أول من يختار المكان. وعندئذ يتجمع جيشه من النحل حوله يرفرف بأجنحته، ويقوم بتنفيذ أوامر الملك.

أنظروا، أثناء ذلك هبط أحد حملة الأسلحة من الجبل العالي، ثم لاذ بالفرار. ذلك أنه عندما شاهد الجيش المتراص الصفوف وقائده يبرق بسلاحه وسط التل العالي، حوّل اتجاه فرسه السريع بشد اللجام بيمينه. وطار فوق الحشائش قاصداً قائده. وبسبب اضطرابه، اندفع وسط جماعة من الرجال بصورة عنيفة، ثم ركع وقبل قدمي مولاه، كما جرت العادة. وعندئذ التفت جماعات الرجال حوله وهي في شوق عارم لمعرفة مجريات الأمور، وأن يسمعون وهو يرد على أسئلة القائد الطاغية. وخشي الجنود من احتمال أن يطالب بالصلح. وعندما طلب من أمانتيوس (Amantius)[٢١] أن يتكلم، أطاع، وقال: «تنفيذاً لتعليمات سيدي لخادمه، فركبت جوادي حاملاً رسالة سيدي حتى وصلت الى هؤلاء القوم. وعندما وصلت شاهدت الطاغية المتوحش يقف تحت نتوء صخري على الجبال العالية. وبعدئذ استدعى إليه المتمردين بصوته العالي. وجاءت قبائل المغرب على عجل معاً، وامتلأت خيمة القائد بوجوههم السمراء. وتقول الأساطير أن ديس (Dis)[٢٢] عقد مجلساً على نفس الصورة عندما أراد أن يعلن الحرب

(٢١) أمانتيوس (Amantius): قائد روماني.

(٢٢) ديس أو هاديس (Hades) عند اليونان ابن اله العالم السفلي وهو واهب الثروة فهو فاتق الحبة وفاتح الكنوز الأرضية.

على الآلهة ، فأتاه ألف من المخلوقات المتوحشة عبر جميع مسالك الجحيم . وكانت الأفعى ٣٥٢/٣٢٤
الخرافية (هايدرا Hydra) [٢٣] والكئيب السحنة ميجارا (Megaera) [٢٤] تجريان الى هناك ، في
حين ترك خارون (Charon) [٢٥] العجوز زورقه خلفه . وكانت تيسيفون (Tisiphone) [٢٦] تهز
مشعلها المصنوع من خشب الصنوبر ، ثائرة واللهب يتصاعد منها ، وثارت معها اليكتون
(Alecton) [٢٧] بثعابينها المتلوية وتجمعت مخلوفات من جميع الأشكال تحت (أفيرنوس
(Avernus) [٢٨] الفسيح .

وعندما تجمعت الصفوف الحاشدة حول قائدها ، جلس وسمح لمن يستحق من ضباط الطابور الجلوس معه . وكان يجلس وسطهم بوصفه رئيساً . ونظر إليهم ثم قال في صلف : «أيها المعاونون ، أريدكم أن تتسلموا وتعرفوا عن سفارة يوحنا ورسالته الفظة ، وأريد أن أجعل بقية الرجال يشاهدون هذا الرجل وهو يقرأ الرسالة التي يحملها . استمعوا له بآذان صاغية ، وقرروا ما تراه عقولكم ، وما إذاكنّا نسعى للحرب أم للسلام» . فأذنوا لي بالكلام ووضعوا أصابعهم على شفاههم حتى لا تتكلم ألسنتهم . فأبلغتهم بتعليمات ومشيئة الأمبراطور الذي يقودنا ويحكمنا . وكيف أن رحمته العظيمة قد وسعت كل شيء . وتناولت كل الأمور بشرح كامل . فوصفت شجاعته التي لا تقهر والتي تسترشد بصلاحه وتقواه . وقلت لهم ، مهدداً أكثر من مرة ، أن الرومان قوم معروفون باللين والرقة ، ولكنهم مع ذلك ، كانوا على الدوام يدمرون الدول المغرورة تدميراً تاماً ، ويسحقون الطغاة ذوي البأس في الحرب . وأخبرتهم عن هؤلاء الذين قهرتهم روما العتيدة ، والأمبراطور فيما معه ، عندما شنوا علينا الحرب من مناطق قاصية . وأكدت لهم استعدادنا للحرب ، وإنما رجعت لكي أستعرض فرص اقرار السلام . وأخيراً سكت عن الكلام ، انتظر جوابهم . وبينما هم يتكلمون ويقاطع بعضهم البعض ، كانت تصدر عنهم وهم غاضبون أصوات كالعواء ، وتلفظوا بكلمات رهيبة ، وأطلقوا العنان

---

٢٣ هايدرا (Hydra) أفعى الماء..

(٢٤) ميجارا (Megaera) : إحدى ثلاثة أرواح شريرة وهي مختصة بالحقد.

(٢٥) خارون (Charon) : عجوز الزورق الذي يعبر بأرواح الموتى عبر نهر ستيكس في العالم الآخر.

(٢٦) تيسيفون (Tisiphone) : إحدى ثلاثة أرواح شريرة وهي مختصة بعقاب القتلة.

(٢٧) اليكتون (Alecto) : إحدى ثلاثة أرواح شريرة وهي مختصة بالعقاب الدائم.

(٢٨) أفيرنوس (Avernus) منطقة مرتفعة بها كهف محاط بأحراش ومياه آسنة . وعن طريق الكهف يدخل الإنسان للعالم الآخر كما فعل اينياس في ملحمة الأليادة— (١٨٦ — ٥٠٠ الكتاب السادس).

٣٨٣/٣٥٣ لعواطفهم في حالة من الهلع الغريب ، كانوا مثل الذئاب وسط الجبال ، عندما تجثم السحب فوق الأرض تأخذ في العويل والعويل حتى تبلغ أصواتها عنان السماء.

وعندما هدأت نفوسهم ، أعطى القائد المغرور ردّه في كلمات مريرة ، فقال : «إنني أعرف تماماً شرف المملكة الرومانية ، الذي ثلم مؤخراً . لا يحسبن أحد أنه بقادر على خداع انتالاس (Antalas) [٢٩] مرة أخرى . يكفي أن الأرمني (Armenian) [٣٠] استطاع خداعي مرة . إنكم تتظاهرون بخبث انكم أصدقائي . ألم أكن صديقاً لكم؟ أولم أتصرف على الدوام لصالحكم وأنفذ أوامركم؟ أيها الروماني ، ألم أكن يقظاً وأنا أشن المعارك من أجل قوادكم؟ إن الدولة التي لم تنحرف عن ولائها لخير دليل على ذلك ، وكذلك دمك يا أخي قواريزيلا (Guarizila) [٣١] الذي سفك بأمر من قائد شرير ، لقد تعلمت من المكافأة التي كافأني بها رجلكم الأرمني ، الذي استطاع ، بفضل بأسكم وقوتكم ، سحق الطاغية جونتاريث (Guntarith) [٣٢] . وأنا الذي ظللت مخلصاً للسلام الذي بيننا ، وخدمتكم على تلك الصورة ، هل نلت المكافأة باسمكم ولمصلحتكم . فهل هذا هو مفهومكم للاخلاص؟ هل تكافئون أصدقاءكم على هذه الصورة؟ والآن ، أيها القدر الكريم ، لا بدّ وأنك قد وهبتني أرتابانيس (Artabanes) [٣٣] طالما أن رجلنا اللواتي (Ilasguas) [٣٤] الجسور نجح بحظّه الغريب ، في أن يحكم جيشه والقبائل من أراضي أوستور (Austur) [٣٥] المتوحشة . أنظروا ، إن القائد يوحنا يعدّ العدّة الآن لتجربة حظه مع هؤلاء الناس بجيشه الضعيف التافه . إنه لا يفكر في أن يطلب منّا السلام بطريقة متواضعة ، ولكنه ، بخبث ، يحاول أن يخيف هؤلاء الذين يطلب إليهم الصلح والسلام . إنني ، بعد الإنتصارات التي أحرزتها وأنهيت بها الحروب ، وبعد أن صرعت بيدي هذه الكثير من الرؤساء ، وبعد سليمان (Solomon) المتوحش والمصير الذي لاقاه يوحنا الأول ، هل يتجاسر أحد على مواجهة أنتالاس

---

(٢٩) انتالاس (Antalas) : قائد ليبي بارز.

(٣٠) أرمينيان (Armenian) إشارة الى القائد الروماني الذي كان من أصل أرمني.

(٣١) قواريزيلا (Guarizila) أخ انتالاس.

(٣٢) جونتاريث (Guntarith) ملك الوندال.

(٣٣) ارتابانيس (Artabanes) روماني انضم لليبيين.

(٣٤) ايلاسجواس (Ilasguas) يشير لأحد زعماء لواتة.

(٣٥) اوستور (Austur) قبيلة الأوستوريان.

٣٨٤/٤٠١ ، يخيف الذئب في الوديان أن يرعى الذي يستطيع الحمل هل ... ؟ القتال في (Antalas)
وهل يخاف الليث من حيوان الأيل ذي القرون العالية ، أو كلب الصيد من الأرنب أو أنثاه ،
أو تقف الصقور مذعورة أمام الحمام الوديع الذي يطير تحت السحب؟ ... وهل يمكن لحامل
أسلحة جوبيتير أن يهرب مذعوراً في السماوات الصافية من صراخ طائر الكركي أو
تغريد البجع؟ وهل قدر للطبيعة كلها أن تفنى بعد أن تنقلب قوانينها رأساً على عقب؟ ...
اسمعوا ، لقد قررت أن أصطدم بالرومان مرة أخرى ، هؤلاء الذين ذاقوا الهزيمة مرّات عديدة.
فليعودوا ثانية و يحاولوا قتالي».

كان القائد موشكاً على انهاء خطابه المسهب ، عندما سرت همهمة مضطربة بين صفوف القادة والرجال وقطعت عليه حديثه . كانت تلك الهمهمة أشبه بدوامة عنيفة في بداية ثورة العاصفة ، فتضرب البحر وتجعله يئن عندما تتحطم أمواجه على الشاطىء . وهنا تصبح أصوات الأمواج أكثر دويّاً ، ويئن الشاطئ تحت وطأة تكسرها عليه وهي تشتد ضراوة وترتفع الى عنان السماء . ورفع القائد يده اليسرى وأمر الجميع بالهدوء وسرعان ما التزم الجميع الصمت التام وأخذوا يحدقون في قائدهم بانتباه . وتعلقت به جميع العقول وشخصت اليه الأبصار .



٤٠٢ / ٤٥٣ والجميع يتلهفون لمعرفة خطة قائدهم. وفي صوت جهوري أصدر أوامره لكتائبه الصامتة، وأخذ يثير فيهم حمية القتال ويقوّي من عزائمهم بهذه الكلمات: «أيها الرفاق، بهذه الطريقة تعاظمت أمجاد الأمبراطورية الرومانية، واستطاعت أمتنا التي طالما أخضعت الدول وأطفأت نار الحرب، أن تحكم العالم بأسره. إن الجندي الروماني لا يخشى الرجال المسلحين، كما أنه لم يول الأدبار خوفاً من جنود الأعداء مهما كانت أعدادهم، بل كان على الدوام مخلصاً لزملائه. يقظاً بحرص بالغ، قوياً على تحمل مشاق الحرب بشجاعة وشهامة. ولكنه كان عندما يتزعزع ولاؤه، ويبعد عن عقله فكرة تمجيد الأمبراطور، وطالما كان يؤثر السلب والنهب ويسعى وراء غنائم الحرب بما يتعارض مع قضيتنا، عندئذ كانت الكتائب الرومانية، التي جلبت على نفسها الهلع والرعب بأيديها، تولي الأعداء الأدبار وتتخيل أن تلك القبائل الهمجية قد هزمتها. ومع ذلك، فإن الأقدار لم تكن ترضي لهم حيال الخيانة، ومن ثم تعود حاملة البهجة والبركات. ذلك أن الأقدار تحب روما، ومن أجلها حطمت، بل ومحت من الوجود الكثيرين من المذنبين، ومنحت الفرصة والسعادة لمملكتنا. ما الذي استفاده الرجل المجنون من حمل صفة الطاغية، وقد سقط صريعاً بيد الأرمني؟.. أولم يلق العقوبة التي يستحقها بسبب نقضه لمعاهدتنا معه، وسط موائد الوليمة وأقداح الخمر؟ لماذا أذكر ستوتياس (Stutias) ذلك الطريد المنفي، الذي هام على وجهه في كثير من بقاع الأرض يشتهي أن يظفر بالكثير ويجري وراء ما لا طائل منه، ذلك الذي أرادها حرباً غشوماً ليظفر بصفة الطاغية، كم من مذبحة جرّها على ليبيا، وأي جنون دفع هذه الأمم اليه؟.. كم من دماء لطّخت سيفه.. لقد سقط، وإن جاء سقوطه متأخراً بيد الموت الذي استحقه وجلب على نفسه العار والعقاب. انكم ترون أيها الرجال كيف تكدّ الأقدار لكي توفي بوعدها لأباطرتنا، وكيف أخضعت العالم بأسره للرومان بسلسلة من الحروب الناجحة. تعالوا الآن أيها الرفاق في القتال والمواطنون المخلصون وليظهر كل واحد منكم بأسه وسط هذه المخاطر الساخرة، ودمروا هذه الأمم الشريرة بالطريقة الرومانية لأمبراطورنا المقدس. اجعلوا هؤلاء الناس وملوكهم المقهورين يدركون ماهية شجاعة أمتنا وأمجادها في القتال. أنظروا الآن كيف تقع أعلامنا تحت وطأة مخاطر جسيمة وكونوا على حذر. إن خيامنا محاصرة وسط قوات الليبيين ولا بدّ أن نؤمن لها السلامة بالبسالة والسيف. أن من تظنون أنهم انضموا لجانبنا وتحالفوا معنا انما يقفون في انتظار ما تسفر عنه هذه المعركة. فإذا خرج الرومان منتصرين فسوف يعملون معنا ويكرموننا. إن الانتصار وحده وخشيتهم منا يجعلانهم مخلصين لنا. والآن، انهضوا أيها المواطنون. هذا هو النصر الذي سيكسر شوكة عدوكم. فلننقض على هؤلاء بالسيف، ونخيف أولئك ببسالتنا.

وأنتم أيها القادة ، ليخرج كل منكم وينظم صفوف جنده في مواقعها . ولتكن الأعلام في ٤٨٤/٤٥٤ مقدمة جميع الكتائب ، وأعدوا صفوفهم للمعركة وللهجوم» .

وأنهى القائد خطابه ، ثم قفز الى صهوة جواده . وصدر عن أسلحته صوت مدوٍّ فيما كانت خوذته تلمع ، عاكسة أشعة الشمس في عيون الرجال . كذلك كان درع صدره الذي يميل لونه الى الاحمرار يومض في جميع أرجاء المعسكر ، تماماً مثل سحابة تطير مدمدمة عبر السماء العالية ، فيصدر عنها صوت كالرعد عندما تمس منتصف جبل أوليمبوس* ، ثم تصدر فجأة لهيباً من النيران من خلال ضبابها الأسود .

وعند ذاك أدى إليه جميع القادة وجميع المدافعين عن الشعب التحية ، وعلى غراره ، قامت جماعات الفرسان ، التي كانت تقف مستندة على رماحها القوية ، بالقفز فوق ظهور الجياد ، في حين ظل آخرون يمسكون بأعنّة جيادهم ذات الرؤوس العالية . وعلى طول السهل كله أخذت الجياد تركض يمنة ويسرة فوق الأرض الخشنة ، ولكنها كانت تبتهج وتزيد من سرعتها فوق السهول الفسيحة عندما كانت تحس بأيدي الفرسان تلمس أعناقها .

وقامت الكتائب بتنظيم صفوفها استعداداً للمعركة . وكان جينتيوس (Gentitus)[٣٦] يقود طابوراً في ميمنة الجيش ويحيط أعلامه بكتائب مختارة . أما القائد نفسه فقد كان يقود جواده وهو سعيد ومتألق في خوذته اللامعة . وطار بجواده وسط جنوده ، وعليه هندام من الريش الذي يزين رأسه والذهب الذي يرصع ثيابه ،وأخذ يذكي نيران القتال . واستطاع بشجاعة أن ينظم صفوفه بمهارته المعهودة .

وفي أعقابه أخذ القائد العالي الهمة ، الكبير الجرم بوتزينتولوس (Putzintulus) [٣٧] في تحريك جنوده ، ونظم كتائبه المتراصة الصفوف خلف أعلامه . أما المحارب نفسه وكان يبدو عملاقاً بخوذته العالية ومتألقاً في درعه وجميلاً في طلعته وهو يمسك برمحه الطويل ، فقد كان يقود جواده ويصرخ بأوامره لرفاقه بطريقته المعهودة . وكان قلبه ينطوي على حكمة لا مثيل

• جبل أوليمبوس : جبل في شمال اليونان ، اعتقدوه قديماً سكناً للآلهة .

(٣٦) جينتيوس (Gentius) : قائد روماني .

(٣٧) بوتزينتولوس 'untzintulus) : قائد روماني .

٤٨٥ / ٥١١ لها ... ما كان أسعده لو أن القدر مدّ في عمره تحت الشمس ... كم كان ناضجاً في قوته ، وكم ستكون قوته أكثر نضجاً في السنوات القادمة .

وفي أعقابهما جاء القائد الثالث جرجوريوس (Gregorius) [٣٨] ، يتقد حماساً وهو ممسك بحربته ، ويتألق في زرده الخفيف وخنجره الأسباني .

والى جانبه ، قام جيسيريت (Geisirith) [٣٩] بتحريك قواته وأعلامه ، وكله شوق لتحطيم تحصينات العدو قبل أن تعطى الإشارة . لقد كان يعرف نفسه جيداً . لقد كان يحيط جسده بالدروع اللامعة ويمسك بيده أسلحته الطويلة . ولقد كان هو نفسه يبدو متألقاً وقد غطى جسده بالزرد ، وزين صفائح دروعه بقطع من الذهب . وكان يلبس خوذة ذهبية تبهر الأبصار ومبطنة بالفولاذ ، يزينها في قمتها عرف فرس . وكان يتمنطق بحزام يتلألأ بأزرار من الجوهر ، وعلى جانبه كان يتدلى سيفه في غمده من العاج ، وكان يضع درعاً على ساقيه مشدوداً بحزام من الجلد الفارسي ومزين بقطع كثيرة من الذهب . لقد كانت رؤية أعلامه تسرّ العين ، كما كانت بسالته أدعى لسرور أكبر . وفي أعقابهم جاء مارتوريوس (Martu rius) [٤٠] ، الحكيم ذو الرأي الثاقب . فقام بتنظيم صفوفه فوق السهول الفسيحة ، وأخذ يقود حلفاءه كضابط مقدام . وقاد القائد الشجاع ماركيانوس (Marcianus) [٤١] قواته لمواجهة صفوف الأعداء المتراصة ، لكي يختلط سيل دماء البرقاويين (Barcaean) [٤٢] بدمه . كذلك لم يتخلف سيناتور (Senator) [٤٣] العريق المحتد ، بل مضى معهم على ظهر جواده وهو يتألق ، سعيداً بما في يده من سلاح .

وتبعهم كوسينا(Cusina) [٤٤] المخلص مع جمع حاشد من الرجال وقاد صفوفه تحت الأعلام الماسيلية (Massylian) [٤٥] . وإذ كان يتسم بطبع هادئ وبرزانة لاتينية ، فقد كان

(٣٨) جريجوريوس (Gregorius) : قائد روماني .

(٣٩) جيسيريث (Geisirith) : قائد روماني .

(٤٠) مارتوريوس (Marturius) : قائد روماني .

(٤١) مارسيانوس (Marcianus) : قائد روماني .

(٤٢) بارساييان (Barcaean) : ربما يقصد القبائل الليبية من حول مدينة برقة .

(٤٣) سيناتور (Senator) : قائد روماني .

(٤٤) كوسينا (Cusina) : زعيم قبيلة ليبي حارب لجانب الرومان .

(٤٥) ماسيليان (Massylian) : قبائل ليبية تقطن منطقة الجزائر الحالية .

رومانياً بروحه ، ويكاد أن يكون رومانياً برابطة الدم كذلك . ولم يكن يعدله في قوته ٥٤١/٥١٢ أو في استخدام الرمح أدونيس (Adonis) [٤٦] معشوق فينوس (Venus) أو أخيل (Achilles) [٤٧] الجسور .

وفي الجانب الآخر ، في مسيرة الجيش ، كان القائد يوحنا (John) [٤٨] الذي تقدمت به السن وكان يكبرهم جميعاً . لقد كانت شيخوخته تفيض بالحيوية ، وكانت بسالته تضاهي بسالة الشبان ، وبذا استطاع البطل العظيم الذي لم تفتر عزيمته أن يقهر العدو . كان يمتطي صهوة جواد أرقط منقط ببياض وسواد ، يعدو به فوق السهول سعيداً بما يزينه من جواهر وذهب . وأخذ القائد يغدو ويروح طائراً بجواده ويقوي من عزائم رفاقه وهم ماضون للمعركة .

وعلى مقربة ، كان فرونيموث (Fronimuth) [٤٩] الذي لا يعرف الكلل ، يقوم بتحريك قواته وأعلامها مرفوعة ، وضمها الى حلفائه ، على السهول المكشوفة . ولكن ، على الرغم من أنه كان مبرزاً وسط جنوده ، متألقاً في خوذته ودرعه ، وعلى الرغم من أنه كان ينتصب عالياً فوق الرؤوس تتكسر عليه أشعة الشمس ، إلا أن صفوفه المتراصة كانت تحيط به من كل مكان ، وهي تلمع في دروعها وخوذاتها .

وبعدهم أخذ مارسينتيوس(Marcentius)[٥٠] يعبئ جنوده ويحفزهم الى التقدم . وعندما تسلم الجنود الأمر أخذوا ينتشرون فوق السهل هنا وهناك . وكان القائد يضع على رأسه خوذة ذهبية ، مبطنة بالبرونز ومثقلة بشعار القيادة وتغطي شعره الذهبي كما كان يتمنطق بزرد خفيف ذي صفائح براقة تحيط بكتفيه العريضين . وكان جواده ، يمشي في خيلاء في حين كان الفارس يشدّ سلاحه على فخذه ، ويحمل جعبة سهام وقوساً متيناً . ودخل المعركة بهذه السهام القوية النحاسية اللون ، وحصن أعلامه بجدار من المدافعين عن الشعب الذين يزرعون الرعب في النفوس . والى جانبه كان يقف ليبيراتوس (Liberatus) [٥١] المشهور برمحه الطويل . وعلى

---

(٤٦) أدونيس (Adonis) : شاب وسيم عشقته الالهة أفروديت وقتل الثور الذي أرسله الاله آريس (Ares)

(٤٧) أخيل (Achilles) : بطل ملحمة الالياذة .

(٤٨) جون (John) : يوحنا قائد الحملة البيزنطية على شمال أفريقيا .

(٤٩) فرونيموث (Fronimoth) : قائد روماني .

(٥٠) مارسينتيوس (Marcentius) : قائد روماني .

(٥١) ليبراتوس (Liberatus) : قائد روماني .

٥٤٢ / ٥٦٩ جانبه الآخر كان يقف فليتان (Vlitan) [٥٢] مدجّجاً بمختلف الأسلحة . لقد كان مبرزاً في استخدام الحراب ، وفي استخدام قوسه .

وفي أعقابهم جاء افيسدايوس (Ifisdaius) [٥٣] شيخ قبيلته وأبوها ، والقائد الذي كان يعرف كيف يمسك بزمام جواده . وتبعه أقوام متوحشون ، وكان ولده بيتيبتين (Bitipten) [٥٤] رفيق دربه . ولقد كانت تلك القبائل تشكل أمة ذات أعداد كثيفة من البشر ، يتميزون بروح البسالة والإقدام . وكان قائدهم القوي نفسه مخلصاً لفطرته ، محبوباً من جنوده وضباطه ومن القائد العظيم . وكان ولده الشهير المشهود له بالشجاعة والبراعة في استخدام سلاحه ، لا يقلّ عن أبيه بأساً وشجاعة ، وكان يتغلب برمحه على تلك النبال الرقيقة التي كان الفرس يطلقونها من أقواسهم .

أما القائد تاراسيس (Tarasis) [٥٥] فقد قاد كتائبه من المشاة الى المقدمة وهي مدججة بمختلف الأسلحة ، بعد أن قام بتحريك أعلامه العالية . ثم قام وهو على ظهر جواده بتوزيع الجنود على ساحة المعركة وأمرهم بأن يقفوا ودروعهم متلاصقة .

وهكذا ، امتدت صفوف قواته المتراصة على جبهة طويلة فوق السهول الفسيحة . وانتصبت استعداداً للمعركة . وكانت أجساد الجنود تختفي خلف غطاء سميك من الدروع ، بدا كما لو كان سوراً ، ولم يكن يظهر من خلف الدروع سوى فئوس الحرب والأطراف العليا من خوذاتهم وهي تلمع بنصالها ورؤوسها . وكانت ساحة القتال تلمع بلون نحاسي ينعكس من الدروع والرماح المنتصبة ، وبدا الجو مشحوناً بمخاطر جسيمة .

وعلى هذه الصورة ، قام الأب يوحنا (John) ذلك المحارب ذو البأس ، بتنظيم وتوزيع أجنحة الجيش استعداداً للمعركة ، وأقام أعلامه في وسطها .

وبعد أن وزع القوات في كوكبات متوازنة القوة ، اتجه الى الوسط حتى يتمكن من القتال مع جميع أسلحته وبين صفوف جنده كقائد شجاع ، عندما أصدر أوامره للجنود بالتحرك .

---

(٥٢) فليتان (Vlitan) : قائد روماني .

(٥٣) ايفيسداياس (Ifisdaias) : ليبي حليف للرومان .

(٥٤) بيتيبتين (Bitipten) : ليبي حليف للرومان .

(٥٥) تاراسيس (Tarasis) : قائد روماني .

ان عيني الثور المقاتل اليقظتين تظلان تدوران في محجريهما بين قرونه لكي يختار المكان ٥٧٠ /٥٨٢ الذي يمكنه أن يصيب خصمه بجروح ، ويظل الثور يضغط على جانب ، ثم يدور الى اليمين ، ثم ينعطف الى اليسار مضاعفاً بذلك الضربات التي يوجهها للمصارع بقرنيه حيثما تقوداه عيناه. وعلى نفس الصورة ، أصدر القائد أوامره لكتائب الجند بدخول المعركة ، بعد أن قسم القوات الى وحدات متساوية ٠

وبمثل هذه الصورة ، يقوم العازف الماهر بضبط مفاتيح الأرغن قبل أن تداعبها أصابعه. وعندما يحرك هذه المفاتيح فإن المزمار يصدر أصواتاً مع انكماش الهواء. ومع ذلك ، فإن الأوتار لا تصدر أصواتاً ما لم يقم العازف للنغمات الموسيقية بضرب المفاتيح بأنامله. وبنفس الصورة ، وبأمر من القائد ، تحرك الجيش بأكمله وتجمع في تشكيلات تحت الاعلام.



وكان القائد ريسيناريوس (Recinariaus) ينتصب الى جانبه وهو يتألق في سلاحه اللامع ويوزع قواته بنفس المهارة والدقة.

لقد كان القائد وهو ينفذ المخططات التي اختمرت في رأسه، متواضعاً في كبريائه، عظيم الهمة، رقيقاً وحكيماً وشجاعاً وطاهر الذيل، شديد البأس في القتال، مقداماً في الحروب ورسولاً للسلام. كان قلبه ينطوي على نفس متواضعة، وهذه فضيلة يحبها المسيح، كبير التقوى، وجديراً بأن يسارع الى الوقوف الى جانب مثل ذلك القائد. ذلك أن الطبيعة الأم ليست هي التي تربط بين هؤلاء، على غرار ترابط أعضاء الجسد الواحد بنفس واحدة، بل أن ما يربط بينهم هي أسمى الفضائل. الطهارة والحب والتقوى والصلاح والحكمة والبسالة. ومن ثم، فقد أخذ يسير بجواده متلألأ في سلامه، بين صفوف الجند في الوسط ويلقي بتعليماته لرفاقه في كلمات رصينة.

وتعجب جنود الأعداء لما أقدم عليه البطل الشجاع يوحنا، بتنظيم قواته في ذلك التشكيل. إلا أنه خلال ساعات الليل، عمد كبير قادة الأعداء آيرنا (Ierna) (٥٦) لفرط حذره، الى اقامة حاجز من الجمال على طول معسكره، وأحاط الساحة كلها بثمانية صفوف من الجمال. ثم قام بربط قطعان الماشية الى بعضها بشد قرونها بحبال ذات ست عقد. وقام بمهارة وخبث بنصب كمائن خلال الأراضي الجرداء التي لها ممرات فيها، حتى يمكن للمغاربة الذين يعلمون بوجودها، أن يتجنبوها، وأن يجتاحوا ساحة القتال ويسحقوا جنود الأعداء على حين غرة وبنفس الخدع، وهم يقتربون من المعسكر. ان مينوس (Minos) (٥٧) نفسه لم يعمد في تصميماته المعقدة للمتاهات الى مثل هذه الخدع رغم أنه صمّم الممرات على هيئة دوائر مزدوجة تؤدي الى شبكة من الممرات المعقدة. ولقد استطاع ابن آيجيوس (Aegeus) (٥٨) الذكي أن يجد طريقه بين تلك الممرات عندما اقتفى خطوات قدميه بحذر بالغ. ثم ضرب بسيفه الصدر الذي تشكل بخلط نوعين من المخلوقات، وعندها انبثق الدم من الوحش وسقط على الأرض المظلمة وتحطمت قرونه.

---

(٥٦) آيرنا (Ierna) : زعيم ليبي.

(٥٧) مينوس (Minos). الملك الأسطوري لجزيرة كريت، نسبت إليه حضارة كريت الأولى والمعروفة باسم الحضارة الميناوية (٢٨٠٠ الى ١٥٥٠ ق.م.) أبرز مظاهر تلك الحضارة هي القصور المتعددة الغرف مثل قصر مدينة كنوسوس وغيرها.

(٥٨) آيجيوس (Aegeus) ملك أثينا الأسطوري، ولد له ابنه ثيسيوس (Theseus) الذي اشترط عليه تنفيذ عدة أعمال

وقد عمد الليبي بعد ذلك الى اقامة سياج ثالث من التحصينات يحيط ٦١٣/٦٣٥ بالاستحكامات التي أقامها من أجساد الماشية، ثم قام بتفريق قطيعه الصغير وربطه بعضه ببعض وجعل منه متراساً. وفي الوسط، قام بمهارة بربط الحمير الى بعضها البعض، وربط الأرسان بإحكام. ثم قام بنصب كمائن حول المعسكر. وبث عدداً من الشوكات ذات الشعبتين ثم أقام سياجاً لنفسه من الصخور الكبيرة والرماح الحادة.

لقد رسم أنتالاس(Antalas) [٥٩] طريقة المعركة بمهارة، ثم بدأ يتقدم، تحيط به أجنحة الجيش. كان يقود جواده وسط الجنود في حماس وثقة. وأعد كتائبه لمواجهة المشاة، يحميهم ستار صلب من الدروع، ولكنه حرص على الإبقاء على جنوده قريباً من تحصينات المعسكر. وإذ كان يدرك بخبرته الطويلة مدى ما يسببه الصراع المسلح من رعب وفزع، ومدى قوة جند الرومان، لم يشأ أن يعرض جنود مشاته لخوض معركة على مسافة بعيدة عن المعسكر. ومع ذلك، أخذت صفوف الجند الليبيين تتقدم لدخول المعركة في تشكيل دقيق تحت اثنين من الأعلام. وكان الفرسان قد سبقوا جنود المشاة وتقدمت صفوفهم لتملأ الحقول والتلال المجاورة، والوديان العميقة الجوفاء والغابات ومجاري المياه. وكان آيرنا (Ierna) [٦٠] والمتوحش، دبروتين(Bruten) [٦١] المغرور مع هؤلاء الفرسان. كان آيرنا (Ierna) يحتل المركز الثاني، وقد تبعهم كاماليوس (Camalus) [٦٢] مندفعاً صوب العدو المهاجم ومعه آلاف من الرجال. وفي أعقابهم جاء هيسدرياسين (Hisdreasen) [٦٣]، وآيلداس (Ialdas) [٦٤] المتوحش، وسينزيزا (Sinzera) [٦٥]، وجميعهم يتقدون حماساً، وقادة آخرون لا يحصيهم

بطولية حتى يعترف ببنوته. عندما بلغ السادسة عشرة قادته أمه الى حيث خبأ والده سيفه وحذائه تحت صخرة ضخمة، تمكن الفتى من رفع الصخرة وتخليص السيف والحذاء. بعدها قام بالعديد من الأعمال البطولية أهمها قتله لغول جزيرة كريت الذي كان يشترط على أثينا أن ترسل له كل سنة ضريبة بشرية تتكون من سبعة فتيان وسبعة فتيات. اختار تيسيوس أن يكون من بين الضحايا، وذهب الى كريت وتسلل الى حيث الغول المخيف واستطاع أن يقتله مخلصاً بلاده من مأساتها السنوية.

(٥٩) أنتالاس (Antalas) : زعيم ليبي.

(٦٠) آيرنا (Ierna) : زعيم ليبي.

(٦١) بريوتين (Braten) : زعيم ليبي.

(٦٢) كاماليوس (Camalus) : زعيم ليبي.

(٦٣) هيسدرياسين (Hisdreasen) : زعيم ليبي.

(٦٤) آيلداس (Ialdas) : زعيم ليبي.

(٦٥) سنزيرا (Sinzera) : زعيم ليبي.

٦٣٦ / ٦٤٤ عدّ، حتى لو أراد المرء أن يحكي عن هذا العدد الكبير من القبائل الهمجية. ووسط هؤلاء جميعاً كان ينتصب سيفيدان (Sifidan) [٦٦] المتوحش، صانع الحرب ومدير دفتها، بعد أن نظم صفوف فرسانه وأعلامه على ميمنة الجيش، وعلى ميسرة الجيش، قام كاركاسان (Carcasan) [٦٧] بضم صفوفه الى صفوفهم. وبعد أن قام بتحريك قبائل الافوراكس (Ifuraces) [٦٨] لدخول المعركة، أخذ هو ورجاله يقفون في صفوف متراصّة على السهول. وعلى نفس الصورة، أصدر (ميلانجوس — Melangus) [٦٩] أوامره بتحريك أعلامه، ومعه جوينتان (Guentan) [٧٠]، وجانتال (Gantal) [٧١]، والكانزا (Alacanza) [٧٢]، وآيوتونجون (Iutungun) [٧٣] المخيف، وأيوتيلتين (Autiltin) [٧٤] السريع الحركة، وكاتيوبار (Catubar) [٧٥] الجائر، وآلاف الضباط الآخرين الذين ألقت بهم سرت (Syrtes) في أتون المعركة.

---

(٦٦) سيفيدان (Sifidan) : زعيم ليبي.
(٦٧) كاركاسان (Carcasan) : زعيم ليبي.
(٦٨) آفوراسيس (Ifuraces) : قبيلة ليبية.
(٦٩) ميلانجوس (Melangus) : زعيم ليبي.
(٧٠) جوينتان (Guentan) : زعيم ليبي.
(٧١) جانتال (Gantal) : زعيم ليبي.
(٧٢) ألاكانزا (Alacanza) : زعيم ليبي.
(٧٣) آيوتونجون (Iutungun) : زعيم ليبي.
(٧٤) أيوتيلتين (Autiliten) : زعيم ليبي.
(٧٥) كاتيوبار (Catubar) : زعيم ليبي.



الكتاب الخامس

١ عند ذاك ، كان العدو يقترب من خصمه المهاجم بصورة منظمة ، وأعد الجنود أقواسهم وأخرجوا السهام من جعباتها ، وأعدوا حرابهم ذات الرؤوس الحديدية . وعندما غطى الجيش المهاجم المسافة الواقعة بين المعسكرين فوق السهل الخاوي ، قام الجنود الأجانب بمنع جند العدو من الاقتراب ، واستطاعوا بصمودهم أن يكرهوا الخصم المهاجم على البقاء في أرضه ، فبدأ الفرسان يشدّون أعنة الخيل . ثم توقفت القوات تماماً عن الحركة . واستطاع العدو (Guenfeian Atlantas) جوينفيان أنتالاس[1] أن يلمح القائد يوحنا (John) وسط أعلامه ، وتعرف عليه من تلك المسافة البعيدة ، وعندئذ بدأ يتقدم بجواده محاطاً بأسلحة رجاله ، ومر أمام ناظري القائد العظيم ، ثم أخذ يتقهقر الى الخلف وهو يلهب ظهر جواده المخلص بطرف من عنانه . وعلى الرغم من ذلك ، فقد خرج القائد الشجاع لمقابلة خصمه ،

---

(١) (Guenfeian Antalas) بطل ليبي ربما قصده جونفيان أب أنتالاس . هناك (Guenfan) وهو أب (Antalas) وهو الأصح لأن سياق الكلام يؤدي الى أن أنتالاس جونفيان خرج لمقابلة القائد الروماني يوحنا .

١٤ / ٣٨ بغض النظر عما كان معه من سلاح غير فعّال. وهنا، أخذ خصمه يولي الإدبار والقائد يصرخ فيه: «الى أين تهرب يا أنتالاس (Antalas)؟ أين تهديدك ووعيدك؟ أنظر... ان يوحنا يأتيك مع جيشه التافه الضعيف ويدعوك للقتال. لماذا تدير ظهرك سريعاً هكذا؟ ليكن الله الذي يسيّر السموات والأرض ويرسل الصواعق حكماً بيننا.»

وأحس الليبي بالعار عندما وجه يوحنا هذا الكلام إليه، وذاب بين حشود محاربيه وهو في حزن وكرب. وفجأة، وكأنما بسحر ساحر، انطلق ثور من بين صفوف الليبيين، كان الثور الذي أعده آيرنا (Ierna) [٢] كاهن القبائل وأعظم قائد لشيوخها، كمثال على وجود أمّون قرزل (Ammonian Gurzil) [٣] المقدس، وليكون أول بشرى لرجاله. واندفع الثور بقرنيه الطويلين بين صفوف الجيشين، لا يدري من أين يخترق صفوف الأعداء. وبينما كانت صفوف الجند تتراجع في ذعر، شق الثور طريقاً له بين صفوف جند سرت (Syrtic)، ثم قفل راجعاً الى معسكره بصورة مخيفة. وركض أحد الفرسان الرومان في أعقابه ثم قذفه بسهم أصابه تحت كتفه، فسقط وسط الرمال. وعندئذ، بدأت الأبواق تدوي بأصوات خشنة تدعو للقتال، وأخذت الصرخات المختلطة ترتفع الى عنان السماء. وثارت آلهة الغضب ثورة عارمة، وكان يصدر عنها صوت عاصف رددت البساتين والمزارع أصداءه. وبعدئذ ترددت أصداء الأصوات بكل لغة. فهنا كان الجنود الليبيون يدعون سينيفيري (Sinifere) [٤] ويصرخون باسم ماستيمان (Mastiman) [٥] المتوحش. وكان الصدى يردد

---

(٢) آيرنا: بطل وكاهن الإله الليبي قرزل.

(٣) أمون قرزل (Ammonian Gurzil) عبد الليبيون القدماء كبقية القبائل العربية القديمة الشمس والقمر وإله الشمس عندهم يعرف باسم (Gurzil) وله معابد في الملحمة. وكغيرهم من الشعوب السامية[١] يحمل الليبيون إلههم معهم للمعارك كما تبين الملحمة في صراع الليبيين ضد الرومان. ويعتقد بأنه ابن إله واحة سيوة آمون الذي يرمز إليه بكبش ذي قرنين. أما قرزل ليبيا فيرمز إليه بثور كما تبين الملحمة. والدلالة واضحة في القوة بين الشمس والثور. وقد وضع الليبيون القدماء تمثال قرزل الحجري في مراعيهم ومزارعهم ومدنهم. للتبرك به، تماماً كما فعل العرب باللاتي والعزّا. واستمرت عبادته الى مجيء الاسلام. ويذكر البكري أن بعض قبائل ليبيا ومن بينها هوارة كانت تتبرك بالاله قرزل. (للمزيد أنظر (E. Bates) بكتابه The Eastern Libyans ص ١٨٧ — ١٨٨).

(١) حول التشابه الديني بين الليبيين وبقية شعوب الشرق القديم. أنظر كتاب:

W.R. Smith, **Religion of the Semites**, 3th Edition, 1907 London.

بعنوان **Religion of the Semites,** 3rd ed., London

(٤) سينيفيري (Sinifere): إله الحرب لدى بعض القبائل الليبية.

(٥) ماستيماس (Mastimas): إله الحرب لدى بعض القبائل الليبية.

٣٩ / ٧٤ اسم ماستيمان (Mastiman) وهناك كانوا يدعون قرزل (Gurzil) وكان الاسم يتردد صداه من الصخور الجوفاء. وفي ذلك الجانب، أخذت الكتائب الرومانية تزلزل السماء بأصواتها، وكانت الجبال تدوي بأصوات جعبات السهام المهتزة. وأخذ صوت كريم يشدو ويدعو المسيح باسمه قائلاً: «أدعو للجنود الشجعان أن يقاتلوا بسلاحك يا جوستينيان. احفظ اللهم حكم أمبراطورنا.» وعند تلفظه بهذا الاسم، اهتزت السماوات، واذ اضطربت الأرض، أخذت الغابات تهتز على طول سلاسل الجبال وبدت قمم الجبال وكأنما اعترتها هزة شديدة. كانت الجبال والبحيرات تصدر أنيناً عالياً. وأخذت الأرض تهتز وقد تفككت أوصالها، وعناصر الكون تسبح بخضوعها لخالقها، كل بلسانه.

والى جانب ذلك كله، كان الغضب يملك زمام نفوس الجند ويدفعهم الى القتال. وكان الرجال يحثون جيادهم على التقدم ويطلقون السهام والرماح واحدة بعد الأخرى بأيديهم. وخفت ضوء الشمس تحت تلك السحابة من الرماح، وبدا كأنما حل الليل الحالك تحت رماحهم وظلالها على السهل. وفوق رؤوس الجند كانت السهام الحديدية من كلا الجانبين تحجب ضوء النهار. وتكاثفت الأسلحة المتصادمة عندما بدأت السهام تنطلق وتطير هنا وهناك، مرة من جانب، وأخرى من الجانب الآخر. وامتلأ الفضاء بالرماح التي كانت تطلق بكثافة، فبدا كئيباً مظلماً. وبقدر الرماح والنبال التي أطلقت كان صراخ الجنود من كلا الجانبين. وكان كل رمح أو سهم يطلق يحمل الموت بين طياته. ومع ذلك، فإن الأقدار المتباينة هي التي تحكم المعركة. فغالباً ما كانت السهام تنطلق لتصطدم برماح من الجانب الآخر فيهوي الاثنان معاً على الأرض فيصيبان رجلاً واحداً إصابة مميتة. وفي حالات أخرى، كان الموت نفسه يتعاظم، فتختلط دماء القتلى من الجانبين. لقد كان الفضاء يدوي بأصوات الرماح المقذوفة، وتأججت نيران الحرب، وكانت الجياد تهوي وتتمرغ في ساحة القتال بعد مصارع فرسانها. وتجمعت قوة ضاربة كانت تأتي مندفعة من كلا الجانبين، فتتعرض صدور الرجال لطعنات أسلحة العدو، بعد أن أعمتهم الفوضى والغضب. وكان كل من يعدّ نفسه للهجوم على عدوه، يفاجأ بنصل يخترق أعضاءه الحيوية، وتزهق روحه.

واندفع ريسيناريوس (Recinarius) [٦] المتوحش للأمام وشق طريقه وسط الأعداء المهاجمين، واستطاع أن يجبر صفوف الأعداء وأعلامها على الفرار بعد أن صرع ايلمار

---

(٦) ريسيناريوس (Recinarius) : مساعد القائد يوحنا.

٧٥ / ١٠٦ (Eilimar) [٧] الذي كان أول من دخل المعركة ، واثقاً من جواده ، ومعتمداً على رجاله ، فاندفع بجسارة للاشتباك مع الجند الرومان . إلا أن البطل العظيم تصدى له ومزّق صدره برمحه عندما هجم عليه . وبعد أن حطّم ضلوعه مزّق قلبه وطعنه في ظهره برمح .

وعندئذ ، عمدت قبائل مازاكس(Mazax) [٨] للفرار بعد أن استولى عليها رعب قاتل ، فتبعتهم كوكبة من الجند الرومان وأوقعت الاضطراب بين صفوفهم بتشديد الهجوم عليهم . ونجح الرومان في السيطرة على مؤخرة القوات المغربية بعد أن انتشروا فوق السهول الفسيحة ، واستطاعوا بعد معركة سهلة ، أن يرهقوا الجيش الفار ، ولكن ، عندما شاهد الفرسان المقهورون زملاءهم من جند المشاة يقفون صامدين خلفهم ، عاودتهم شجاعتهم وعادوا الى ساحة القتال في وثبات سريعة وأخذوا يشقون طريقهم وسط سيوف أعدائهم وهم يملأون الجو بصرخاتهم الهمجية . إلا أن القائد العظيم وقف في طريقهم بشجاعة نادرة وأخذ يحرض رجاله على الثبات والصمود ، قائلاً : « أيها الضباط الرومان ، يا أمل المملكة وأملنا ، أنتم ، يا من خبرتم دائماً مشاقّ الحرب وقسوتها . لقد أردتم القتال . ولقد سنحت لنا أخيراً فرصة الاشتباك في معركة . ان المعركة رهن بهذه اللحظة الخطيرة . اطردوا جند الأعداء من هذه المنطقة بقوتكم العاتية ، وبهذا فقط سيتحقق لنا النصر المؤزر . ان رجالنا يحصلون على شرف عظيم وهم يضعون نهاية للحروب ، ويسحقون الأمم المغرورة ، ويعيدون البهجة والسعادة من جديد لمملكتهم الرومانية . »

هكذا خاطب رجاله ، ثم اندفع وسط صفوف الأعداء وهو يتقد حماسة ويلهب ظهر جواده بسوطه ، ويصرخ بصوت مدوّ . وتبعته قواته بأسلحتها الكثيفة . كان الغبار يخفي كل شيء ، ونزلت عاصفة من الأسلحة الحديدية فوق ساحة القتال كالسيل العارم ، والسهام المجنحة تنطلق من أقواسها .

أول الأمر ، صرّع القائد عدوه مانتيسيمان (Mantisyman) [٩] بضربة أطاحت برأسه . ولقد كانت ضربة السيف من الشدة بحيث أن البطل الصريع لم يحس بألم الجرح ، كما أن

(٧) ايليمار (Eilimar) : قائد ليبي .

(٨) مازاكس (Mazax) : قبيلة ليبية .

(٩) مانتيسيتان (Mantisynan) : قائد ليبي .

١٣٩/١٠٧ السيف لم يتلطّخ بدمه من فرط سرعته . وهوت رأس العدو فوق الحشائش بعيون مفتوحة ، فيما أخذ جواده يركض على السهل حاملاً جسداً بلا رأس ، والدماء تلمع من حيث جزّت الرأس . ثم ثنّى القائد بـ ليوماسان (Laimasan) [١٠] فطعنه بسيفه في صدغه فحطم عظامه ، واخترق مخّه . ثم ضرب خوذته بسيفه فشقّ جبهته وعينيه وخصلات شعره الى نصفين . ثم قذف بحربته من مسافة قصيرة فصرع جواد جوارسيوتياس (Guarsvtias) [١١] السريع . وكانت عصا الحربة المصنوعة من خشب الدردار تهتزّ تحت الجانب الأيسر للجواد ، فيما اخترق النصل جسده حتى أصاب قدم الفارس اليمنى واستقرّ فيها . وتهاوى الجواد بعد إصابته وسحق سيده تحت جسده الثقيل . وبسيفه الذي لا ينثني ، ضرب القائد مانزيراسين Manze rasen) [١٢] فشطره نصفين ، وفي غمرة المعركة أخذ يضرب يميناً ويساراً فيتساقط الرجال على الجانبين . وضرب بسيفه عنق ايرتاس (Iartas) [١٣] وبتر معها اليد التي تمسك بالسلاح فطارت بعيداً بسلاحها ، فيما سقط ايرتاس (Iartas) صريعاً على الأرض ، وأخذت نبضات يده تهز ذراعه التي لم تكن أعصابها قد ماتت بعد .

واندفع مازانا(Mazana) [١٤] نحو يوحنا(John) بعد أن شاهده يثير تلك المذبحة ، ورماه برمحه . وبعد أن قذف الرجل برمحه لوى عنان جواده راجعاً ، إلا أن القائد الشجاع استقبل الرمح بترسه وغيّر من مساره دون خوف من أن يصاب بجرح ، وتعقب العدو دون خوف أو وجل وهاجمه وضربه ببسالة ، وتدفقت الدماء غزيرة من جسده وخضبت الحشائش الخضراء ، فيما تمددت جثته الضخمة فوق الساحة .

وكان جارديوس (Gardius) [١٥] قد رأى شقيقه الضخم وهو يهوى جريحاً ، فطار بجواده ليحمي جثمانه ، واتجه الى القائد محمياً بترسه ومغروراً بسلاحه . لقد كان مدفوعاً بما تستلزمه قواعد الشهامة وبحزنه على أخيه ، ولكنه ، فيما كان يثب ويهبط ساخراً من خصمه ، اخترق

---

(١٠) ليوماسان (Laumasan) : قائد ليبي .

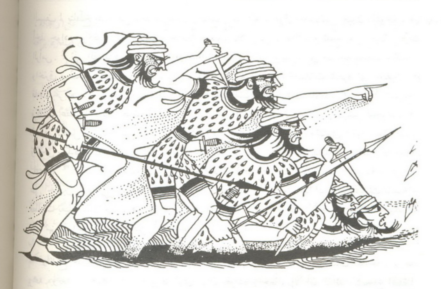
(١١) جوارسيوتياس (Guarsutias) : قائد ليبي .

(١٢) مانزيراسين (Manzerasen) : قائد ليبي .

(١٣) ايراتيوس (Iartus) : قائد ليبي .

(١٤) مازانا (Mazana) : قائد ليبي .

(١٥) جارديوس (Gardius) : قائد ليبي .



١٤٠ / ١٥٣ سهم درعه فسقط صريعاً على الرمال. وخاطب القائد يوحنا الجسد الميت قائلاً: «ألهذا جئت وراءنا في يأس وجهالة؟ أم أنك كنت تستعد لتكون رفيق أخيك؟... أنظر، لقد تحققت رغباتك، وارتبط مصيرك بمصير أخيك. إنك ترحل عن ليبيا رحيلاً أبدياً مع أخيك، وأنت تسعى وراء الغنائم وإشاعة الموت.»

وسرعان ما اندفع القائد، الذي كانت هامته تعلو جميع الهامات، وراء كولان (Cullan)[١٦] مهدّداً بحربته، وأخذ يتعقبه لمدة طويلة. وأخذ الفارس المغربي، الذي كان يفرّ رعباً من عدوه الشديد البأس، ينسحب على طول السهول. وتبعه القائد وأخذ يرميه بالرماح حتى أصابه في ظهره، ونزف كولان (Cullan) دماً غزيراً على الرمال. وأخذت أجساد الرجال تتساقط فوق بعضها البعض وقد اكتسحتها قوات الرومان فوق السهول الفسيحة. وتملك الفزع من الحرب الجيش اللواتي (Languantan) ودبّ الاضطراب بين جميع

---

(١٦) كولان (Cullan) : قائد ليبي.



صفوفه. وامتلأت قلوب القبائل بالخوف من قوة غير عادية، فأخذوا يتطلعون للبطل بدهشة ١٥٤/١٧٠ بالغة، ثم عمدوا للفرار رعباً وفزعاً. وهكذا ارتعدت أوصال الجبابرة عندما شاهدوا إله الرعد وهو يرميهم بصواعقه فيطيح رؤوسهم، وهكذا، فرّ جنود طروادة أمام أخيل (Achilles) [١٧] الجسور.

وعندما رئي بروتين(Bruten) [١٨] القبائل وقد طردت من الحقول مولية الأدبار، ورأى أن الذعر قد تفاقم بين رجاله الذين كانوا لا يعرفون الخوف عادة، ورأى صفوف الجنود والأعلام وهي تنقلب رأساً على عقب وتستسلم، ورأى الليبيين الفارّين يهرعون الى المعسكر طلباً للأمان، وتيقّن من أن الأقدار قد حكمت عليه بالموت، أخذ يصرخ بصوت مدوٍّ لجميع صفوف الكتائب الهائمة على وجوهها ويدعوها للقتال قائلاً: «أيها الجنود التعساء الذين لم يسبق لكم أن انسحبتم مهزومين، من أني يأتيكم هذا الرعب المرير، وأية قوة تسيّر كتائبكم المرتعدة؟ من الذي سينجيه الهرب؟ من منكم سيأمن على نفسه في معسكر يهدّد هذا المنتصر

(١٧) أخيل (Achilles) : بطل ملحمة الالياذة وهازم طروادة.

(١٨) بروتين (Bruten) : قائد ليبي.

١٧١ / ١٩٩ المغرور بالاستيلاء عليه؟ أية معركة هذه التي تلقي الرعب في قلوبكم وتدفعكم للهرب ، يا رجال قبيلة لواتة (Languantan) ذوي البأس والصلابة ... وأنت يا أوستور (Austur) [١٩] ، أي عدو هزمك وجعلك تفرّ في ذعر كبير؟ وأسفاه أيها التعساء ، ألا تشعرون بالعار وأنتم تتخلون عن الحقول؟ أيتها البسالة؟ أيتها القلوب التي تتدفق رجولة ، هل تريدون العودة الى الصحاري الجرداء؟ هل تركضون هكذا لتنعم أبصاركم برؤية [٢٠] سرت الساخنة؟ أيتها الفرق الهاربة ، تذكروا الآن حروب أجدادكم في الماضي والمعارك وقوتهم المشهورة. إن آباءكم أوقعوا الهزيمة بهذه الأمبراطورية. ان ماكسيميانوس (Maximianus) [٢١] ، رغم أنه كان يمسك بصولجان هذه المملكة ، لم يستطع أن يلحق الهزيمة بأجدادنا ، والآن ، أنظروا كيف يكتسح يوحنا [٢٢] صفوفنا ويحطمها بقوة صغيرة من رعاع الناس ، هبوا لنصرة أبنائكم».

وعندما سمع الليبيون ذلك النداء ، تأججت حماستهم ، وبدأت صفوفهم تغير اتجاهها وتعود لساحة المعركة . وبضراوة ألقوا بأنفسهم في المعركة ، وملأوا الجو بسيول من أسلحتهم. كانوا مثل سفينة داهمتها العاصفة ، فكانت تضطرب في مسارها وتسيرها الأمواج الى حيث تدفعها ريح الجنوب ، فيما يقع البحارة في اضطراب وفوضى بسبب الأخطار التي تتهددهم. واذا ما قابلت السفينة ريح بهبات مواتية كانوا يدعون الله من أجلها ، ينهض البحار المسؤول عن الدفة فرحاً ويعدل مسار السفينة بمهارة ، حاثاً رفاقه على نشر الأشرعة لاستقبال الرياح المواتية ، وعلى نفس الصورة أعاد القائد رجاله المهزومين ، واستطاع بخطابه أن يثير أرواحهم الشريرة للحرب من جديد.

وقذف بروتين (Bruten) [٢٣] رمحه صوب بول (Paul) [٢٤] وهو يهاجمه ، واخترق الرمح صدر البطل ومزّق رئتيه وضلوعه. وضرب ايلدا (Ialda) [٢٥] لارجوس (Largus) [٢٦]

(١٩) أوستور (Austur) : قائد ليبي.

(٢٠) سرت (Syrtes) : سرت.

(٢١) ماكسيميانوس (Maximianus) : أمبراطور روماني حكم مع ديرقليشيان.

(٢٢) جون (John) : يوحنا.

(٢٣) بروتين (Bruten) : قائد ليبي.

(٢٤) بول (Paul) : قائد روماني.

(٢٥) آليداس (Ialdas) : قائد ليبي.

(٢٦) لارجوس (Largus) : قائد روماني.

٢٠٠/٢٢٣ بسيفه وهو يدخل المعركة ، فيما تلقى كريسينس (Crescens) [٢٧] ضربة سيف من سينزيرا (Sinzera) [٢٨] ، وصرع الاسان (Ilasan) [٢٩] بيد سيرفاندوس (Servandus)[٣٠] ، وهجم هيسدريسان (Hisdreasan) [٣١] على المناضل مارسيانوس (Marcianus)[٣٢] وقذفه برمح فأصاب جبهة جواده بضربة هائلة ، فخرّ الجواد على الأرض بعد أن أصيب بذلك الجرح المميت ، وتكسر الرمح تحت ثقله الهائل . إلا أن المناضل سرعان ما نهض ببسالة ولم تنل منه خسارته لجواده ، ووقف منتصباً كجندي من جنود المشاة عالي الهمة بخوذته ، متلألئاً بترسه . وارتعدت فرائص هيسدريسان (Hisdreasan) المتوحش لمجرد رؤيته لخصمه ، ولم يجرؤ على مواجهته منفرداً ، فارتدّ لائذاً بالفرار . إلا أن المدافع عن حقوق الشعب تعقبه شاهراً سيفه ، ولكن هيسدريسان (Hisdreasan) دار بجواده المدرّب مستخدماً مهمازيه ، وولى هارباً في ذعر الى صفوف رجاله واختفى بين الأسلحة المتراصة ، ولكن ، عندما لم يستطع مارسيانوس (Marcianus) اللحاق بغريمه ، أخذ يهاجم الآخرين ، فصرع ميراسجون (Merasgun) [٣٣] بسيفه وهو يتوسط المساحة ، ثم سوارتيفان (Suartifan) [٣٤] من بعده ، واستطاع جاماسدران (Gamasdran) [٣٥] الخفيف الحركة أن ينجو بجلده عندما التجأ للحيل ، فيما لاقى أساجواس (Isaguas) [٣٦] حتفه على يد البطل . وجمع القائد المنتصر أسلحة أعدائه المقهورين ، وأخذ في عنف وضراوة يرمي الهاربين بحراب رفاقهم . وتكدّست جثث الرجال والخيول فوق بعضها البعض هنا وهناك ، جثث كل هؤلاء الذين طالتهم حرابه ، وهو يضرب بصورة عشوائية وسط صفوف الأعداء .

---

(٢٧) كريسينس (Crescens) : قائد روماني .

(٢٨) سينزيرا (Sinzera) : قائد ليبي .

(٢٩) الاسان (Ilasan) : قائد ليبي .

(٣٠) سيرفاندوس (Servandus) : قائد روماني .

(٣١) هيسدريسان (Hisdrasen) : قائد ليبي .

(٣٢) مارسيانوس (Marcianus) : قائد روماني .

(٣٣) ميراسجون (Marcianus) : قائد ليبي .

(٣٤) سوارتيفان (Suartifan) : قائد ليبي .

(٣٥) جاماسدروم (Gamasdrum) قائد بليبي .

(٣٦) اساجواس (Isaguas) : قائد ليبي .

٢٢٤ / ٢٥٧ إلا أن أنتالاس (Antalas) شاهده من بعيد وهو واقف فوق تلة عالية يرقب مجريات القتال. كان قد قرر ألّا ينضمّ لصفوف المحاربين في المراحل الأولى من القتال وعقد العزم في خبث وحذر على أن ينضم للمعركة كقوة احتياطية. ولكنه عندئذ لم يستطع أن يقف مكتوف الأيدي إزاء البطل الذي أخذته حمّى المذبحة. ومن ثم أخذ يبذل كلّ ما يستطيعه من جهد لمد يد المعونة لليبيين المنكوبين، ويجمع صفوف رجاله الذين تبعثروا فوق التل. وبضراوة اندفع مخترقاً صفوف رفاقه واتجه صوب مارسيانوس Marcoanus الذي كان يقتفي أثر الرجال فوق المروج. كان يبدو مثل الليث الذي يندفع وسط الجبال تطارده أصوات الصيادين، ويلهب ظهره بذيله فتتأجج نيران القتال فيه فيزأر ويهاجم الرجال ببسالة. كذلك فإن البطل لم يخفه منظر عدوّه عندما تلاقيا، فقد اندفع الى خصمه شاهراً سلاحه، لكن، قبل أن يبلغ خصمه، اخترقت حربة ترسه الذي يحميه واستقرّ النصل العريض بين ضلوعه. وعندئذ تعالت الصرخات، وردّدت الجبال تلك الصيحات الضاربة وتأجج غضب المهزومين وعاد إليهم الأمل عندما رأوا أنتالاس (Antalas) [٣٧] يتقدم ببسالة. وكرة أخرى عادوا للاشتباك بالسلاح وجمعوا صفوفهم ثم أعادوا تشكيل قوتهم. وعندما نجح أنتالاس (Antalas) في تعزيز صفوفهم بتجميع القوات، اندفع بضراوة وسط سيوفهم المشرعة، شاهراً حربته، وطار بجواده لملاقاة جند الأعداء المتراصين.

وكان أورنوس (Ornus) [٣٨] أول من واجهه وهو على تلك الحالة من الهياج ولم يكن أورنوس (Ornus) سليل أسرة رومولوس (Romulus) [٣٩]، فلقد كان ابناً لامرأة فارسية ربته ليكون محارباً، إلا أن أفريقيا انتزعته من بين أحضان أمه ليلقى حتفه على يد أنتالاس (Antalas)، الذي كان يعلوه بقامته المديدة، فقذفه بحربة اخترقت ترسه وجسده معاً. وسرعان ما اندفع أرساسيس [٤٠] التعيس الحظ الى مصيره المشؤوم. عندما عمد الى مواجهة أنتالاس (Antalas). لقد لقي هذا المتحدي مصرعه عندما طعنه أنتالاس المتوحش بحربته في بطنه حيث كان يتمنطق بقوسه، فشق رئتيه الى شطرين، ثم انثنى الى مالكوس (Malcus) [٤١]

---

(٣٧) أنتالاس (Antalas) : أحد أشهر القادة الليبيين في حربهم ضد الرومان.

(٣٨) أورنوس (Ornus) : قائد روماني.

(٣٩) رومولوس (Romulus) : الجد الأسطوري للرومانيين ريموس ورومولوس اللذين أرضعتهما الذئبة.

(٤٠) أرساسيس (Arasacis) : قائد روماني.

(٤١) مالكوس (Malcus) : قائد روماني.



المذعور وضربه بحربته. ووسط هذا الغليان، اخترق جسدي أرتيميوس (Artemius) [٤٢]، وماوروس (Maurus) [٤٣] بحربته وهوى الاثنان معاً وهما ملتصقان بحربة واحدة.

وآنذاك، كان زوديوس (Zudius) [٤٤]، أحد المدافعين عن الشعب، والمعتز بسلاحه، يأنف من ركوب الخيل، ويؤثر أن يقاتل كجندي مشاة. وكان قد صرع لتوه كلاً من ميسانتان (Misantan) [٤٥]، وتيسيراس Tiseras [٤٦]. وكان تيسيراس واحداً من الجنود

(٤٢) أرتيميوس (Artemius) : قائد روماني.

(٤٣) مايوروس (Marus) : جندي روماني.

(٤٤) زوديوس (Zudius) : روماني.

(٤٥) ميسانتان (Misantan) : ليبي.

(٤٦) تيسيراس (Tiseras) : ليبي.

٢٦٤ / ٢٨٥ المتمردين من أتباع مانسيتالاس (Mansitalas) [٤٧] وبعدئذ ثنّى بـ سانجين (Sangin) [٤٨] المعروف بصلابته وقسوته وأرسله الى العالم السفلي، ثم صدّ أماروس (Amarus) [٤٩] المغرور وجرح الشقيقين جرافين (Garafin) [٥٠] وتيليفان (Tilifan) [٥١] فسقطا على الأرض وكل منهما يرى أخاه يعاني سكرات الموت، ويحزن للكرب الذي سيملأ قلب أمهما زمناً طويلاً. ومن فوق تلة بعيدة، شاهده سيديفان (Sidifan) [٥٢] وهو متأجج بلهيب المعركة، فانحدر لملاقاته. وخلفه سار جيشه من جند سرت (Syrtic) لمهاجمة البطل ذي الهمة العالية، الذي عصفت به حمّى القتال الدموي. وصرع البطل بسبب تفوّق الأعداء عدداً وعدة. وذلك أن الجيش المتراصّ الصفوف أحاط به من كل جانب وأخذ الجنود الأعداء يرمونه بالسهام والحراب، ثم انهالوا عليه ضرباً وطعناً، وسقط البطل صريعاً متأثراً بجراحه التي أثخنه بها ألف من جنود الأعداء. وعند ذاك، كانت الوحدات المقاتلة قد أخذت في التراجع، ترفع أعلامها فوق الأراضي القفر الخالية من المسالك، وأصاب الرعب قلوب الضباط فعمدوا الى الانسحاب، إلا أن القائد الذي اندفع للأمام يحيط به حملة أسلحته المخلصين، استطاع أن ينقذ رفاقه المقهورين بما عرف عنه من جسارة وبسالة. واستطاع يوحنا (John) المعروف بمهارته في استعمال السيف، أن يداهم صفوف الأعداء، وأن يصيب مادّان (Madden) [٥٣] برمح قذف به في سرعة كسرعة البرق، فطرحه أرضاً الى جانب ماجارقون (Magargun) [٥٤] الجسور، وتادين (Taden) [٥٥]، وميلان (Meilan) [٥٦] الذين كانوا قد حاولوا الفرار بعد أن صدموا بما شاهدوه. أما أرياريث (Ariarith) [٥٧] فقد أطاح بـ (ميستان —

---

(٤٧) مانسيتيلاس (Mansitalas) : غير معروف — الأرجح أنه ليبي.

(٤٨) سانجين (Sangin) : سانجين ليبي.

(٤٩) أماروس (Amarus) : ليبي.

(٥٠) جارافين (Garafin) : ليبي.

(٥١) تيليفان (Tilifan) : ليبي.

(٥٢) سيديفان (Sidifan) : ليبي.

(٥٣) مادّان (Madden) : ليبي.

(٥٤) ماجارجون (Magargun) : ليبي.

(٥٥) تادين (Taden) : ليبي.

(٥٦) ميلان (Meilan) : ليبي.

(٥٧) آرياريث (Ariarith) : روماني.

٣٠١/٢٨٦ (Mestan) (٥٨) العظيم بسيفه ، ثم تجول عبر الساحة فأطاح بعنق التيسيراس (Altiseras) (٥٩) وسقط رأس زامبراس (Zambras) (٦٠) فوق صدره عندما اخترق رمح عنقه ، فيما نفث روفّاس (Roffas) (٦١) دماً غزيراً بعد أن أصيب في عنقه ، بينما كان أوثيما (Authima) (٦٢) يلفظ آخر أنفاسه .

وفي مسافة غير بعيدة ، اندفع زيبير (Ziper) (٦٣) وسط صفوفهم ، فأوقع الاضطراب بين الرجال وأجبرهم على الهروب الى معسكرهم . واستطاع بصورة أو بأخرى أن يصرع أيالداس (Ialdas) (٦٤) ، وتوسدروس (Tusdrus) (٦٥) وأركان (Arcan) (٦٦) ونادوس (Nados) (٦٧) فسقطوا جميعاً مضرّجين في دمائهم في نفس الوادي . ثم ثنّى بالفارس السريع (ايلان (Ilan) (٦٨) ثم طعن كونونيان (Conunian) (٦٩) المتغطرس برمحه وطرحه صريعاً فوق الرمال .

ولحق ريسيناريوس (Recinarius) (٧٠) الضاري بحامل لوائه فيتولوس (Vitulus) (٧١) وأجبره على أن يحمل لواءه وسط المغاربة . ثم أخذ يطير بجواده الى جانبه شاقاً طريقه بشجاعة وسط صفوف العدو المتراصة . ثم اندفع الى معسكرهم البدائي . وهنا أخذ جميع الجنود الشبان يتبعونه ، واستطاعوا أن يفتحوا ثغرات ينفذون منها وحاولوا مداهمة التحصينات . يا

---

(٥٨) ميستان (Mestan) : ليبي .

(٥٩) التيسيراس (Altiseras) : ليبي .

(٦٠) زامبراس (Zambras) : ليبي .

(٦١) روفّاس (Roffas) : ليبي .

(٦٢) أوثيما (Authima) : — ربما ليبي؟ ...

(٦٣) زيبير (Ziper) : روماني .

(٦٤) أيالداس (Ialdas) : ليبي .

(٦٥) توسدروس (Tusdrus) : ليبي .

(٦٦) آركان أو آراكان (Arcan أو Aracan) : ليبي .

(٦٧) نادوس (Nados) : ليبي .

(٦٨) ايلان (Ilan) : ليبي .

(٦٩) كونونيان (Conunian) : ليبي .

(٧٠) ريسيناريوس (Recinarius) : روماني .

(٧١) فيتولوس (Vitulus) : روماني .

٣٠٢ / ٣٢٣ للكرب الذي أشاعه ريسيناريوس (Recinarius) وهو يزحف على أسوار العدو، ويجندل رجالهم، ويعدّ العدّة لمداهمة المعسكر. ان هرقل نفسه، برغم بأسه الشديد، لم يهاجم بمثل هذه الصورة أسوار مدينة طروادة التعسة. عندما أخذ يسوق أمامه أهل طروادة وملكهم المذعور. فلقد أخذ (Recinarius) يتعقب رجالهم ويذبحهم. وقذف برمحه فأصاب صدر لانزوس (Lanzus)[٧٢] وقد بلغ به الغليان أشدّه وسط هذه المذبحة، وأطاح بسيفه برأس ماسجوين (Masguen)[٧٣]، ومن بعيد أصاب ناكوسان Nacusan[٧٤] برمحه الذي لا ينثني. ووسط الرمال صرع جواد ماكوراسين (Macurasen)[٧٥] بعد أن أصابه بجرح نافذ، فسقط وسحق راكبه بعد أن أطاح به. وتفجرت الدماء من عروق الجواد وأخذ وهو يحتضر يضرب الأرض بحوافره.

وكان سولاموث (Solamuth)[٧٦] الجسور قد هاجم صفوف العدو المتراصة، وصرع كولّين (Cullen)[٧٧] وأطاح بـ أوتونّجون (Iutungun)[٧٨] على الأرض وهو يركض لملاقاته. وتغلب على ميوزّين (Meuzzen)[٧٩] بعد أن قطع عنقه بسيفه، ثم اندفع للأمام وأطاح بـ (لالتين Laltin)[٨٠] من فوق جواده. وضرب سينيسجان (Sinisgan)[٨١] الشجاع ثم ثناه بـ (فارّينوس (Varrinus) الذي نجا من الموت. ذلك أن ضربة السيف شطرت ترسه وأصابته في راحة يده اليسرى ومزقت أعصاب رسغه، فلاذ بالفرار بعد أن غلب على أمره،

---

(٧٢) لانزوس (Lanzus) : ليبي.

(٧٣) ماسجوين (Masguens) : روماني.

(٧٤) ناكوسان (Nacusan) : ليبي.

(٧٥) ماكوراسين : (Macurasen) : ليبي.

(٧٦) سولاموث (Solamuth) : روماني.

(٧٧) كولين (Cullen) : ليبي.

(٧٨) أوتونجون (Iutungun) : ليبي.

(٧٩) ميوزين (Meuzzen) : ليبي.

(٨٠) لالتين (Laltin) : ليبي.

(٨١) سينسجان (Sinisgan) : ليبي.

• فارّينوس (Varrinus) : ليبي.

تاركاً ترسه يتدحرج بين الجنود. كان يركض رافعاً يده اليسرى المجروحة وأصابعه مخضبة ٣٢٤/٣٤٣ بالدم، وبقع الدم تلطخ آثار أقدامه. أما جيسيريث (Geisirith) [٨٢] فقد طوّح بعدوّه ميفوكيوس (Mificus) [٨٣] المتوحش، وهو يتأجج بنيران القتال فوق السهول، ثم طعن عدوه كريوكوس (Creucus) [٨٤] في صدره، في حين أصاب دوروتيس (Dorotis) [٨٥] غريمه انتيفان (Antifan) [٨٦] بسهم مجنح. وسرعان ما شد. البطل الجسور قوسه مرة أخرى وأطلق سهما أصاب ماجّيتي (Maggite) [٨٧] الجسور، فتعثر ثم هوى، إلا أن السهم استمر في انطلاقه وأصاب كومبروس (Cambrus) [٨٨] الباغي في صدغيه. وعندما سقط (Cambrus) التعيس الحظ مصاباً بجرح كان مقدراً أن يصيب غيره، قام بارسيبّا (Barsippa) [٨٩] بمهاجمة حامل السلاح المصاب، محتمياً بترسه، وقفز شاهراً رمحه. وبينا كان يتقافز بخفة وسط صفوف الأعداء، أصابه سهم مجنّح في معدته، وهوى الى الأرض في سقطة مدوية. وحينئذ أخذ جيسيريث (Geisirith) [٩٠] يتعقب بوليتزيس أكوم (Bulmitzis Acum) [٩١] وهو مندفع الى المعركة، وأصابه برمح من مسافة قصيرة. ثم هاجم مانوناسان (Manonsan) [٩٢] وصرعه بضربة سيف، فسقط البطل مضرّجاً في دمائه. ومات فاشينا (Vascina) [٩٣] بعد أن بترت ذراعه بضربة سيف من البطل الذي صرع بسيفه أيضاً كلاً من بوليتزيس (Bulmitzis) [٩٤] المتوحش، وتامازو الشجاع (Tamazu) [٩٥]، ثم ثنّى

---

(٨٢) جيسيريث (Geisirith) : روماني.

(٨٣) ميفوكيوس (Mificus) : ليبي.

(٨٤) كريوكس (Creucus) : ليبي.

(٨٥) دوروتيز (Dorotis) : روماني.

(٨٦) أنتيفان (Antifan) : ليبي.

(٨٧) ماجّيتي (Maggite) : ليبي.

(٨٨) كومبروس (Cambrus) : ليبي.

(٨٩) بارسيبّا (Barsippa) : ليبي.

(٩٠) جيسيريث (Geisirith) : روماني.

(٩١) بوليتزيس أكيوم (Bulmitzis Acum) : روماني.

(٩٢) مانوناسان (Manonasan) : ليبي.

(٩٣) فاشينا (Vascina) : ليبي.

(٩٤) بوليتزيس (Bulmitzis) : روماني. (٩٥) تامازو (Tamazu) : ليبي.

٣٤٤ / ٣٥٨ ب - (مارتزارا — (Martzara) [٩٦] الذي كان يعتز برمحه الصلب ، وكان محارباً عنيفاً ومريراً في قتاله . وقام جيرمانوس (Germanus) [٩٧] من جانبه بصدّ كل من آرزين (Arzen) [٩٨] ، وسالوسيني (Salusis) [٩٩] ، ومينيدين (Meniden) [١٠٠] ، ويوحنا (John) ، وميستان (Mestan) [١٠١] ، فوق الصخور ، فيما صرع آتين (Iten) [١٠٢] على يد تانالا (Tanala) [١٠٣] ، وقتل تيلين (Tilin) [١٠٤] ، بسهم أطلقه فيتاليس (Vitalis) [١٠٥] ، واستطاع فيسكولا (Fuscula) [١٠٦] أن يطيح بـ فريكتيس (Frectes) [١٠٧] القوي بعد أن أصابه بجرح .

وعند ذاك ، كانت روح الحرب الكئيبة تسود صفوف الرجال وتدفعهم ، من فرط الخوف ، الى الانسحاب الى المعسكر طلباً للأمان . وكان الجنود قد بدؤوا يعملون تقتيلاً في جنود المغاربة وسط قطعان الابل ويضغطون بشدة على الخنادق المحاصرة . وجرت اشتباكات في جميع الجوانب وتحولت الى معركة حامية الوطيس . واندفع الى أتون المعركة الجنود الشجعان من الرومان والمغاربة، المتمردون منهم والمسالمون على السواء . لم يكن الأخ يميّز أخاه والكل مغطى بطبقة كثيفة من الغبار . وما كان لصديق أن يلتمس صديقه أو لمواطن أن يتعرف على رفيقه من بني جلدته . فلقد أدت المصادمات العنيفة بين الصفوف المتحاربة الى اختلاطها

---

(٩٦) مارتزارا (Martzara) : ليبي .

(٩٧) جيرمانوس (Germanus) : روماني .

(٩٨) آرزين (Arzen) : ليبي .

(٩٩) سالوسيس (Salusis) : روماني .

(١٠٠) مينيدين (Meniden) : ليبي .

(١٠١) ميستان (Mestan) : ليبي حليف للرومان .

(١٠٢) آتين (Iten) : ليبي .

(١٠٣) تانالا (Tanala) : روماني .

(١٠٤) تيلين (Tilin) : ليبي .

(١٠٥) فيتاليس (Vitalus) : روماني .

(١٠٦) فيسكولا (Fiscula) : روماني .

(١٠٧) فريكتيس (Frecten) : ليبي .

في تلك المعركة الحامية ، فلم يعد من الممكن التمييز بينها ، وكانت صفوف الجند تندفع للمعركة ٣٥٩ /٣٨٩ صفاً بعد آخر بأسلحتها الكثيفة . ووسط ذلك الاضطراب والفوضى بفعل المعركة كانت حشود الرجال لا تفسح مجالاً لوحدات الجيش لكي تحرك قواتها . كانت الصدور ترتامى فوق الصدور والتروس فوق التروس . وكانت رؤوس الرجال الشجعان تتساقط وعليها خوذاتها . وقتذاك ، تلقى الأعداء ضربات موجعة بأسلحة لم يكونوا يرونها ، وكانت جثث القتلى تتكدّس فوق بعضها البعض في كومة هائلة . لقد لقي ألف رجل مصرعهم ، وكانت الدماء تسيل فوق الرمال وتتجمع في مجرى واحد أحمر تغوص فيه أقدام الجنود وتشكل خطاً طويلاً من آثار الأقدام الدموية .

ومع ذلك ، فقد أخذ آيرنا (Ierna) [١٠٨] يحضّ جنوده على دخول المعركة ، في حين كان أنتالاس (Antalas) [١٠٩] يتقدم بقواته . وأكره الجنود على ترك منطقة وسط المعسكر وحمل أسلحتهم والوقوف بها على طول الأسوار جميعها . كان جمعهم خليطاً من الشبان والشيوخ ، وأكره الرجال من جميع الأعمار على التجمع عند الخنادق المحاصرة ، بعد أن أجّجت الفوضى المتزايدة نيران الحرب . وغضب الرومان لهذه الفورة من الشجاعة التي تملّكت المغاربة . وكانت قبائل مازاكس (Mazax) [١١٠] الغادرة تحارب بالخديعة والغدر في جميع الجوانب . وكانوا قد شاهدوا الرومان وهم يشقون طريقهم الى المعسكر من خلال صفوف الجهال ، فنهضوا لوقف زحفهم ، فأخذوا يهاجمون بوحشية عدوهم المحصور ، ويطلقون سهامهم من مسافات قصيرة ويضربون الرجال بأسلحتهم المشرعة . وسرعان ما أعادوا تنظيم صفوفهم وتجاوزوا المتاريس والحواجز في محاولة لصدّ القوات الباسلة . ولم يقتصروا على استخدام النصال في إلحاق إصابات بليغة بالرجال أثناء تقدّمهم السريع ، بل أخذت الأحجار والكرات النارية والكتل الخشبية تتساقط من عل وتتناثر هنا وهناك . وأخذت الأحجار الضخمة المقطوعة من الجبل والأوتاد الكبيرة تتساقط فوق الخوذات والتروس ، وتهاوت الأجساد صريعة تحت ثقل تلك القذائف . وكانت المشاعل التي تتوهج بلهيب أحمر تبدو كالصاعقة والرجال يركضون بها هاربين من كلا الجانبين . إلا أن الجنود صمدوا في مواقعهم بكل ما لديهم من عزيمة ، وأخذوا

---

(١٠٨) آيرنا (Ierna) ج قائد ليبي . والرهب الأعلى للإله الليبي قرزل .

(١٠٩) أنتالاس (Antalas) : قائد ليبي .

(١١٠) مازاكس (Mazax) : قبيلة ليبية كبيرة حسب رأي كوريبوس .

٣٩٠ / ٤٢٣ يهاجمون معسكر الأعداء مدفوعين ببسالة قائدهم الذي لا يقهر ورغم ذلك، فقد استمر العدو في المقاومة وشنّ هجوماً على الرجال، واستطاع الليبيون أن يردوا جند الرومان وأن يستردوا خنادقهم. إلا أن القائد يوحنا (John) أخذ يحضّ رجاله على الصمود والثبات في أماكنهم بصوته الراعد. وألقى صوته المدوي الرعب في قلوب الأعداء وأوقعهم في اضطراب. لقد كان الأمر على تلك الصورة عندما أجّج جوبيتر (Japiter) [١١١] نيرانه الرهيبة. فعندئذ عندما اضطربت السماء، ألقى جوبيتر الرعب في قلوب أمم العالم كافة برعوده، وارتجفت قلوبها عندما تمزقت السحب. وهكذا، ملأ الرعب قلوب رجال قبائل مارماريكان (Marmarican) [١١٢] وأوقع الاضطراب بين صفوفهم عندما سمعوا صوت يوحنا (John) المدوي. وعم الخوف صفوف الرجال الذين كانوا يتقدمون، فأداروا ظهورهم للمعركة ولاذوا بالفرار، وتعقبتهم قوات الرومان وأخذت تطاردهم وتصرعهم في مواقعهم، وأخذت الأعداء تتساقط فوق بعضها البعض. وأصدر القائد أوامره لجنوده، وهو في نشوة النصر، باقتحام الخنادق، وأخذ يذكي حماسهم بهذه الكلمات: «— «... أيها الرفاق، لقد قهرتم العدو. عليكم الآن أن تدمروا هذه الحواجز التي استوليتم عليها بسهولة بسيوفكم، وأصرعوا هؤلاء الناس بنصالكم، انها لحظة الانتقام، وعليكم أن تباغتوا العدو والخوف القاتل يأخذ بتلابيبه ويدفعه للفرار، وتتملك بسالتكم العظيمة أرواحكم. الآن حان الوقت أيها الرجال للمطالبة بثار الحرب. قد تأملون في استلاب الغنائم بعد القضاء على العدو. ولكم كلّ الحق. وبأمر من هذه القيادة. وإذ آمر بهذا أتطلع الى عيني بيتر "Peter" العزيز وأتضرع إليه أن يحفظ عليّ حياتي، وأن يقيّض لي الاستيلاء على قلاع قرطاجنة كمنتصر، فنحن نمنح المعسكر بأكمله للجنود كثمن لما بذلوه من جهد. ولن أسمح لنفسي أو لأي قائد آخر بأن نشارك الرفاق غنائمهم. فليستولي الجنود على كل ما يدخل المتعة والبهجة الى نفوسهم، وليكافؤوا على أعمالهم الجسورة. تعالوا أيها الرجال ولا تأخذكم رأفة في قتل الرجال والحيوانات التي وضعوها في طريقنا، ومهدوا الطرق التي أقاموا عليها المتاريس، وشقّوا فيها طريقاً واسعة. لسوف أتقدمكم، حتى يحذو كل منكم حذوي فيما أفعله وهو على ثقة من نفسه وعمله». وبعد أن أنهى القائد خطابه، اتجه للمعسكر وكان أول من صرع جملاً ضخماً بسيفه، بعد أن أخذ يوجه ضربات سيفه الى عراقيب الجمل حيث مكمن قوته في أوتارها. ثم أخذ يضرب بسيفه

(١١١) جوبيتر (Jupiter): إله الرومان الأكبر.

(١١٢) مارماريكان (Marmarican): قبائل ليبية تسكن منطقة شرق ليبيا وبالذات ما يعرف حالياً بمرسي مطروح وما حولها.

عظام أرجله وكسر عظام مفاصل الفخذ فسلبه قوته . وهنا تراجع الجمل وهو الى الأرض ٤٥٦/٤٢٤ بصرخة مدوية وسحق تحت جسده المتهاوي اثنين من المغاربة ، كانا مختفيين وراء بطنه خوفاً من القائد. وعندما تهاوى هذا الحيوان الجيتولي (Iaetulian) الى الخلف أخذ معه الرجلين وسحقها تحت ثقل جسده الهائل. وفوقها أخذت تتساقط أحمال الجمل ، سرجه وأحجار طحن الحبوب . وعندما سقط الجمل انقطع الحبل الذي يربطه بالجمال الأخرى وأزيلت العقبة. وفجأة ، وقع المعسكر كله في فوضى واضطراب بعد أن تحطّم الحاجز بضربة واحدة. كان الأمر يبدو كما لو أن بناية كبيرة قد تداعت بعد أن أزيلت أعمدتها . فتهاوى هيكلها الضخم وتناثرت أحجاره فوق السهول الفسيحة .

وعلى الجانب الآخر، أخذ جينتيوس (Gentius)[١١٣] ورجاله يعملون أسلحتهم في صفوف الأعداء ويلقون بهم أرضاً ، ويوقعون الفوضى والاضطراب بين الجنود على الأسوار بالهجوم عليها في تشكيل محكّم. والى جانبه ، كان بوتزينتالوس (Putzintalus)[١١٤] ذو البأس ، يعمل سيفه في الأعداء هنا وهناك فتتناثر جثثهم . كان القائدان يركضان مثل أسدين جائعين يهاجمان قطعان الحيوانات ويوقعونها في اضطراب . هكذا كان كل منهما يواجه العدو ويهاجم الرجال بضربات سيفه . وفي نفس الوقت ، اندفع فرونيموث (Fronimuth)[١١٥] الذي لا يعرف الكلل شاقاً طريقه وسط صفوف الأعداء ومحرّكاً جميع قواته .

وكان مارسينتيوس (Marcentius)[١١٦] يتأجج حماسة وهو يضرب بأسلحته الماضية ، فيصرع الرجال وسط الخنادق ، وفي الوقت ذاته ، كان يوحنا يصول بسيفه البتار ويصرع جنود العدو في قطاع آخر. أما كوسينا (Cusina)[١١٧] الذي كان ينتمي للرومان مولداً وولاء ، فقد تخضّبت دروعه بدماء غزيرة وهو يصرع جنود المغاربة بمجموعات كثيفة من سهامه ويطيح بهم فوق السهول الفسيحة . وبسيفه البتار كان يبتر أذرعهم ويقطع أعناقهم وأوتار سيقان الكثير من الخيول. ولقد استطاع الكثير من المدافعين عن الشعب أن يقتحموا الخنادق في عدة

---

(١١٣) جينتيوس (Gentius) : روماني .

(١١٤) بوتزينتالوس (Putzintulus) : روماني .

(١١٥) فرونيموث (Fronimuth) : روماني .

(١١٦) مارسينتيوس (Marcentius) : روماني .

(١١٧) كوسينا (Cusina) : ليبي انضم للرومان ضد بني وطنه .

٤٥٧ / ٤٨٥ مواضيع . وكان تاراسيس (Tarasis) [١١٨] الطويل القامة يهاجم جنود الأعداء وسط الخنادق ، ويضرب صدورهم فتتفجر أحشاؤهم من بين ضلوعهم وتسبح في دمائهم الساخنة . أما أفيسداياس (Ifisdaias) [١١٩] الجسور ، العنيف بقوته الهائلة ، فقد أخذ يعمل القتل في صفوف الأعداء فوق الأرض العشبية ، فصرع الكثير من رجال قبائل سرت (Syrtic) بسلاحه المتوهج ، وكانت بسالة القائد قد أذكت روح القتال في نفوس رفاقهم في السلاح ، وبسيوفهم ، اقتحم الرجال صفوف الأعداء ، وأوقعوا الاضطراب في كل شيء ، وأخذوا يذبحون ويضربون وينهبون . واستطاع الرجال أن يتقدموا بعد أن غطوا المكان بالجثث المتناثرة هنا وهناك . كانوا يضربون بلا تمييز ، فلم ينج من سيوفهم شيخ أو امرأة . كان الجندي الروماني يصرع الجميع بلا استثناء . وارتفعت أصوات الأسلحة مجلجلة ورددت الجبال أصوات تحطم الدروع ، فيما غطيت السهول الفسيحة بأكوام من الجثث الهامدة التي بترت أطرافها ، وسقط أصحابها صرعى وهم يتأوهون . كان الأمر يبدو تماماً مثلما يحدث عندما كان عدد كبير من المزارعين يقومون بقطع شجرة بلوط ضخمة ، ثم يقومون بقطع أغصانها العارية ويتبارون في تقطيع أوصالها . وعلى طول المكان ، كانت الأيدي ترتفع بالرؤوس في ضربات متلاحقة وشديدة ، فيما تكون الغابة تئنّ وهي تردّد صدى الضربات . وعلى تلك الصورة ، اقتحم يوحنا (John) معسكر المغاربة مع رفاقه . في كل الجوانب كانت السيوف تومض وتضرب وتتخضب بلون الدم الأحمر . كان الرجال يجودون بأنفاسهم وهم يئنون من الجراح التي أصابتهم ، كان الشبان والشيوخ على السواء يترنحون ثم يهوون فوق الحقول ، وكانت الأمهات يسقطن مع أبنائهن وسط قطعان الجمال . وصرع الجنود بسيوفهم المتوهجة عدداً لا يحصى من رجال العدو ، وأتى الدمار الشامل على الكثيرين ممن كانوا يحتضرون . وكان الرجال يجرجرون النسوة الليبيات من شعورهنّ وهنّ مصابات بجروح بليغة . هنا ، كان أحد الجنود يسوق أمامه عدداً من الأطفال الذين انتزعهم من المعسكر ، ويسلمهم للحرس ، ثم يقفل عائداً الى وسط الخنادق وهو يدوس بقدميه جثث الموتى . وهناك ، كان ثمة جندي آخر ينشط في تمزيق القيود التي تربط الجمال ، في حين كان ثالث يسرق الماشية ، ورابع يعود بغنيمته من الأغنام المنهوبة ، فيما كان جندي آخر يدفع أمامه الحمير البطيئة الحركة بمؤخرة حربته . وعندئذ كان الجميع قد فنوا عن آخرهم ، ولم يكن هناك أثر لقطعان ماشية المغاربة .

---

(١١٨) تاراسيس (Tarasis) : روماني .

(١١٩) أفيسداياس (Ifisdaias) : ليبي .

أما فرسان العدو ، فقد أخذوا يركضون بجيادهم فوق السهول المكشوفة ، وحدهم وبلا ٥٣١/٤٨٦
حماية . وهرب آيرنا (Ierana)(١٢٠) المتوحش بعد أن تحطمت قوته ، حاملاً معه صورة معبوده
جورزيل (Jurzil)(١٢١) آملاً أن يسبغ عليه حمايته . كان البطل التعيس الحظ قد أثقل كاهل
جواده بحمل مضاعف ، فعاقه عن الحركة ، وجلب المسكين على نفسه الموت بيديه . أيها
الغبي ، أيّاً كان هذا الذي تعبده ، أية حماية أسبغها على قومك ، وأي عزاء أو سلوى يمنحك
إياها وأنت تسقط ميتاً ، وهو يسحق على يد الأعداء ويخبو لمعان معدنه وسط لهيب
النيران ؟ .

كانت صفوف قبائل لواتة التي تعقبها الجيش بأسلحته الماضية ، وسقط منها الكثير من
القتلى هنا وهناك ، قد عمدت الى الفرار عبر السهول الواسعة . ولم يكن أحد من الهاربين
بقادر على التصدي لمطارديه الرومان والاشتباك معهم ، أو حتى على الالتفات للخلف . واذ
كان الهاربون مدفوعين بما اعتراهم من الذعر الشديد ، فقد أخذوا يلقون بسيوفهم بعيداً
ويتساقطون على رؤوسهم . وهكذا استطاع الجنود الأشاوس أن يسوقوهم الى حتفهم بسهولة
وهم يرتجفون . وعاد الرجال بألوية سليمان (Solomon)(١٢٢) القديمة ، وتلك الألوية التي استولى عليها
ايرنا (Ierana)(١٢٣). وكانت الجثث البشعة ممدة وهي متناثرة فوق جميع السهول ، وفوق الوديان
والصخور . وعندئذ كانت الأنهار مليئة بأكوام من جثث الرجال ، وكانت الخيول تطأ جثث
الموتى فتخضب حوافرها الدماء النازفة من الأطراف المبتورة . كان الجرحى يئنون في تعاسة فيما
كان دمهم يسيل فوق الحشائش . كانت الدماء التي تخثرت فوق النصال تعمل على تثبيتها في
أيدي الرجال . كان كلّ سلاح مخضباً باللون الأحمر . وأخيراً سقط القائد الرئيس ايرنا (Ierna)
وسط آلاف من القتلى . وتمدد على الرمال جسد الرجل الذي كان يوماً ما ملكاً للشعب
المارماريكي (Marmaricans)(١٢٤) وكان معروفاً بتوحّشه وغطرسته ، جريحاً . وقد نال
جزاءه العادل .

(١٢٠) آيرنا (Ierna) : راهب ليبي.

(١٢١) جوزيل (Gurzil) : إله ليبي.

(١٢٢) سولومون (Solomon): قائد روماني أخذه ألويته في معارك سابقة.

(١٢٣) آيرنا (Ierna) : راهب وقائد ليبي.

(١٢٤) مارماريكانس (Marmaricans) : منطقة بها قبائل ليبية تقع حول وغرب ما يعرف الآن بمرسي مطروح.



٥٢٢ / ٥٢٧ لقد كان مقيضاً لذلك اليوم أن يكون آخر أيام القبائل جميعها ، لو أن الشمس تأخرت في غروبها ، كما حدث من قبل . ولكن الشمس ، حاملة اللهيب ، والتي تغرب طبقاً لدورتها التي لا تتبدل أو تتغير ، غاصت في أمواج البحر الغربية ، وحجبت الظلال التي نشأت عن رحيلها صورة القبائل الهاربة والحرب ، وجعلت كتائب الجنود الشجعان تعود الى المعسكر .



الكتاب السادس

١٤ / ١ في تلك الليلة المشهورة ، لم يكنّ جميع الرومان المنتصرين الى الراحة في وقت واحد إذ ظل بعضهم يتناوب حراسة المعسكر ، لا يطرف لهم جفن ، ويحرسون الغنائم الثمينة التي حصلوا عليها . كانت الأفكار البهيجة تراود عقولهم اليقظة ، ولم يدبّ الكسل أو الخور في أوصال الجنود المنتصرين بعد المعركة . فقد شدّد الإنتصار من عزائمهم وقوّى أعصابهم بعد أن أرهقتها المعركة ، كما أن الأمل المتزايد في نصيب من الغنائم التي غنموها أعادت اليهم شجاعتهم ، وارتفعت أرواحهم المعنوية بالوعود التي بذلها لهم قائدهم الذي يثقون به .

وفي تلك الأثناء ، كانت صفوف المغاربة تمضي هاربة تحت جنح الظلام عبر الأراضي القاحلة المهجورة وتتفرق أيدي سبأ من الرعب والفزع . لقد كان الليل خير عون لهم ، كما أن الليل سبّب لهم الازعاج والارهاق كذلك . ذلك أنه بعد أن أخفى كل شيء في ظلامه ، وأنقذ

١٤ / ٤٩ جميع الرجال من الوقوع في براثن جهنم، تسبب في تشتت الرجال بعد أن عمت الفوضى صفوفهم بسبب الغموض الذي يحيط بالحرب. كانوا يهيمون في فزع على الرغم من أن أحداً لم يكن يتعقبهم وإذا كانوا يرتجفون ذعراً. كانوا يتوهمون أن أفراد قبائلهم وأصوات رفاقهم من العدو، ووسط ذلك الاضطراب كانوا يلهبون ظهور جيادهم بالسياط. ورددت الجبال في هدأة الليل أصوات سياطهم وأصوات حوافر الخيل وهي تضرب الأرض الصلبة. فتثير الخوف في صفوف حلفائهم.

ومع مقدم يوم جديد، بزغت الشمس من البحر لتقوم بدورتها وتمضي في مسارها. وأخذ البحر يرغى ويزبد تحت وقع جيادها اللاهثة. وأخذت مياه الأعماق تسخن، وتفور أمواج البحر المتصاعدة وتطلق النار المقدّسة. وبتديّنه المعروف، كان القائد أول من نهض شاكراً الرب في سعادة عابداً رب الفضيلة وشاكراً له أنعمه. وبعدئذ أخذ صفوة القادة والمدافعين عن الشعب الشجعان وكبار الضباط يصلون تباعاً. وكان القائد أول من تكلم وهو يتوسطهم. فقال: «يا لها من أمة صلبة تلك التي جثت تحت أقدامكم أيها الرفاق... لم أر في أي مكان آخر، حتى ولا في فارس الهمجية، أناساً مستعدين للموت عن طيب خاطر، ويقدمون رقابهم للذبح وللاصطدام بالعدو مثل هؤلاء الناس. لطالما أجبرتهم على أن يولوا الأدبار هاربين، ولطالما عادوا بلا خوف ولا وجل، بأصواتهم المدوية وقفزاتهم الهمجية. ومع ذلك، فقد تراجعوا بعد أن قهرهم انضباط قواتنا وقوة الهنا. لقد قرّرت أن أحمي البلاد الليبية بوضع الحرس المعتاد، وأن أسارع باستعادة الحكم السعيد لهذه البلاد. فعليكم أن تسارعوا بقيادة جنودكم لمواقعهم المناسبة، وتحصين مواقعكم، أحيطوا بالجبال العالية والكهوف الفسيحة والبساتين ومجاري المياه والغابات ومداخلها. ثم احصروا هؤلاء القوم بين هذه البراثن بكل حذر وحيطة. ولسوف يهلك شعب مازاكس (Mazax)[1] الشرير جوعاً خلال فترة وجيزة ويفنى عن بكرة أبيه. فعندئذ يعجزون بقوتهم الواهنة عن سلب ونهب البيوت في البلاد. فلما أنهم سيستسلمون لنا ويسعون الى الصلح معنا أو أن يلوذوا بالفرار الى بلاد بعيدة من بلاد العالم ويرحلون عن مناطقنا. وللقائدين المسؤولين عن: بايزاكيوم (Byzacium)[2] أن يجعلا

(١) مازاكس (Mazax أو Mazices): تسكن شرقي قبائل الأوستوريان، أي جنوب شرق منطقة سرت و يقصد به الشاعر هنا تجمع الليبيين عموماً.

(٢) بيزاكيوم (Byzacium): ولاية رومانية تضم معظم تونس الحالية وبعض مناطق ليبيا الغربية.

همّها الأكبر إيقاع الفوضى والاضطراب في صفوف قبائل ماسّيليان (Massylian) [٣] ٥٠ / ٨٢
بملاحقتها على الدوام، ومهاجمة كتائبهم التعسة بسيوفهم، وطرد العدو بعيداً عن أراضينا».

وبعد أن انتهى القائد من خطابه، وافق الجميع على تنفيذ أوامره، وتم توزيع الجيش الظافر على وحدات اتجهت كل منها الى حصنها، وزحف الجيش الى المدن والحصون وجميع أقاليم البلاد. وأخيراً تيقن لأفريقيا التعسة أن تنزع عن نفسها أثواب الحزن وأن تغنّي مشيدة بالنصر الذي أحرزه البطل الجليل يوحنا (John) [٤] وأعربت قرطاجنّة السعيدة لجرستنيان (Justinian) [٥] عن تقديرها للقائد بالتصفيق المتواصل واستقبلته بالأحضان. وأشرعت البوابات بعد أن ظلّت مغلقة لمدة طويلة ودخل القائد المنتصر الى وسط المدينة وسط فرحة الناس، وجاءه الزعماء السيدونيون (Sidonian) [٦] بسعف النخيل وأكاليل الغار، وتجمع حشد كبير من الناس جاء من جميع الأنحاء في انتظار وصول الجيش اللّاتيني. كان بينهم شيوخ ضعفاء وفتيات خجلات، جاؤوا جميعاً تحذوهم رغبة في رؤية الجيش المنتصر. ووقفت النسوة من الرئيسات على طول الأسوار يرقبن المنظر وهن يتصايحن ابتهاجاً بمختلف الأصوات. فلقد تأثرت أرواحهم جميعاً بتلك الحرب الطويلة المريرة. وكانت النسوة يذكرن بحزن ما مرّ بهن من مآسي سابقة ويروين قصص تلك الأفعال الشريرة التي أتاها الطاغية المتوحش، كيف أنه أقدم على نقض المعاهدة وفتح البوابات واحدة تلو الأخرى أمام بقية القبائل، وكيف أنه خان المدينة التعسة عن قصد وعمد. وكيف أوقع بها الفوضى والاضطراب والمذابح التي أقامها. ولذلك فقد أخذ الصبية والكبار والشبان والزعماء ينشدون باسم الأمبراطور تحية القائد وقلوبهم مليئة بالبهجة والسعادة. كان الجميع من جميع الأعمار مذهولين من منظر ألوية الحرب وملابس الجنود التي كانت مغطاة بالتراب والرجال الذين كانوا بسمات مفزعة صنعتها تلك المذبحة الفظيعة. كان الجميع ينظرون الى دروع الجنود وخوذاتهم وتروسهم وسيوفهم المخيفة وأحزمتهم وأعنة جيادهم والريش الذي يزيّن الخوذات والأقواس وجعبات السهام والرماح ذات النصال الحادة التي كانت مخضبة بدماء قبائل ماسّيليان

(٣) ماسيليان (Massylian) : قبائل ليبية.
(٤) يوحنا(John) : قائد الحملة البيزنطية.
(٥) جوستينيان (Justinian) : امبراطور روما البيزنطية وقت الحملة.
(٦) سيدونيان (Sidonian) : يعني شكان قرطاجة لأن أصلهم من فينيقيا.



٨٣ / ٩٥

وفرحوا كثيراً لمنظر الأسيرات من النسوة الليبيات وهن يسرن (Massylian) (٧) أمامهم ، وأخذوا كيف كانت هؤلاء النسوة يجلسن غير وجلات فوق جمالهن العالية ، وكيف كان البعض منهن يحضن أطفالهن تحت صدورهن ، وكيف كان البعض الآخر يمسكن بكلتا أيديهن بمتاعهن ومهاد أطفالهن الصغيرة . واأسفاه أيتها النسوة التاعسات .. لقد كنّ يكدحن وعلى وجوههن سيماء الأسى والحزن وقلوبهن تئن . كنّ عندئذ على استعداد لأن يكنّ في خدمة الأمهات الأفريقيات التعسات ، بعد أن طعّم الحزن قلوبهن الشريرة .

لقد كنّ يشعرن بالخزي لما كان يملأ قلوبهن من شر ، وأدركن أن عليهن أن يحذرن من الحرب ويتجنبنها . كنّ يلعن حظهن التعس وآلهتهن . ولم تكن جميع النسوة الأسيرات من لون واحد ، فهناك كانت تجلس امرأة كريهة المنظر ، لونها أسود كلون أطفالها ، لقد كانوا يشبهون الغربان الصغار الذين يتحول لون ريشهم الى اللون الأسود وأمهم تجلس من فوقهم تلقّم

(٧) ماسيليان Massylian : القبائل الليبية المحاربة .

الطعام المعتاد لأفواههم المفتوحة وتحتضنهم في حنان وحب وجناحاها ممدودان. وفيما كان الآباء ٩٦ / ١٢٦ والأمهات يتطلعون بوجوههم الكريهة نحو أطفالهم ، كان القائد ذو النفس الكبيرة يدلف الى المعبد بألويته ، وأخذ القائد يصلي لرب السماوات والأرض والبحار ويقدم اليه الهدايا التي قام الكاهن الأكبر بوضعها في مكانها المعتاد على المذبح ، ويصلي من أجل عودة القائد وهزيمة الأعداء. ثم قام الأب الكاهن بتكريس العطايا لخدمة المسيح.

وفي تلك الأثناء ، كان القائد القادم من سرت (Syrtic) [٨] كاركاسان (Carcasan) [٩] يجمع صفوفه التي تفرقت رعباً من جميع المناطق ، وخاطبهم والدموع تبلل عينيه قائلاً في حزن: «أيتها القبائل التي لا تهزم ، لم أكن آمل أن أرى الليبيين على هذه الصورة من القهر. إن قبائل لواتة (Ilasguas) [١٠] التي لم تهزم أبداً ، فقدت كل شيء الآن ، وعادت مهزومة. لقد فقدنا أمهاتنا وزوجاتنا وصغارنا معاً. فماذا يبقى للرجال في نهاية الأمر سوى الموت وحده؟ ما الذي يمكن أن يرضينا الآن؟ أن نقف بلا مبالاة؟ أم يرضيكم أن تتحدّوا بالقتال والسلاح أسلحة هؤلاء الرجال الأشدّاء؟ لقد كانت سقطة حقيرة وتعسة عندما هزمنا مرة ، وعندما استسلمنا. إن العون الذي قدمته لنا آلهتنا لم يتبدد كله فوق هذه الحقول. ليست هذه مشيئة آمون (Ammon) [١١] ولا مشيئة قورزيل (Gurzil) [١٢] الذي يندب قدسيته التي انتهكت. إن القدر الذي أراد أن يحفظ رجالنا لا يمكن أن يهددنا على هذه الصورة. أنظروا كم عدد الرجال الذين سقطوا ، أن الأمر ليس أكثر من ملء جرة من مياه المحيط ، فهل ينتقص ذلك من الهة البحر ثيتيس (Thetis) [١٣] أو يشعرها بخسارة؟ كذلك فإن الكثير من النجوم تهوي وينطفىء لهيبها ، ومع ذلك ، فإن السماوات المليئة بالأجرام تظل فيها نجومها كاملة على الدوام. ويمثل هذه الصورة تنزل الفجيعة بأمتنا ، وأمتنا ذات البسالة العظيمة لا تحسّ بهذه الفجيعة إلّا فيما ندر. والآن خذوا بنصيحتي وأعملوا بسرعة على مد يد العون لمملكتكم».

(٨) (Syrtic) : منطقة سرت.

(٩) كاركاسان (Carcasan) : اسم القائد الليبي الذي تزعم التحالف.

(١٠) (Ilasguas) : قبائل لواتة.

(١١) آمون (Ammon) : اله سيوة يعبده الليبيون.

(١٢) قورزيل (Gurzil) : اله ليبي.

(١٣) ثيتيس (Thetis) : احدى عرائس البحر تزوجت بيليوس فولد لها اخيليس

١٢٧ / ١٥٦ وعندما استمع بروتين (Bruten)[١٤] لهذا الكلام أخذ عقله الهمجي يدوي بصوت الحرب وقال مخاطباً قائده : «أيها الأب ذو البأس يمكنك أن تسترد زوجاتنا وأطفالنا عندما نجدد هذه الحرب بنضالنا وكفاحنا . في يقيني أنه ينبغي علينا أن نبذل أرواحنا وأن تكون نهايتنا في الحرب . كيف ستكون سمعتنا بين أهل قبيلتنا إذا لم نثأر للاهانة التي لحقت بنا من جرّاء هذه المذبحة ، وعندما تروي للعالم بأسره من الأفضل لنا لو أتى الموت على قبيلتنا بأكملها وابتلعها فجأة في أعماق الأرض . فلتمتد الينا براثن تارتاروس (Tartarus)[١٥] ولتصطبغ بيوتنا بشحوب الموت . ولتبق بروسيربينا (Proserpina)[١٦] على مملكتها بعد أن حرمت من أبيها بسبب حروب زوجها الأسود . إن لديكم المقاتلين ، ولديكم السلاح ، فانهضوا للحرب ، وإنني سأقودكم وأبذل حياتي متأثراً بالجراح ، ولكن بلا ملامة . هنا يكون الخلاص الذي لن يخذل . إنكم فخر قبيلتنا ورمز بسالتنا ، وأنتم الأمل الأكبر لليبيين» .

لم يكد بروتين(Bruten) ينهي كلامه حتى ردّوا عليه جميعاً في صوت واحد . وأخذوا يردّدون اسم القائد كاركاسان (Carcasan) في صوت كالزئير ، ويعلنون بقلوبهم وألسنتهم أن كاركاسان (Carcasan) هو القائد الأوحد لقبيلتهم .

وعندما رأى القائد أن الثورة التي أشعلها في قلوب الرجال قد تعاظمت ، وتعاظم معها رغبتهم المجنونة في شنّ حرب جنونية ، توجه الى أرض (Marmaricans)[١٧] حيث مقر الإله آمون (Ammon)[١٨] ذو القرون ، وطلب مشورة جوبتير (Jupiter)[١٩] القاسي الجنان . أيها الأحمق أن جوبتير هذا الذي تستشيره مخادع يفرح دوماً بخداع العقول الشريرة . إنّه مخيف كما تعلمون ، ويسعد برؤية الدماء ويسعى الى تدمير الأمم جميعاً . وعندما هوى ثور متوحش بعد أن أصيبت جبهته بضربة فأس ، أمسكت الكاهنة الكئيبة عن دفنها الصاخب ، ثم أخذت تصرخ بجنون وتدور وتتقافز حول المذبح . عروق عنقها كانت تنبض بشدة وكانت عيناها

---

(١٤) بروتين (Bruten) : ليبي .

(١٥) تارتاروس (Tartarus) : العالم السفلي في الأسطورة اليونانية (الموت) .

(١٦) بروسيربينا أو بيرسيفون (Persephone) أو(Proserpina): ابنة الالهة ديميتر الهة الأرض . تزوجت هيدس (Hades) اله العالم السفلي الذي تقضي معه نصف سنة ونصفها الآخر تقضيه مع والدتها على الأرض .

(١٧) مارماريكانس (Marmarican) : منطقة شرق ليبيا .

(١٨) آمون (Ammon) يعني سيوة التي كانت ضمن منطقة المارماريكاي وبها معبد آمون الرسمي كما يقول الشاعر .

(١٩) جوبتير (Jupiter) : كبير آلهة الرومان .

١٥٧/ ١٨٢ تقدحان الشرر ، وكان شعرها يقف منتصباً فوق رأسها وتخضب وجهها باللون الأحمر وعرته سخونة ، وكان ذلك دليلاً على وجود الرب . وعندئذ كانت وجنتاها شاحبتين ، وأخذت عيناها تدوران في محجريهما ، وأخذ رأسها يدور ، ثم أخذت تصرخ بصوت مدوّ وهي تجمع النيران الشريرة . ولكنها عندما أحست بأن القوة القدسية تسيطر على صدرها كله ، أخذت تحدق في القمر الذي كان ينتصب عالياً في السماء المظلمة ويرسل بضوئه الدموي ، ثم ، بعد أن استعرضت الأقدار والحظوظ أخذت تتصرف على أساسها . لقد كانت تتأجج انفعالاً وثورة ، فكانت تلهث ويشحب لونها ، ثم تحمر وجنتاها ثم ترغي وتزبد وينتفض جسدها ، فما كانت تسعى وراء النبوءة ، وأخيراً ، بدأت شفتاها المتوحشتان تلفظان بصوت كريه بأسرار الأقدار والحظوظ كي يسمعها الجميع : « في حرب مريرة ستوقع قبائل لواتة (Languantans)[٢٠] المنتصرة قوات اللاتين في فوضى واضطراب . ولسوف تحتفظ قبائل مازاكس (Mazax)[٢١] للأبد بحقول بيزاكيوم (Byzacium)[٢٢] بقوتها العظيمة . ثم سيكون هناك سلام يحمل الرخاء بين طياته ، كما أن القائد كاركاسان (Carcasan) سوف يدخل قلعة قرطاجنة الشامخة من خلال بواباتها المشرّعة ، سيقود رجاله الى وسط المدينة . ولسوف تصيب الدهشة الأفارقة عندما يرون وجوه الرجال المرعبة . ولسوف يهرعون لدى وصول القائد لتقديم سعف النخيل وأكاليل الغار . ولسوف يطلق الناس اسم المدينة السعيدة على قرطاجنة . إن خشية كاركاسان (Carcasan)[٢٣] ستجبر هذه الأمم الشريرة على الركوع ، وسيؤثرون عندها عقد معاهدات سلام معه » .

وفيما كانت الكاهنة تردد تلك النبوءات ، أوقفت الروح الشرير الكلام في حلقها وجعلته يخرج في اضطراب . وبذا انخدعت تلك العقول التعسة . فبمثل تلك الخدع كان الرب آمون (Ammon) المزيف يخدع شعب الماسيليان (Massylian) ذلك أنه عندما كان ينطق بالصدق ، كان يغلف كلامه بالإبهام ويجهز مكائده . إن الليبيين كانوا يسيطرون على أراضي ...

---

(٢٠) (Languantans) : قبائل لواتة .

(٢١) مازاكس (Mazax) قبائل ليبية تؤكد لها البراهين هنا بأنها ستحتفظ بمنطقة بيزاكيوم الى الأبد ممّا قد يشير لأماكن تواجد القبيلة في المناطق المحيطة بيزاكيوم .

(٢٢) (Carcasan) : ولاية رومانية بأفريقيا .

(٢٣) كاركاسان (Carcasan) : قائد التجمع الليبي الذي تنبأ له الراهب بأنه سيحتل قرطاجة كما تنبأت للمازاكس بأنهم سيحتلون بيزاكيوم .

١٨٣ / ١٩٦



بيزاكيوم (Byzacium) على الدوام ، والواقع أنهم سيظلون محتفظين بهذه الأرض بعظامهم التي حطمتها قوة يوحنا (John) الهائلة . والواقع أن القائد كاركاسان (Carcasan) الطويل القامة قد دخل المدينة من خلال قلعة قرطاجنة الشامخة مع رجاله ولكن بعد أن جزت رقبته ، شاهدت أفريقيا رأسه مثبتاً فوق عمود صلب .

إلّا أن القائد الضعيف العقل صدق بهذه النبوءات الشريرة وأخذ يعدّ العدة لشن حرب فظيعة ، وسرعان ما انتشرت الإشاعة هنا وهناك بين الناس جميعاً ، تبلغ النبوءة التي تنبأ بها آمون (Ammon) وبدأت كوكبات الفرسان السريعة تندفع منطلقة من منطقة سرت (Syrtes) الحارة ، وتدعو القبائل المتوحشة للإنضمام اليها ، بدعوى حكم البلاد . وتجمع حشد كبير من الليبيين معززاً بالرجال والسلاح . واندفع الفرسان والمشاة للإنضمام إليهم ، كما انضم اليهم هؤلاء الذين يركبون الجمال على طريقة الليبيين ، ولم يقتصر التجمّع على قبائل لواتة (Illasguas)



وتلك القبائل[٢٤] التي اشتركت في الحرب سابقاً بل انضم اليهم كذلك مزارعو الناسامون (Nasamo nians)[٢٥] المعروفون بخشونتهم والذين كانوا يحرثون حقول سرت (Syrte) وكل من كان يفلح أرض جرمة (Garamantidean)[٢٦] ويشرب من تلك البرك التي تقع على ضفاف نهر النيل. من كان يستطيع حينذاك أن يعرف أسماء القبائل أو أعدادها؟.. لو أنك استطعت أن تعد أمواج البحر أو قطرات الماء من السحب أو حبّات الرمل على شاطىء البحر أو أسماك المحيط أو الطيور التي تعيش على الأرض برمتها، لكان في مقدورك أن تفعل، ذلك لأنهم كانوا

(٢٤) آمون (Ammon) : اله سيوة.

(٢٥) ناساموتيان (Nassamonians) : قبائل ليبية بمنطقة سرت تشتغل بالزراعة كما يذكر الشاعر.

(٢٦) (Garamantidean) : مناطق سكنى الجرمنت بفزان وتمتد حتى قرب مناطق غرب النيل كما يذكر الشاعر.

٢٠٤ / ٢٣٩ في كثرة سيقان النباتات التي تخرج من الأرض مع مقدم الربيع ، أو في كثرة عدد النجوم التي ترصع السماء ، عندئذ أخذ قائد الحرب ، بعد أن ظنّ أنه آمن وقوّى برجاله ، في اصلاح الألوية ، وترميم تماثيل الآلهة ، ثم بدأ يحرّك صفوفه بعيداً عن الشواطىء النائية ، في حماسة تفوق حماسته العادية ، وأخذ يتقدم من العدو مثل (أنتاياس – Antaeas) ، الذي كان يلقى الهزيمة غالباً على أيدي جيوش هرقل . ذلك أنه بعد أن أسقط نفسه عمداً ، كان يرجو أن يريح جسده المكدود فوق الرمال ، إلّا أن المنتصر ، (تيرينثيان — Tirynthian) فطن الى تلك الحيلة ، وأمسك بخصمه بكل ما فيه من قوة وطرحه أرضاً بعد أن جثم عليه بثقل جسده واعتصر عنقه الشرير بين يديه ، حتى لا يتمكن من أن يلمس أمة الأرض ، فداهمه الموت وألق عينيه التعيستين . وهكذا فإن كاركاسان (Carcasan) ، رغم هزيمته ، استطاع أن يجدد قواه التي استمدّها من شعبه بسرت (Syrte) وأعدّ أسلحته وجيوشه للحرب وهو غافل عن أنه على وشك أن يموت . وفي نفس الوقت استردّ الرجال شجاعتهم ، وزايلتهم مخاوف الحرب المرعبة وأخطار الليلة الحالكة السواد . . .

والآن انظروا ثمة رسالة بعث بها القائد العظيم روفيناس (Rufinas) [٢٧] وعلى أثرها دبّ الرعب في قلوب المدن الليبية الآمنة بعد أن سرت اشاعات بأن القوات المقهورة قد عادت للحرب مرّة أخرى ، وأن قوات فرسانهم تزحف قادمة من الغرب ، وتحمل السلب والنهب والتدمير في بيوت طرابلس ، وإن القبائل الهمجية بقيادة كاركاسان (Carcasan) تتقدّم نحو أسوار قرطاجنة الشامخة ، على أمل أن يحولوا بلادهم الى أمبراطورية . وكان الجندي الذي حمل الرسالة للقائد قد وصل لتوه الى بلاط قرطاجنة . وانتابه غضب مرير وهو يقدم تقريره للقائد ، إلّا أن رجاحة عقله وحكمته تغلبا على اندفاع حماسته التي لا تقهر ، فالتمس القائد المشورة . لقد أغلق قلبه على همومه ولم يدعها تصرفه عن غايته . واستطاع عقله الراجح أن يعلو على تلك الهموم ، فأخذ يزن الموقف بحصافة ، بعد أن تكشفت جميع الأمور أمامه ، وأدرك ما يكتنفه من أخطار من جميع الجهات . ثم استدعى معاونيه ، على مأثور عادته ، وطلب مشورتهم ، وأفضى لهم بما يدور في خلده وبهمومه بهذه الكلمات : «أيها الرفاق ، إن قبائل لواتة (Illasguas) [٢٨] التي هزمتها ، ولا بدّ أن توقعوا بها الهزيمة مرة أخرى ، قد أعلنت الحرب

(٢٧) روفيناس (Rufinas) : قائد روماني .

(٢٨) Ilasguas) : لواتة .

علينا كرة أخرى ، وبعد أن تجاسروا على الصدام مع الألوية التي واجهونا من قبل ، أخذوا الآن ٢٤٠ /٢٧٣ يداهمون حقول طرابلس ويدمرونها ويسرقون ما نهبه المتمردون ويهددون بالزحف على أرضنا . إنني أعد العدة لتحريك ألويتنا ، والخروج لملاقاة هذه القبائل الكثيرة العدد ، لأنني أرغب في الاشتراك في المعركة في أرض أجنبية وأن أوقع الهزيمة بالعدو بعيداً بعيداً عن حقولنا ، حتى لا تلقى افريقيا مزيداً من الهلاك بعد أن تتعرض للخراب والدمار مرة أخرى . إن تكاليف الحرب وهذه الأماكن بطرقاتها التي تفتقر الى المسالك والدروب ، تصيب عقلي باضطراب . إن موسم الجفاف على وشك المجيء كما أن الاقليم نفسه قد فقد الكثير من موارده في الحرب وهو الآن ، وأسفاه ، أضعف من أن يتحمل المزيد من الدمار . إن جيشنا الهائل لن يتحمل كارثة المجاعة . فلو أننا سمحنا للعدو بالوصول حتى الى أبعد مناطق بيزاكيوم (Byzacium) [٢٩] فسوف يزحفون على بقية المناطق بسرعة ويدمرون كل شيء بالسلب والنهب . وعندئذ تقع هذه الأرض المكدودة في الفوضى والاضطراب مرة أخرى . فكروا في هذا الأمر واجعلوا نحزم أمرنا بعد الشك والغموض » .

ولم يكد القائد ينتهي من كلامه ، حتى قرر الجميع الخروج في تلك الرحلة الطويلة البعيدة ، وأكدوا أن باستطاعتهم تحمّل الحرارة الشديدة في ليبيا . وأكد الجمع الحاشد برمته على أنهم سيستخدمون أيديهم وعقولهم في سبيل ذلك الأمر ، وأعربوا عن استعدادهم لبذل كل ما يطيقونه في سبيل بلادهم ، فلقد كانوا يحتقرون القبائل المتمردة ، وتحدوهم رغبة عارمة في القتال .

وعندما وجد القائد أن قواته تتأجج حماسة وشجاعة ، وأنها أكدت عدم خشيتها من الحرب ، أمر القيادة بتحريك الألوية وهنا أخذ بوق الحرب يدوّي بأنغامه القوية الخشنة ويحرك القوات المسلحة . وخرجت جميع كوكبات الفرسان وقوات المشاة من مراكزها ، ومعها القادة اللاتين ومساعدوهم وتجمعت عند القيادة . وجاء القائد كوسينا (Cusina) الذي ظل على ولائه للقوات الرومانية ، على رأس قوات الماسيليان (Massylian) لدخول الحرب . وتقدم القائد الجسور صوب الجنوب ، حيث تحترق الأرض الواقعة أسفل مدار السرطان ، بلهيب الشمس الحارقة ، وتمسك بخناق الأرض الجرداء الجافة . لقد كانت تلك الأرض تعاني من الريح الغربية وتحترق من العطش . كانت الريح الافريقية تشوي الأرض

(٢٩) بيزاكيوم (Byzacium) : ولاية رومانية بأفريقيا .

٢٧٤ / ٣٠٤ كلها بعواصفها الملتهبة ، وهناك كان الإنسان الأفريقي يضرب على غير هدى فوق الرمال الساخنة والعطش يكاد أن يقتله ، ويبحث في يأس حتى عن مياه الجحيم (Stygian) [٣٠]

وعندئذ سرت إشاعة ، ترددت بجميع الألسن ، بأن القائد الجسور يوحنا (John) يزحف ببراعة بجميع قادته ، لقد أخذ الشر طريقه لشعب لواتة (Languatan) [٣١] ، عندما أخذ الفرسان الأشرار والناهبون السالبون في تخريب أرض بيزاكيوم (Byzacium) .

وأوقعت الإشاعة الذعر في قلبه ، خاصة وهي تحمل اسم القائد العظيم يوحنا(John) فبدأ يتحول بقواته التي لا حصر لها ، إلى المؤخرة . ولقد جعلهم الخوف يتوهمون أن القائد على قيد خطوات منهم . وأخذتهم الرجفة عندما استعادوا ذكرى هزائمهم المريرة السابقة . فقد أخذوا يتذكرون الوجوه الصارمة وجميع ألوية البطل . ولم يترددوا في تجاوز أرض إيادايا (Iadaia) المحروقة والأماكن الأخرى المهلكة التي تخلوا من المسالك ولا سبيل للحياة فيها . فما من طير يحلّق أو يرفرف بجناحه في تلك المناطق ذات الهواء الساخن . بل إن حامل أسلحة جوبيتر (Jupiter) نفسه ، الذي يحمل له صواعقه اللّاهبة ، ما كان يستطيع بسهولة أن يتحمل تلك الشواظ اللّاهبة على حافة السماء المتوهجة ، دون أن يلحقه الأذى . ومع ذلك ، فقد دفعهم الذعر دفعاً الى الاقتراب من تلك المناطق .

وعندما رأى القائد أن قوات العدو قد انسحبت عبر الصحراء في ذعر ، أخذ في تعقبها بما عرف عنه من بسالة وجلد ، فدلف الى تلك الرمال الساخنة والأرض العطشى بكل شجاعة . وأصدر أوامره لرجاله بأن يأخذوا معهم الماء والخبز ، وسرعان ما نفذوا أوامره . ولكن ، إلى أي مدى يستطيع أن يروي ظمأ رجاله العديدين وأن يوفر لهم الغذاء في مثل هذه الأماكن؟ .. لقد فرغت قرب الماء ولم يكن هناك سبيل لتوافر الطعام . وبدأت حلوقهم تحترق من الجفاف ، وأصابهم الضعف بسبب الجوع . وأخذ الجنود ، وا أسفاه ، يترنحون ولقد ضاقت صدورهم ، واحمرّت أجسادهم بسبب وهج الشمس التي أخذت تحرقهم بنيرانها اللّاهبة . ولم يكن وسط تلك الرمال أي نهر من الأنهار ، فأخذوا يبحثون عن الماء بلا جدوى ، تماماً كما فعلت قوات

(٣٠) ستيجيان (Stygian) : أحد انهار الجحيم وفقاً للأساطير القديمة .

(٣١) لانجواتان (Languatan) : لواتة .



(Danai) [٣٢] ، عندما شقت طريقها الى أراضي طيبة (Thebes) [٣٣] التي أصابها الجفاف عندما سلّط عليها باخوس (Bacchus) [٣٤] قواه . ولقد أصابهم الهلع والذعر عندما وجدوا الينابيع والبرك جافة ، وأخذ قائدهم أودراستوس (Adrastus) [٣٥] وقد أرهقه الظمأ ، يبحث عن أنهار على طول تلك الأراضي الشاسعة .

وأخذ الجنود الرومان يتكلمون فجأة ويجأرون بشكواهم المريرة . كانوا يقولون في مرارة : «إذا كان المصير التعيس ينذر بدمار الأمة الرومانية في لحظة واحدة ، فثمة سيوف وثمة حروب ، وهناك تلك الغضبة الهوجاء لتلك القبائل ، فلتصرعنا الحراب ، أو تنهال علينا جميع

(٣٢) Danai في الأسطورة اليونانية القديمة واناي هو ابن بيلوس Belus المولود من زواج تم بين بوسايدن Poseiden إله البحر والحسناء ليبيا Libya. ونتيجة لخلاف بينه وبين أخيه آجينور Agenor فرّ ببناته إلى أرجوس Argos حيث كون جزأً من سكانها عرف باسمه.

(٣٣) (Thebas) مدينة مهمة في اليونان.

(٣٤) باخوس (Bacchus) أو (Dionysius) : اله الأشجار والفاكهة.

(٣٥) أدراستيوس (Adrastus) الملك الأسطوري لمنطقة أرجوس باليونان ، قاد جيش السبعة عمالقة ضد طيبة.

٣١٤ / ٣٥٠ الاسلحة مثل الصواعق . ولتقذف الرماح وتخترق احشاءنا ، ولتكم مصارعنا على أيدي هؤلاء الأعداء ، طالما أن مصارعنا ستكون بسبب الجراح التي تصيبنا لم يوقعنا الجوع الرهيب والحمى والظمأ في مصيدة هذا المصير المؤلم ، ويدفعنا ، وا أسفاه ، إلى هذه الميتة البطيئة ؟ لتكن قواتنا قرباناً كريماً للسيوف . عد بألويتنا الى الخلف . إن هذا الحشد الذي أضعفه الجوع يلتمس ذلك منكم أيها القائد العظيم . إنّك بذلك ترحمنا وترحم نفسك أيها القائد العظيم . ائتمن برجالك ، إن أطرافنا قد أصابها الوهن ، وتصلبت عظامنا بعد أن جفّ فيها النخاع ، وتوتّرت أعصابنا ، وتيبّست جلودنا وغارت عيوننا ، وشحبت وجوهنا . والآن ، إن صورة الموت تكبل أجسادنا ، وتحترق حلوقنا من العطش » .

وما أن انتهى الحشد المكدود من شكواه ، حتى قام القائد نفسه باسكات شكواهم المرّة بكلمات حلوة ورقيقة جددت فيهم الحيوية رغم شدة تعبهم ، وبهذه الكلمات خاطبهم « أيها الجنود... يا أمل روما... ويا مجدها ومحرري أوطانكم ، لا تولو الأدبار أمام هذه التجربة المرة ، تغلبو على العطش والجوع المخيف . استحضروا الآن الأعمال المجيدة لآبائكم . العالم كله شهد بالقوة لأجدادكم ، لقد تحملوا المشاق حتى استطاعوا الاستيلاء على العالم بشجاعتهم . إن الصبر هو أكبر الفضائل وهو الذي تخشاه هذه القبائل ، وإنّه وحده الذي سيخيف أعدائنا الآخرين وسيقطع رؤوس هؤلاء . إن صفوف الأعداء تحارب ضد قدر مزدوج : فالعطش القارص والحمى والجوع كلّها مسلطة عليهم ، وفي نفس الوقت فإن الفزع من الرومان يهددهم ويدفعهم للهرب . الآن فرصة القضاء عليهم . جربو قبل أن تغيب شمس هذا اليوم . وحرمو عليهم هذه المناطق ، وستكون هذه الأرض المتوهجة شاهداً على جهدكم ، كما ستسجله السماء أيضاً . إن أحفادنا سيقرؤون أني تعقبت خطى القائد كاتو[1] العظيم . وفي محاولتي هذه لإعادة فتح هذه المناطق كنتم أنتم العون لي اجعلو حبكم لوطنكم يتغلب على كل شيء في عقولكم ، عندها سيهزم عطشكم الشرير ، مطروداً بقوة إيمانكم . ساعتها ستتحقق كل أمانيكم » .

بهذه الكلمات الصادقة تمكن القائد العظيم من تهدئة فرسانه اللّاتين ، مبللاً قلوبهم بكلماته

(١) ربما يقصد ماركوس بوركيوس كاتو Marcus Porcius Cato الزعيم والقائد العسكري الذي عاش في الفترة ما بين ٢٣٤ — ١٤٩ ق . م حارب ضد قرطاجة في الحرب البونية الثانية ووطد الحكم الروماني من أسبانيا بعد عمليات عسكرية ناجحة . كان شديد الحرص على تدمير قرطاجة وهو صاحب الكلمة المشهورة « قرطاج يجب أن تدمر .

الرقيقة وكأنها الماء الزلال مالئاً بها بطونهم كأنها طعام مأدبة. ولكن حظاً سيئاً أصاب جند ٣٥١/٣٦٨ اللاّتين العظيمة فشتت حماسهم وكسر قوتهم.

فيما كانت الجياد تعدو هنا وهناك باحثة عن الطعام، كان الجوع الرهيب والحمّى قد أخذا بخناق جميع الكائنات. لم تكن هناك حشائش أو أشجار مورقة من أي نوع. وعلى حين فجأة، رأى القوم حقلاً تغطيه الحشائش الكثيفة ويلمع بلون ذهبي، وبدأ السهل الذي يليه زاخراً بالأزهار، واندفع قطيع الحيوانات، وقد جنّ من الجوع القاسي، وأخذت الجياد تلعق الرمال القاحلة، إلّا أن ذلك المرعى التعس لم يشبع جوعها. وأخذت الجياد تتساقط واحدة بعد الأخرى فوق تلك الحقول نفسها، يغشاها الموت وهي تقضم الحشائش بأسنانها الباردة، وأصيب الجنود الرومان الشبان بنكبة كبيرة عندما ماتت جيادهم. واعترتهم غضبة هوجاء وهم يمضون قدماً في حزن وقلق، وقلوبهم مشحونة بهموم كبيرة. وأتت تلك الكارثة على ما في قلوب الرجال من بسالة بعد أن أوقفتهم في هلع بالغ. كذلك، فإن ذلك الحظ العاثر، أوقع الإضطراب بين صفوفهم وأثقل كواهلهم.

شاهد القائد ذلك الخراب الكبير الذي لحق بهم، وأن قوة رجاله قد تضعضعت وتلاشت، شرع في تحريك العسكر صوب شاطىء البحر، على أمل أن يخلّص رجاله ممّا هم



٣٦٩ / ٤٠١ فيه من ضيق. وبدأ الرجال يحسون نسيم البحر العليل وهم يقتربون من الشاطىء، وتطأ أقدامهم الحشائش الطرية. ومع ذلك لم يكن ثمة نهر. فأخذوا يعصرون الأزهار ويمتصون رحيقها بأفواههم المحترقة من الظمأ، ويبللون شفاههم الملتهبة بعصيرها الغريب المذاق. وأخذوا يشبعون جوعهم بالتهام أنواع غريبة من الخضروات، كانوا لا يطيقون مذاقها. وعاد الكثيرون منهم مع هبوط الليل، وأخذ البعض منهم يتفرقون فوق الحقول بحثاً عن الطعام، فيما كان البعض الآخر يهيم على وجهه بحثاً عن الماء. وثمة آخرون اضطرهم الجوع الشديد الى أن يولوا الأدبار فراراً، وإلى أن يهربوا من ألوية القائد الذي كانوا يحتقرونه.

وأخيراً، أقام القائد معسكره على مقربة من نهر كانوا قد عثروا عليه. واندفع الجنود الرومان العطاشى الى ضفاف النهر وأخذوا يطفؤون نيران العطش من المياه المتدفقة. وفي ذلك المكان، تجمع الجنود من كل صوب حول الماء وأخذوا يروون ظمأهم من مياهه العذبة. وإذ كانوا يفتقرون الى الخبز، فقد أخذوا يمضغون الأزهار والحشائش على أمل أن يشبع ذلك جوعهم. وأصدر القائد أوامره بإرسال رسالة عن طريق المدن الساحلية طالباً إيفاد سفن تحمل الطعام لجنوده. ولكن، وا أسفاه، كان الحظ العاثر لهم بالمرصاد، فقد ثارت في وجوههم ريح جنوبية معاكسة، ولم يسمح ذلك الحظ العاثر للسفن بأن تعبر البحر المتلاطم الأمواج وصواريها مشرعة، وهكذا لازمهم سوء الطالع، وأخيراً فإن جماعة يورسيليان (Urcelian) [٣٦] التي لم تكن صادقة الولاء للحكّام اللاّتينيين، ساهمت أيضاً في تفاقم ذلك الحظ العاثر الذي واجه الرومان.

وكانت قبائل (Atrices) [٣٧] قد أقامت مساكنها البدائية في تلك الأنحاء من زمن طويل، وكانت تلك القبائل شديدة البأس في الحرب كثيرة العدد، ولكنها ظلت تنعم بالسلام لسنوات عديدة. وعندما شاهدت تلك القبائل القائد يوحنا (John) يدخل أراضيها بألويته، أصابها ذعر شديد وسارعت إلى إيفاد سفرائها طالبة السلام. واستقبل القائد الرسل بلطف وسط خيامه، وأخذ هؤلاء الرسل يلتمسون منه العفو والسلام والأمان وتهدر شفاههم بهذه التوسلات الذليلة: «إن شهرتك، أيها القائد العظيم، ورجاحة عقلك وبسالتك واخلاصك، كانت تسبق خطواتك، وتلقى الرعب في قلوب القبائل جميعاً، وتجبرها على

---

(٣٦) يورسليان (Urcelian)

(٣٧) أستريكيس (Astrices) : قبائل ليبية.

الإذعان لحكمك . إن رجال قبيلة استريكان (Astrican) الشهيرة يحنون رؤوسهم اذعاناً ٤٣٤/٢٠٤ لأوامرك أيها القائد الشجاع . إن حكماء شعبنا يوافقون من فورهم على عقد معاهدة معكم ورغبة منهم في خدمتكم عن طواعية ورضا ، فإنهم يقدمون أعناقهم لتطوقوها بنيركم ، فلتعطهم أذناً صاغية ، فأبق على حياتهم وهم يلتمسون هذا منكم . إننا نصلّي من أجل السلام ، ومن أجل أن ننعم براحة وهدوء بعد الحرب » .

وبينما كان السفراء يقدمون ذلك الإلتماس ، أخذ حشد من الجنود الغافلين يهمهمون في مخيم القائد قائلين : « الى متى سيظل الجوع يصرع كتائبنا دون مقابل؟ لم يعد لنا أي أمل أو خلاص ، وسوف تفنى قوانا التعسة » . وعندما بلغ ذلك الكلام مسامع القائد ، أصابه اضطراب شديد ، وأسرّ بهذا الأمر لريسيناريوس (Recinarius) [٣٨] : « أوقف فوراً هذه الشكايات المؤلمة التي تصدر عن هؤلاء الجنود العاجزين . أي جنون هذا الذي يملأ قلوب هؤلاء التعساء المضطربي العقول . إنهم يرون الرّسل ، وهؤلاء الناس جاؤوا يلتمسون عقد معاهدة معي . إنّهم يقفون هنا في مذلّة ويستجدوننا بدعواتهم ، في حين يفضح هؤلاء الرجال أحوالنا وسرّنا الرهيب ... العار لهذا الحشد من الجنود الذين لا يفكّرون إلّا في بطونهم كما تفكّر الماشية والحيوانات المتوحشة » . وأسرع الضابط الى الخارج من فوره ، وأعاد على حشد الجنود أوامر قائدهم ، واستطاع أن يلزمهم الصمت بسرعة بكلمات رقيقة هادئة . وعندما عاد الهدوء سارع القائد بالرد على الرسل قائلاً : « لقد سمعتم جنودنا يصبّون جامّ غضبهم . إن جنودنا يعربون بصراخهم عن شديد رغبتهم في القتال الضاري ، وهم يعدّون العدّة لاجتياح أرض شعبكم . ومع ذلك ، فإن قوتنا تدفعنا دائماً الى الإبقاء على حياة رعايانا . إننا نخضع هؤلاء الذين يشهرون السلاح في وجوهنا ، ولكننا نصادق من يأتينا في خضوع . اذهبوا أيها الرجال ، وإذا أردتم أن تعقدوا معي معاهدة ، في ولاء لا يتزعزع ، فابعثوا بأطفالكم الى معسكري عربوناً على هذا الولاء ، وسالموني ، وسيظل الشعب الاستريكاني (Astrican) بأكمله ينعم بالأمن والقوة في ظلّ أمبراطورنا » .

وبعد أن خاطبهم على تلك الصورة ، حمّلهم بالهدايا الكثيرة ، وأعلن الرسل بدورهم أنهم سيكونون في خدمة الأمبراطورية الرومانية ، ووعدوا بإرسال أطفالهم ليكونوا عربوناً للسلام .

---

(٣٨) ريسيناريوس (Recinarius) : أحد مساعدي يوحنا .

٤٣٤ / ٤٦٦ وأخذوا يعربون عن تقديرهم لما يتصف به الشعب اللاتيني من بسالة واخلاص ، ويمتدحون قوة الأمبراطور وولاء القائد . ثم قفلوا راجعين بعد أن اتفقوا على ترتيبات السلام .

ولكم ، على مسافة بعيدة ، كانت قبائل لواتة (Ilasguas)[٣٩] المكدودة بالعطش ، تهيم على وجوهها عبر الحقول الجرداء ، عاجزة عن تحمّل ذلك العناء والجوع القاتل . لم يكن هناك أمامها أي سبيل للنجاة ، أو أي درب تسلكه . ومن ورائها كان القائد يوحنا (John) ومن أمامها كانت حرارة الشمس التي لا ترحم . كان الموت يمثل أمام أنظار القبيلة من كل جانب . كانوا عاجزين عن التقدم للأمام أو التقهقر للوراء . وأخذ هذا الجمع الحاشد من الرجال الذين أوقعتهم تلك الأخطار في اضطراب شديد ، يصرخون ويئنون ويطلبون الموت لأنفسهم . إن الحظ العاثر حملهم على العودة ، وغيّر مجرى حياة تلك الأمة البغيضة . وقد أذعنت قبائل سرت (Syric)[٤٠] لما قضت به الحرب وعادت أدراجها ، لا تبغي الدخول في معركة بالسلاح ، ولكنها تحاول أن تلوذ بالفرار إلى مصير مجهول . وكان الفرسان الرومان يحيطون بهم من كل جانب ، وكانت قبيلة مازاكس (Mazax)[٤١] الموالية للجند اللاتين في صحبتهم تسعى الى معرفة المكان الذي توجهت اليه القبائل الهاربة . كانوا لم يتلقوا أي نبأ عنها ، ولم يروا عدواً عن كثب ، ولكنهم فجأة ، شاهدوا وهج نيران في ظلمة الليل البهيم ، فأخذوا يتساءلون في شكّ ما إذا كانت تلك النيران لقبائل استريكس (Astrics) أو لقبائل لواتة (Ilasguas) التي عادت .

وبدأ فجر باهت يبزغ بأشعته من أحشاء البحر ، مبدداً جحافل الظلام ، ووراءه أشرقت شمس شاحبة بجيادها التي تحمل المصير المشؤوم . وكانت السحب تحجب مسار جياد الشمس ، وجعل فويبوس (Phoebus)[٤٢] النهار مظلماً بضوئه الضبابي . أنظروا أن ثمة رسولاً كان يطهر بجواده تحت جنح الظلام والسماء الساكنة ، أبلغ القوم أنه رأى نيراناً لا حصر لها تتوهج في ظلام الليل ، وكان وهجها ينتشر بصورة واسعة مسافة بعيدة من خنادق فرقته . إلا أن تقرير الرسول لم يوضّح ما إذا كانت قبائل لواتة (Ilasguas) المكدودة قد قفلت عائدة ، أم أن قبائل استريكس (Astrican) كانت توسع من معسكرها بالقرب من تلك المناطق . وفيما كان القائد يلتمس بحصافة تفسيراً لتلك الظروف المرهقة ، وهو يقف صامتاً وفي شك من أمره ، أقدم عليه

(٣٩) (Ilasguas) : لواتة .

(٤٠) (Syrtic) : منطقة سرت .

(٤١) مازاكس (Mazax) : قبائل ليبية موالية للرومان .

(٤٢) فويبوس (Phoebus) : لقب من ألقاب الإله أبوللو .

٤٩٩/٤٦٧ كوسينا (Cusina)[٤٣] المخلص ومعه حشد كبير من الرجال . وفي فرحة غامرة خاطب القائد قائلاً : « ان قبائل لواتة (Illasguas) الهاربة المكدودة والعزلاء من السلاح ، تعد العدة لتحريك قواتها الخامدة ، وأن تقدم الى هناك متسللة كاللصوص . لقد حان الوقت لكي نرفع أعلامنا . . لقد حان الوقت ، أيها القائد العظيم لكي نقضي على هذه القبيلة المكدودة . إن المهمة ستكون سهلة أمام جنودنا . ثمة نهر ذو مياه راكدة يغسل ضفافه الظليلة على طول مجراه ، تحف به الأشجار ونباتات الخيزران المتنوعة . وفي ذلك المكان تحاول القبيلة أن تحوّل وجهتها . فلنعمل على الوصول الى النهر أولاً ولنضع أيدينا على مياهه » .

كان الرجال يتقبلون كلامه قبولاً حسناً . إلّا أن القائد ، الذي كان قد طوى قلبه بعض الوقت على ما أبداه الجنود المكدودين من تذمر ، منعهم من المسير الى النهر . ولكن ، ترى من ذا الذي يقدر على عصيان أوامر الرب المحددة أو يقف في سبيلها عندما تجري مشيئته بها ؟ وهكذا ، وبعد أن شرع القائد في تحريك قواته ، أصدر أوامره لكتائبه بأن تمر بتشكيلاتها من خلال قواته وكوكباته . وعندها ، أخذت سحب الغبار تتجمع فوق رؤوسهم ، وامتلأ الهواء بالرمال . وبعدئذ بدأ القائد زحفه المشؤوم ، وبدت أمامه جاليكا (Gallica)[٤٤] بتلالها الشاحبة وحقولها الكئيبة التعسة . وارتفعت الشمس عالية في السماء ، وجعلت جبل أوليمبوس (Olympus)[٤٥] الشامخ يتأجج بنيران عجلاتها النارية ، في الوقت الذي أخذت فيه القوّات تعبر مجرى النهر صفاً بعد آخر ، إلّا إن الجيش السرتاوي سرعان ما أطلق سيقانه هارباً في رعب ، وعاد أدراجه تاركاً ضفاف النهر الذي أتى من أجله .

وهناك ، أصدر القائد تعليماته لرجاله بحفر خنادقهم وإقامة معسكرهم وأن يعملوا على تأخير نشوب المعركة . ولقد كان القائد نفسه يعد العدّة للإشتباك في المعركة في اليوم التالي ، ولذا فقد أصدر أوامره لجنوده بالاستعداد بالسلاح للدفاع فحسب عن المجرى المتدفق ومياهه . ولقد كان من الممكن أن يبلغ القائد هدفه المرسوم بحصافته المعهودة ، لو أن القوات الرومانية نفذت تعليماته بحذافيرها . ولكن ، ثمة قدر مؤسف كان قد كتب لهؤلاء الرجال ليكشفوا عن جسارتهم وقوتهم . فلقد كان الجنود الشبّان يركضون هنا وهناك متفرجين فوق السهول .

---

(٤٣) كوسينا (Cusina) ملك قبيلة المازاك وحليف الرومان .

(٤٤) جاليكا (Gallica) منطقة قريبة من خليج قابس الحالي حيث تقيم قبائل الاستريكس وفي هذه المنطقة هزم الرومان .

(٤٥) أوليومبوس (Olympus) أعلى جبال اليونان ومسكن الالهة في أساطيرهم .

٥٠٠/٥١٥



وقامت أول جماعة من هؤلاء الجند باستفزاز المفرزة الأولى للعدو، واشتبك الجنود اللاتين في معركة دون أوامر ودون أن ينتظموا في تشكيلاتهم المعتادة. كذلك فإن الأبواق لم تعلن عن نشوب الحرب بأصواتها المدوية، بعد أن تصدر أوامر القادة بذلك، ولم تكن هناك ألوية مرفوعة عالياً. وا أسفاه، لقد اندفع الجنود المغرورين بقوتهم الى قلب قوات العدو بلا تنظيم، لا يدفعهم إلّا حظهم العاثر وقدرهم المشؤوم. فعند أول اشتباك هربت قوات مارماريكا (Marmarica) [٤٦] المذعورة الى المؤخرة وتعقبها الجند الرومان، واشتبكوا معها في معركة حامية الوطيس، وكان الفرسان اللاتين يطعنون برماحهم الجنود الذين حاولوا الهرب من المعركة، فيما كانوا يذرعون السهول جيئة وذهاباً، وواصلوا هجومهم على العدو وأثخنوا فيهم طعناً بالرماح والذعر يدفعهم الى الإحتماء بالابل.

وعلى مسافة من تلك المعركة، كان يوحنا (John) يرفع ألويته ويصدر أوامره بحفر الخنادق وإقامة المعسكر. وكان قد أمر الضباط بعدم مهاجمة العدو إلّا لحماية مياه النهر، وأخذ الضباط

(٤٦) مارماريكا (Marmarica): منطقة بأقصى شرق ليبيا.

في تنظيم صفوف قواتهم ، وكان كوسينا(Cusina) على رأس ميمنة الجيش محاطاً بأسلحة الجنود ٥٤٣/٥١١ اللاتين والقوات الماسيلية (Massylian) . وإلى جانبه كان يقف فرونيموث (Fronimuth) [٤٧] تضفي عليه أسلحة روما مهابة وقوة ، والقائد ذو البأس جون (John) الذي كان يوصف بالقائد المحظوظ ، ومع ذلك لم يكن محظوظاً فيما كان مقدراً له . وكان القائد الضخم بوتزينتولوس (Putzintulus) [٤٨] على رأس ميسرة الجيش ومعه القوّاس جيسيريث (Geisirith) [٤٩] والفارس سيندويت (Sinduit) [٥٠] بأسلحته المشرعة عالياً . وفي وسطهم جميعاً ، كان يقف قائد القواد ينهي بنصائحه لرفاقه وقدرهم المشؤوم معلق فوق رؤوسهم جميعاً ، وأمامه كان القائد تاراسيس (Tarasis) [٥١] يحيط كتائب المشاة بسياج من القوات الحاملة للتروس ، ويجهز قواته وهو يطير بجواده السريع .

أنظروا ، ثمة رسول سريع كان قد توجه الى القائد في تلك الأثناء يحمل أنباء بأن العدو في اضطراب ، وأنه بعد أن هزم ، أخذ يولي الأدبار فراراً عبر الحقول . ومع ذلك ، فإن الأنباء التي حملها الرسول الشاب لم تدفع القائد الى التخلّي عن فكرته الحصيفة . وإذ كان القائد لم يغيّر رأيه ، إلّا أن مشيئة الأقدار الرهيبة كانت معاكسة . فانصاع القائد المتردد إلى مشورة رجال حرسه ارياريث (Ariarith) [٥٢] المشهود له بالشجاعة ، وزيبير (Ziper) [٥٣] الطيب ، وكلاهما كان من صواعق الحرب اللّذين أوقعا الرعب في قلوب كتائب ماسيليان (Massylian) بدخول الحرب . كان زيبير أول من تكلّم قائلاً : «مد يد المساعدة للجنود اللاتين ، يا أعظم القادة . إن حلفاؤك مشتبكون في معركة حامية الوطيس على السهول ، إلّا أنهم وهم يتقاتلون منفردين ، وقد وقعوا في فوضى واضطراب على أيدي صفوف الأعداء المتراصة . إن الأعداء يتغلبون عليهم بأعدادهم . فلننضم الى حلفائنا في المعركة .. اشرع سلاحك ومد يد العون لرجالك» . وعندها ، كان صدر القائد الشجاع آرياريث

---

(٤٧) فرونيموث (Fronimuth) : روماني .

(٤٨) بوتزينتولوس (Putzintulus) : روماني .

(٤٩) جيسيريث (Geisirith) : روماني اشتهر برجل القوس .

(٥٠) سيندويث (Sinduit) : روماني .

(٥١) تاراسيس (Tarasis) : روماني .

(٥٢) آرياريث (Ariarith) : روماني .

(٥٣) زيبير (Ziper) : روماني .

٥٤٤ / ٥٧٥ يتأجج رغبة في القتال ، وحمل قائده المتردد على تحريك ألويته . كان تفكير القائد قد تأثر بكلام معاونه المخلص . ودوّى بوق الحرب الرهيب دافعاً القوّات الى المعركة ، وبدأت الوحدات الجيدة التنظيم زحفها الفاشل ، ذلك أن الأقدار كانت تعاكسهم . ولكن تلك كانت مشيئتك أيها الرب القادر على كل شيء طالما كانت مشيئتك تقضي بمعاقبة أهل ليبيا الآثمين . إن آثامهم كانت سبباً في ذلك الشرّ المستطير ، ولم يكن الخطأ خطأ الحاكم .

وعندما شاهد كاركاسان (Carcasan) سحب الغبار تتجمع على مسافة بعيدة ، لم يضيع وقتاً في تحريك طابور رجاله من قبائل ناساموניانس (Nasamonian)[٥٤] وأخذ يسكّن من روعهم قائلاً : «أيتها الشعوب التي لم تقهر ، إن بسالتكم المأثورة قد دفعتني الى مواجهة القوات الرومانية بالسلاح . هذا هو اليوم الذي وعد آمون ذو القرون [٥٥] بمنحكم هذه الأرض . والآن ، ازحفوا بلا خوف أو وجل على العدو واستعرضوا أمجاد بلادكم بأسلحتكم . ليقاتل كل منكم بضراوة وليثق فيما رسمته لنا الأقدار . إن الآلهة العظيمة ستكون في عوننا . ثقوا بأن النصر المؤزر سيكون حليفنا أيها الرجال ، فاطرحوا الخوف جانباً ، وادخلوا المعركة بما عرف عنكم من قوة وشجاعة » . ولم يكد كاركاسان (Carcasan) ينتهي من خطابه حتى سرت الصرخات الرهيبة في معسكر الجنود السرتيين (Syrtic) يصاحبها ضجيج مدوّ لانتفاضة جنونية . كانت قوات مارماريكان (Marmarican)[٥٦] في ثورة عارمة أثارتها أقدار مشؤومة ، وكانت روح القتال تحرك فرقهم المتوحشة ، وتلهب ظهور المغاربة بسوطها الدموي . وعند ذاك ، كانت قلوبهم مشحونة بجنون وحشي . وأخذت جيادهم تخرج من المعسكر في أعداد لا حصر لها وتنطلق فوق السهول .

وفي منتصف ساحة القتال ، كان ثمة نهر يصلح تماماً مسرحاً لخدع الحرب وأعمال قبائل ماسيليانس (Massylian) الغادرة . كان هناك غابة كثيفة تعترض سبيل الأسلحة بأوراق أشجارها الكثيفة . وكانت أشجار الطرفاء النحيلة الأغصان تغطي وديانه الكريهة ، إلى جانب أشجار الزيتون البرية بأوراقها ذات الأطراف المستدقة . وفي تلك البقعة كانت قوات مارماريكان (Marmarican) تقف ، وفي مواجهتها القوات اللاتينية . وفي تلك البقعة تحرّكت

---

(٥٤) ناسومونيانس (Nasamonian) : قبائل الناسومن الليبية .

(٥٥) آمون (Ammon) : اله سيوة .

(٥٦) مارماريكان (Marmarican) : منطقة أقصى شرق ليبيا .

القوتان لبدء تلك الحرب المشؤومة ، إلّا أن فروع الأشجار المتشابكة وقفت حاجزاً في وجه ٦٠٥/٥٧٦ أسلحة الجنود وحرابهم المريّشة . كان الجندي لا يستطيع أن يخترق ذلك الحاجز برمحه الرفيع رغم ضربات يده القوة . ولم يكن الفارس يستطيع أن يحوّل وجهة جواده في حريّة لكي يواجه العدو وكان الجندي الذي تحيط به تلك الأغصان الكثيفة لا يستطيع أن يحرك رمحه الطويل كما ينبغي . إن طبيعة المكان حالت بين الضباط المتحمسين والقائد الحذر والمعركة ، واضطرت صفوف المحار بين الى وقف تقدمهم والتزام أماكنهم . ولم تكن لأي منهم الجرأة الكافية لدخول المعركة ، وهكذا وقفوا جميعاً على ضفة النهر المنحدرة . وفي شجاعة اقترب القائد من المكان وأخذ هو ورجال حرسه يبحثون عن سبيل لعبور النهر ودخول الأدغال ذات الأشجار الكثيفة . وفي تلك الأثناء كانت القبائل الناسامونية (Nasamonias) ترقبهم من مخابئها بعد أن وضعت يدها على درب آمن ، ثم انقضّت بغتة على أعدائها . وهنا اضطرت الفرقة الموالية الى ترك المخبأ ولاذت بالفرار ، ولم تستطع أن تستخدم أسلحتها بعد أن باغتها العدو بالهجوم .

وعندما شاهد أوسترو (Austro) [٥٧] قبائل ناسامونيانس (Nasamonias) في مواجهته لاذ بالفرار بسرعة واندفاع كما تمر الصورة في الحلم .

ولكن ، انظروا ثمة نبأ قطعي أفاد القائد العظيم بأن الليبيين الموالين كانوا حينئذ يهربون من المعركة دون قتال يسيطر عليهم رعب هائل . وبأمر من القائد يوحنا (John) أسرع القائد الحكيم بول (Paul) [٥٨] مع القائد أمانتيوس (Amantius) [٥٩] لنجدة رجالها . ولم يقعوا على أي أثر لليبيين ، كما أن قبائل مازاكس (Mazax) [٦٠] وهي تلوذ بالفرار ، لم تجرؤ من الخوف على الإلتفات للخلف حيث كانت المعركة ، ولم تجر على النظر ناحية العدو . وهنا حوّل قادتهم وجهتهم ولاذوا بالفرار ، وأخذت الجماعات المدافعة عنهم تولي الأدبار عندما وجدوا أن قائدهم فقد كل رغبة في القتال . وأخذت قبائل لواتة (Illasguas) [٦١] المنتصرة في تعقّب القوّات المبعثرة وهي تطلق صرخات تصل إلى عنان السماء . وعند ذاك بدأت قوة العدو في إطلاق

---

(٥٧) أوسترو (Austro)

(٥٨) بول (Paul) : روماني .

(٥٩) أمانتيوس (Amantius) : روماني .

(٦٠) مازاكس (Mazax) : قبائل ليبية .

(٦١) (Illasguas) : لواتة .

٦٠٦ / ٦٤٤ العنان لجميع صفوفها للخروج من الوديان والإنتشار على السهول الفسيحة . لقد كان المشهد يحمل على الظن بأن الأرض قد انشقت فجأة ليخرج منها الرجال . وأخذ الجنود يركضون هنا وهناك وأحاطوا بالألوية وأخذت جموعهم التي تعد بالآلاف تجتاح ضباطها المشتتين في صفوف متراصة . وحجبت الرماح التي أطلقها الجنود طول النهار . عمّ ظلام الليل رقعة واسعة من السهول . وأخذ جنود الفرقة التعسة يئنون بعد أن صرعت الرماح والسهام جيادهم فوق السهول . وكان العدو في ثورة عارمة ، شديد البأس وقوي المراس ، لا يستسلم . ولقد كان يمكن أن يكون ذلك اليوم يوم فناء الجنس اللّاتيني بأكمله . لو لم تدركهم رحمة الرب القادر الذي كان ينظر اليهم من السماوات العلى ، فيحفظ القوات الرومانية من الفناء وسط الآلاف العديدة من قوات الأعداء ،وينقذ الهاربين منهم بكلمات من القائد العظيم يوحنا (John) ذلك أنه عندما شاهد القوات المتحالفة تترك أرض المعركة ، صرخ فيهم بصوت كالرعد ، وزاد من غضبتهم عندما قال : «أيها الرفاق ، إذا كان مقدراً لنا أن نموت ، وإذا كان القدر الذي لا يرد قد جرّ رجال اللّاتين إلى هذا المصير لكي يصرعهم في هذه الحرب المشؤومة ، فلماذا أموت موتة النساء؟ وإذا كان مقدراً لي أن أعيش ، فلماذا أهرب في ذعر؟ أيها المواطنون ، حولوا أعنة جيادكم ، وأنتم أيها الرجال ، أقيموا ألويتكم في أماكنها ، أظهروا احتقاركم لغضبة هذه القبائل وادخلوا في المعركة بضراوة ، فإما أن نهزم العدو إذا شاء الرب ، أو إذا كانت كفة ذنوبي هي الراجحة وتقف في سبيل الإنتصار ، فإنّنا بموتنا لن نعدم الثناء الذي نستحقه . توقفوا عن الهرب واشهروا أسلحتكم . وليفعل كل رجل منكم ما أفعله» . هكذا تكلم القائد ، وأخذ يصرّ على أسنانه وهو مقطب الجبين . ثم أخذ بمقبض سيفه وشرعه لمهاجمة الأعداء . ولدى سماع صوته المدوّي ، عاد الجانب الصامد من جيشه أدراجه ، ثم بدأت معركة حامية الوطيس ، وأخذت الرماح تتطاير هنا وهناك . وأخذت دروع الصدور والخوذات تدوي بأصوات الاسلحة التي تنهال عليها ، والجنود يئنون تحت وقع الضربات ، والدماء تنبثق غزيرة من الشرايين الممزقة . واندفع القائد الجليل زيبير وسط أسلحة الأعداء ، وأخذ في ثورته العارمة يقوم بأعمال بطولية ويصرع جنود سرت (Syrtic) بأسلحته الفتاكة . وكان بصحبته القائد سولوموث (Solumuth) [٦٢] وان كان مصيره مختلفاً . فلقد أخذا معاً يغرسان رماحها الطويلة في صدور الأعداء الكثيرين الذين هجموا عليهما . كان الرمحان يخترقان أكباد الرجال وقلوبهم وكان السيفان يشقان وجناتهم ، فتلك الضربة أحاطت برأس أحد الأعداء ،

---

(٦٢) سولوموث (Solumuth) : روماني .

فيا بترت أخرى عظام ساق عدو ثان. كان مشهدهما فقط مثل أسدين توأمين وقد راحا يعملان ٦٧٦/٦٤٥
أنيابهما المتوحشة في قطيع من الماشية، وكان أحدهما يمزق جسد فريسته بمخالبه،
فيا كان الثاني يسحق اللحم بأنيابه سعيداً بالماء الساخنة. وفي مكان آخر من ساحة
المعركة كان بوليتزيس (Bulmitizs) [٦٣]، وآرياريث (Ariarith) [٦٤] الجبّار، ودوروتيس
(Dorotis) [٦٥] العنيف، وحامل السلاح يوحنا يعملون القتل في كل من كان يهاجمهم
فوق السهول الواسعة. كان واحد منهم يضرب بسيفه في اعتزاز وقوة، وفيا كان الآخر
ينتصب على الهامة ويضرب برمحه في مهارة، وكان الثالث يطلق بسهامه الصلبة من قوسه
الرنان، فيا انتابت الرابع ثورة عارمة فأخذ يقاتل مستخدماً سلاحيه معاً. ووسطهم كان القائد
نفسه يتألق بسيفه اللّامع وهو يصد كتائب الأعداء فتهرب مذعورة. إن الناس يروون في
أغانيهم أن جوبتير (Jupiter) جعل أعداءه من العماليق يرتعدون على نفس الصورة، عندما
استطاع بضربة من صواعقه أن يقضي على الأشقاء المرعبين حرقاً.

ولقد كان يمكن لتلك الفرقة أن تخرج من المعركة منتصرة لولا أن الأقدار التي ساءها ما
لقت من نجاح، حرمتهم من هذا الإنتصار، فعندئذ برزت فرقة كريهة لا حصر لأعدادها،
فقد أخذت قوات قبائل مارماريكان (Marmarican) من المشاة في التقدم تتطاير من حولها ومن
جميع الجوانب سيول من الرماح وأغصان البلوط الثقيلة والأحجار المؤذية مثل الصواعق
وامتلأت ساحة المعركة بالغبار الأسود، حتى أن الجنود كانوا لا يستطيعون رؤية أسلحتهم،
ووقف القائد المناضل صامداً أمام أسلحتهم جميعاً ومنعهم من أن يولو الأدبار. وفي خضم تلك
الفتنة التي كانت تهددهم، سقط اثنان من حملة السلاح. فقد سقط آرياريث (Ariarith)
الضخم الجثة، بعد أن أصيب بأكثر من ضربة، وهوى زيبير (Ziper) العالي الهمة، بعد أن
أصيب بمائة جرح. وعلى مسافة منهما، أصيب جواد القائد بضربة رمح عنيفة، إلّا أن القائد
انتزع الرمح بشجاعة من جسد جواده السريع بيمناه، وفي فورة غضبه كسره، ثم قذف به في
وجوه الأعداء.

وأخذ القائد يخور كالثور لما أصابه من جروح وعندما رأى حلفاءه يسقطون صرعى امتطى

(٦٣) بوليتزيس (Bulmitizis) روماني.
(٦٤) ارياريث (Ariarith) : روماني.
(٦٥) دوروتيس (Dototis) : روماني.



٦٧٧ / ٦٩٤ صهوة جواده واندفع مهاجماً صفوف الأعداء المتراصين وهو مقطب الجبين وقد تملكته نوبة من القسوة والعنف ، وشق القائد مع رفاقه طريقاً وسط صفوف الأعداء بسيفه ، فأخذت صفوف الرجال تهرب من المعركة بعد أن دبّ الذعر فيها ، واستطاع القائد أن يستعيد الأرض وأن يمهد لرجاله طريقاً وسط صفوف الأعداء . وبعدئذ ، أخذ ينظم رجاله تحت ألويتهم ، وفي الوقت نفسه يصيد قوات ماسيليان (Massylidan) بسيل من سهامه . وفي ذلك الوقت ، لم يجرؤ أي من أبطال العدو على التصدّي له وهو في تلك الفورة ، وكان كل من يحاول تعقب القائد يرجع مدحوراً وقد أصيب بسهم ، أما من كان يتصدّى لمهاجمته فقد كان يلقى مصرعه وقد اخترق رمح القائد صدره ، وكان الرجال الذين يحاولون محاصرته من جانبيه ، سرعان ما يجودون بأرواحهم بعد أن تصيبهم رماحه المجنحة أو تشطر أجسادهم برماحه .

وعند ذاك ، كانت قوات الناسامون (Nassamonian) التي خشيت من أن تنضم بألويتها الى ألوية القائد في المعركة ، قد أخذت في الاستسلام والهرب من ساحة القتال ، وتشتت جيادها



على شكل دائرة واسعة فوق السهول . أما الرجال الذين لاذوا بالفرار تاركين ألويتهم ، وكانوا ٦٩٥ / ٧١٠
أول من ولّى الأدبار خوفاً من المعركة الرهيبة ، فقد أمر القائد بذبحهم .

وثمة ضابط كان يبدو متألقاً وهو يقاتل باسم قائده ، ولا يقلّ عنه بسالة ، وكان مبرّزاً ومتألقاً بأسلحته الرومانية وعندما شاهده القائد عن بعد وهو يهرب من المعركة فوق السهول الواسعة ، أخذ ينادي عليه قائلاً : « هل هذا هو ولاؤك ؟ أو هكذا نحاسب لكي يفنى الجيش الروماني ؟ هل تتخلّى الآن عن سلاحك أيها الرجل التعس ؟ الى أين تتجه بجوادك ؟ إن جنودنا التعساء يفنون وجيشنا ينقص بأمثالك من الرجال » . « وأحس الضابط بالخجل والعار عندما سمع كلمات القائد ، ودبّ الحزن والكرب في نفسه حتى سرى في عظامه ، ودفعه شعوره التعس بالعار الى الإندفاع نحو سرايا العدو التي كانت تتعقبهم ، حيث كانت في انتظاره ميتة شنيعة . ولقد ناضل من أجل الدفاع عن رفاقه الذين كانوا يتعرضون لهجوم شديد . وعند ذاك كان العدو المنتصر قد هزم ، وكان المقهورون قد أنقذوا ، وتغيرت بذلك حظوظ المغلوبين . لقد كان الحظ السعيد

٧١١ / ٧٤٤ الى جانب البطل الجسور وهو يهدد في ثورته ، يعمل التقتيل في الأعداء بمختلف السبل. كان مثل نمرة ثائرة تندفع في جنون فوق حقول هيركانيا (Hyrcamian) [٦٦] بعد أن حرمها أحد الصيّادين من أشبالها عندما انتزعهم من عرينهم في القوقاز (Caucases) وكانَ الصيّاد الذي يريد أن يعرض الأشبال أمام نظر ملك فارس ، يلهب جنبي جواده بمهازيه وهو مذعور من مطاردة النمرة. وكانت النمرة التي لا تقل ضراوة عن أليفها وأسرع من الريح الغربية ، تئن من الحزن على أشبالها وهي تكاد تطير وراء الصياد. وعلى مثل تلك الصورة ، ناضل القائد من أجل اللحاق بهؤلاء الرجال. وفي طريقه أطاح برأس جندي محتضر بسيفه ، ثم قذف آخر برمحه من مسافة بعيدة وطعن ثالثاً في صدره بحربته القوية ، ثم هاجم الرابع برمحه فاخترق ترسه ويده وجنبه في نفس الوقت ، ثم ثنّى بخامس فبتر ساقه فسقط من فوق جواده ميتاً. وهناك كان ثمة جندي آخر قد سقط جواده الجريح فوقه فشوّه جسده ، وكانت جراحه تنزف دماء غزيرة اختلطت بالرمال الدافئة. وبألف صورة وصورة ، وكان القائد المنتصر الضاري يضرب جند العدو هنا وهناك ، كلّما أتيحت له الفرصة. وعند ذاك ، أبى جواده أن يتحرك بعد أن أضناه التعب وتقطعت أنفاسه اللاّهثة. وعندما كانت صفوف الليبيين تزداد قوة ، يتبعها كل من كامالوس [٦٧] (Camalus) ، وسيراوس (Ceraus) [٦٨] المتوحش ، وستونتاوس (Stontaus) [٦٩] وأطبق الجيش الهائل على عدوه ، فيما كانت سيول الرماح تثير الفوضى والاضطراب فوق الحقول وكانت التروس تدوّي بأصواتها النحاسية وهي تستقبل الرماح وتصدرها ، وأخذ الليبيون يهاجمون وهم يصرخون ثم أخذوا في شن غارات على القائد البطل. واستطاع الأعداء أن يخترقوا ترس البطل بعدد كثيف من القذائف. وكان البطل لا يزال يحتمي بترسه ، وإن كانت أسلحته تثقل كاهله. وزادت كثافة الأشجار في الغابة من متاعبه ، وهو يقاتل ذلك الحشد الذي انقضّ عليه. وقد استطاع بمهارة أن يتقهقر تدريجياً وأن يصل الى المنطقة المطلّة على الشاطىء ، وكانت أمواج البحر تحمي جنبه الأيمن. ثم استدار الى اليسار وترسه يحمي ظهره ، ثم أخذ يدافع عن وجهه وعن دربه بسلامة. كان مثل الليث الجسور الذي يثور ويهاجم بشجاعة جماعة من الصيّادين المذعورين الذين حاصروه. إن

---

(١) (Hyrcamian) : ولاية بآسيا تطل على بحر قزوين.

(٦٧) كامالوس (Camalus) : ليبي.

(٦٨) سيراوس (Ceraus) : ليبي.

(٦٩) ستونتاوس (Stontaus) : ليبي.

الحيوان المتوحش يطلق زئيراً رهيباً من بين أنيابه وقد تملكه غضب شديد، مزمجراً ببأسه ٧٤٥ /٧٧٣ الشديد. وليس ثمة من لديه الشجاعة لمهاجمته، بل يكتفي الرجال باطلاق الصرخات والرماح من بعيد. ولقد كان القائد بالمثل في ثورة عارمة فيما كان جمع الرجال يهاجمه بعنف واستطاع أن يشق طريقه ملتزماً جانب الشاطىء فيما كان يصدّ الرماح بترسه.

ثمة مكان وسط الرمال على مسافة بعيدة من منحدر وتضربه أمواج البحر على طول الشاطىء تماماً كما يضرب النهر ضفتيه وعندما تتراجع مياه البحر عن ذلك المكان، فإنها تسد الحقول بأمواجها الهائلة. وفي ذلك المكان تترسب أعشاب البحر والطين وعندما بلغ البطل ذلك المكان، ذعر جواده من منظر أعشاب البحر السوداء اللون وولّى الأدبار مذعوراً ثم أخذ يصهل بشدة فيما كانت أذناه منتصبتين علامة على شدة الخوف والزبد يملأ شدقيه، مثل الحيوان المتوحش ثم خفت بريق عينيه ولم يجرؤ على مواجهة ذلك الخطر الداهم. أما القائد ذو الهمة العالية والنفس الكبيرة فقد كان، وا أسفاه، قد أكل رحلة حياته وجهاده، فلقد تعقبته قوات العدو المتراصة الصفوف وأخذت تهاجمه وهي تطلق صرخاتها. ولما ضيقوا عليه الخناق أخذ يلهب جسد جواده بضربات سوطه، وتحت وقع تلك الضربات أخذ الجواد يجري، وحاول أن يقترب من الطريق التي يتعذر اجتيازها وسقط الجواد وأخذ يغوص ثم ابتلعته الهاوية، كما ابتلعت الأرض الكريهة راكبه في جوفها القاسي.. وهكذا انتشل القدر البطل واستقبله وأنقذه من الأعداء حتى لا يقف أمامهم مجرداً من السلاح، أو يضطر الى أن يتضرع اليهم في مذلة. ولقد وفّر له القدر قبراً حتى لا يظل جسده ممدداً بلا غطاء في الرمال الليبية.



الكتاب السابع

في غضون ذلك ، كان القائد يتقدم في درب آمن مع ألويته في حماية صف من رجاله . ١ / ١٧
وأخذ يقترب في سأم من أسوار مدينة صغيرة ومعه حلفاؤه الذين جاءوا . وهناك ، أشبع الرجال حاجتهم الماسة للطعام بعد أن نعموا بالأمن في أعقاب المعركة . وفي تلك المدينة شربت الخيول حتى زالت عنها حمى العطش وأطلق لها العنان لاشباع جوعها المؤلم . وبعد ذلك أخذ الجنود الذين كانوا يعانون العطش من فترة قليلة يغسلون أجساد خيولهم في الماء ، ويمتعون أنفسهم بالماء الذي اشتاقوا له طويلاً . وأخذ الجنود يصبون الماء صباً على أجسادهم ، وهم يتذكرون المآسي التي مرّت بهم سابقاً . وبعدما طعموا ، أخذوا يحسّون بعودة قوتهم اليهم قليلاً ، خاصة وقد أخذوا يتجرعون النبيذ ، مصدر الفرحة والبهجة ، بعد حرب كئيبة ضاربة . ثم أرخى الليل سدوله على الأرض ، وأوقف حياة الكد والتعب في العالم بعد أن غطّى كل شيء بسماء داكنة السواد . ومع مقدم الليل ، داعب النوم جفون الأحياء وكان فيه خير عزاء عن

١٨ / ٤٩ همومهم ، ثم احتضنهم بين جناحيه الهادئين . وتراخت جفون الرجال عندما داعبتها راحة الليل المنشودة . وعندها لم تعد قلوبهم تذكر الشرور وسكنت بقية أعضائهم ، وفيما أخذوا يتنفسون بصعوبة .

ومع ذلك ، ووسط تلك الظروف المضطربة ، كان القائد يمضي ليلة ساهرة ، تموج في جسده هموم لا حصر لها . إن القائد الأب التقى الذي كان يبكي مصرع ذلك العدد الكبير من الرجال ، أخذ يئن ويذرف الدمع السخين . ولقد كان ريكينار يوس (Recinarius) هناك ، رفيقاً للقائد في نضاله ومصدر راحة وسلوى له . ولقد كان على الدوام يتحمل نصيبه من الشر الممزوج بالخير ، ولم يكن ينام مع الجنود العاديين ، بل كان على الدوام حاضراً إلى جانب القائد كصديق رزين وحكيم ، ورجل شجاعة واقدام ، لم يخش أبداً من أن يموت فداء لبلاده . ولقد كان الفرس المتوحشون يعلمون بكل أفعال الرجل ويعرفون مناقبه وشدة بأسه وكفاحه وبطولاته الرائعة في الحرب والسلم ، وولاءه الجميل . كذلك فإن افريقيا كانت على علم بما أنجزه في صراعه مع الليبيين الأعداء ، وكان القائد الأب نفسه يعلم أن الرجل قد تحمل معه الكثير من المشاق والمتاعب وهكذا نما الحب بينهما ، كما نشأ بينهما ميل جميل متبادل . فلقد كان يعتبر يوحنا (John) أباً له ، وكان يوحنا يعتبره ابناً من صلبه . وهكذا أمضى الرجلان ليلتهما بلا نوم يتبادلان الروايات عن أحداث ذلك اليوم ، ومصارعة الأبطال على السهول المشؤومة . كان القائد أول من تكلم ، فقال : « الواقع أن الإنسان يسهر الليل يقظاً بلا جدوى ، ما لم يكن ذلك مع الرب . وما من أحد بقادر على أن يكسب حرباً بقوته الذاتية . الله وحده هو الذي يسحق الأعداء ، ويحرك ويقلب ويدمر كل الأشياء . وعلى أية حال ، فإن الجنس الروماني ليس مكروهاً كلية من الرب الذي في السماء ، فقد جرت مشيئته بإنقاذ رجال عندما تعرضوا لهجوم الآلاف العديدة من الأعداء .

لقد قررت أن أصلح هذا الدمار وأن أتحرك بسرعة وفجأة للهجوم . في الوقت الذي يعتقد فيه المنتصرون أنهم في مأمن هنا ، ويتخيلون أن المقهورين قد لاذوا بالفرار . كم من مرة استطاع فيها المقهورون قهر الرجال المغرورين في القتال . إن انتصار القلة هو نصر أعظم وأكبر . فلتفكر ، أيها الرفيق العزيز فيما هو أصلح وأنسب لقواتنا » .

---

(١) ريسيناريوس (Recinarius) : روماني ومستشار القائد يوحنا .

(٢) يوحنا (John) : قائد الحملة الرومانية .

٥٠ / ٨٥ وعند ذلك تكلم ريكيناريوس (Recinarius) [٣] بهدوء ورصانة ، عارضاً على قائده المشورة التي طلبها : «أيها السيد العظيم ، إنه لمن الخير فعلاً أن نقول على العون الإلهي . ولكن ، لماذا أنت شديد الرغبة في الهموم مرة أخرى؟ إن بسالتك المأثورة ويمينك القوية يدفعانك إلى ذلك ، ومع ذلك ، فليس ثمة داع الآن لأن تعرض حياتك لمخاطر مجهولة . إن الأفكار الظالمة هي التي مدتهم بعونها وجعلتهم مغرورين وشجعاناً ، لكن قلوب هؤلاء الذين يفرون من القتال يجعلها الخوف باردة على الدوام . بل ان البسالة العظيمة ، يشوبها الخوف وتتحطم ، بالخوف من الموت . إن من طبيعة القلة القليلة من الرجال أن يتحملوا مشاق الحرب وأوزارها ، خاصة بعد حرب كهذه الحرب التي اهتزت لها قلوب رجالنا بعد ما شاهدوه من المذابح الأخيرة . إن معظم قوتنا مشتت ، ولكن لم يصب بأذى . أحشد هؤلاء الرجال ، أيها القائد الشجاع ، ومرهم بتجميع واسترداد قواهم . وبعد ذلك توجه الى مناطق أخرى وابحث عن تلك القبائل التي ظلت على الدوام وفية لمعاهداتها معنا ، واعمل على إثارتها للقتال . أطلب منها أن تأتي اليك بأكواخها وألويتها . وهكذا ، عندما يتجمع الجيش بأكمله وسيكون في أمان وسيجد بلا شك كل ما يريد شراءه من تموينات . إن هؤلاء الناس يجلبون معهم عديداً من قطعان الماشية . ولسوف تصل السفن الى الشاطىء ، حاملة الخبز والنبيذ ، فالجو الآن حول البحر موات أمامها . إن رجالنا سيعملون على استرداد قواهم المشتتة ، وسوف تقوم قواتنا بشن الحرب من جديد بعد أن يزايل الخوف قلوبها» .

ووجدت نصيحته صدى لدى القائد الذي ابدى اهتماماً بما قاله ، وأمر من فوره اتباعه بأن يسارعوا في حمل الرسائل الى معاونيه . واندفعت خيول الرسل في كل اتجاه حاملة أوامر القائد ، ونجح الرسل في تجميع القبائل ورجالهم على السواء بسرعة . فما من قائد آخر ، اضطر الى التراجع عن المعركة ، استطاع أن يثيرها ضارية من جديد ، اللهم إلا القائد يوحنا (John) [٤] الذي كان مشهوراً بيقظته وحيويته . وفضلاً عن ذلك ، فإن حظه السعيد فيما سبق من معارك لم يصب بالغرور لما أحرزه من انتصارات مجيدة ، كما أن الظروف المعاكسة لم تحطم قناته ، فظل على بسالته على الدوام . وفي ذلك الوقت ، كان الفجر الوردي قد بزغ من البحر ودفع أمامه بجحافل الظلام الباردة . وعندما أبصر القائد ضوء الفجر الأبيض ، أخذ يغسل يديه ووجهه

(٣) (ريسيناريوس) (Recinarius) : روماني ومستشار القائد يوحنا .

(٤) جون (John) : قائد الحملة الرومانية .

٨٦ / ١٢٤ الذي كان لا يزال مغطى بالشعر المخلوط بغبار معركة الأمس ، وبسط يديه وأخذ يصلي قائلاً : «أيها الرب الخالق ، يا مجد هذا الكون وقوته ، أيها المخلّص التي لا يخذل ويا رب العالمين. أنت يا من بعهدك تنظم الأشياء فتتحرك بحركتك. أنت يا من يبدّل الفصول ولا يتبدّل. أنت تملأ النهار باثنتي عشر ساعة متساوية ، وتجدد الأشياء جميعاً في نظام. ولكن ما من أحد يجددك ، لأنك فاطر هذه الأرض وسيدها ومؤسسها. إنّني أومن بك ، أيها الأب القادر ، وأشهد بعظمة قوتك. إن هذه الآلهة الشريرة تخدع هذه القبائل التعسة التي تؤمن بها. ومع ذلك ، فإنك غالباً ما تمتحن المؤمنين بك وتبتليهم ، لكن سرعان ما تنتشلهم من محنهم بفضل ما تفيض به قلوبهم من التقوى. اقترب منا ، وليكن في وجودك خير عزاء لرجالك المكدودين. ردّ الى الجنود الرومان عزيمتهم ، والحق الهزيمة بقبائل ماسيليانس (Massylians) [٥] المغرورة التي تطلب الحرب. إنني أضرع اليك أن توقف هذا الدمار الذي يلحقنا وأن تحيطنا بعنايتك ، فأنت هادينا» .

وفيما كان القائد يتمتم بصلاته ، غمره شعور التقوى واغرورقت عيناه بالدموع التي سالت على وجهه ، وأخذ يئن ويتوجع وهو مهموم بالأخطار التي تهدد ليبيا. وعندها ، سمع الرب كلمات القائد المتوجع ورأى دموعه الغزيرة ، فجرت مشيئته ببعث الحياة من جديد في القوة اللاّتينية. ووصلت قوات الحلفاء التي شتتها الحرب والخوف من الأعداء. وأبلغوا القائد بأن كثيراً من الرجال لم يصابوا بأذى وأنهم ينتظرون في يونكي (Iunci) [٦] لكي يتبعوه. وجمع القائد رجاله بقرع الطبول النحاسية الأسوات ، وتجمهر الرجال خائفين على هيئة دائرة وأحاطوا به في حزن والدموع تسيل فوق صدورهم. فخاطبهم القائد الطيب بكلمات رقيقة وأخذ يشجعهم ويزيل عنهم مخاوفهم قائلاً : «لا داعي لهذه الدموع التي تحطم أرواحكم في القتال. إن الجنود الرومان لا ينهارون أبداً أمام الظروف المعاكسة. لم هذا النحيب ، أيها الأصدقاء؟ انظروا عاد جميع حلفائنا من وسط جنود الأعداء دون أن يلحقهم أذى ، وأبلغونا أن آخرين قد نجوا من المعركة. فإذا كان حلفاؤنا لا يزالون على قيد الحياة ، فلا يمكن أن نتصور أن أحداً منا قد فقد شيئاً على أيدي الأعداء. إن الغنائم التي تأسفون لاستيلاء هؤلاء الرجال

---

(٥) ماسيليانس (Massylians) اسم قبيلة يطلقه الشاعر على الليبيين.

(٦) يونكي (Iunci) : مدينة تجمعت بها قوات يوحنا المهزومة وهي تقريباً صوب قرطاج . ويسميها المؤرخ بروكوبيوس (Procopous) باسم يوكي (Iouce) (8 :15 :1). ويرى البعض أنها مكان قرية قصر يونقا الحديثة (Ksar Unga Shea) صفحة ٥٠).

عليها ، ستظل في أمان وقد تزداد . وإن العدو الذي تشاهدونه وقد ركبه الغرور بعد تلك ١٢٥/١٥٤
المذبحة السهلة ، سيرى كم سيكلفه هذا من باهظ الثمن على أيدي القوات الرومانية في المعركة .
ولسوف تسعدون عندما تحملون غنائمكم وغنائم الليبيين على السواء . أريحوا نفوسكم
وأطرحوا الهموم عنكم ، واطردوا هذه المخاوف الكريهة من قلوبكم ، أيها الجنود اللاّتين . إن
النصر سيكون حليفنا » .

وأخذ القائد يخاطب جنوده بمثل تلك الكلمات ليعيد البهجة الى نفوسهم . وعلى الرغم من
شعوره بالخوف والكرب ، ملامح وجهه كانت تنطق بالسعادة وهو يخاطب أصدقاؤه وكان
مظهره يبعث الأمل في نفوسهم ، بعد أن نجح في وأد همومه في قلبه . وبعد ذاك ، أخذ يجمع
صفوف القوات الرومانية ، وهو في طريقه الى يونكي (Iunci) [٧] ، ورتب الأمر لإعادة القادة
والقوات والمدافعين الشجعان الى مراكزهم ، وليستعيدوا خيولهم المكدودة ، ثم أخذ يعد العدة
للمعركة الوشيكة . واندفع القائد بنفسه في قوة ونشاط يجوب الشريط الساحلي حيث كان
يأمل أن يستعيد حلفاءه عن طريق تزويدهم بمؤن وجرايات منتظمة . وبعد ذلك ، ترك
الشاطىء واتجه صوب الأسوار الموجودة على المرتفعات . ووسط احدى الغابات ، تقوم مدينة
(Laribus) [٨] آمنة ومحصنة بأسوار جديدة أقيمت بأمر من صاحب الجلالة الأمبراطور
جوستينيان (Justinian) [٩] ، حاكم العالمين الشرقي والغربي ، وفخر المملكة الرومانية . وهناك
أمر القائد حلفاءه بأن يجتمعوا به على عجل ، رفقة الضباط والقبائل التي كان يعلم أنها كانت
موالية لألويته في الجولة الأولى .

كانت مدينة صور(Tyrian) [١٠] قد هزّها النبأ الفاجع عن تلك المعركة وبسبب مصرع
الرجال فوق تلك السهول القاسية . ولقد أصيب البعض بالبكم عندما سمعوا بالنبأ ، إلّا أن النبأ
كان يحمل في طيّاته أملاً واحداً أعاد الثقة الى نفوسهم ، عندما أكّد أن قائدهم قد نجا من
المعركة .

(٧) يونكي (Iunci) : مدينة تجمعت بها قوات يوحنا المهزومة وهي تقريباً جنوب قرطاج ، ويسميها المؤرخ بروكوبيوس (Procopius) باسم (Iouce) (B. Vand. 1: 15 : 8)
ويرى البعض أنها مكان قرية قصر يونقا الحديثة KSAR UNGA (SHEA صفحة ٥٠) .

(٨) لاريبوس (Laribus) : مدينة (Lorebeus) بجنوبي أوتيكا ذكرها المؤرخ بروكوبيوس Procopius كمكان لإعادة تجمّع قوات يوحنا (SHEA صفحة ٥٠)

(٩) أمبراطور بيزنطة .

(١٠) تيريان (Tyrian) يعني قرطاجة .



وفي غضون ذلك ، كانت الرسالة المفجعة قد بلغت مسامع زوجة الضابط جون (John) [١١] الذي لقي مصرعه في المعركة ، فسرت البرودة في قلبها المكلوم وأخذت ترتجف حزناً ، وقد كسا الشحوب وجهها فجأة . وتهاوت المرأة التعسة وقد حجب الحزن عنها ضوء النهار ، بعد أن لفّ السماوات والأرض بظلام مطبق . ونظراً للوهن الذي أصاب جسدها ، فقد أغلقت صورة الموت عينيها بعض الوقت . وهرعت اليها وصيفاتها بسرعة ورفعنها بعد أن تهاوت . ثم أخذن يدلكن صدرها بأيديهن فارتدت وعيها بصعوبة . وجلست المرأة بعد أن رفعتها الأيدي الحانية ، ولكنها لم تحرك عينيها وظلت تحدق في فراغ ، فقد كانت فاقدة الوعي ، يقهرها الحزن حتى أنها غفلت عن نفسها . ولكن سرعان ما استردت المرأة الواهنة وعيها ، وإن ظلت مضطربة . وفي غمرة حزنها الأولى أخذت المرأة المكروبة تنوح قائلة : «إن قلبي حزين ولكن عيني لا تذرفان الدموع . لم لا تنطلق صرخات اللوعة من فم المرأة التعسة؟ هل يتخلّى الحزن الجارف عن الروح وسط مثل هذه المعاناة ، أم أن الحزن نفسه لا يعرف الدموع والكلمات؟

(١١) جون (John) : روماني .

هل كان حظي التعس هو الذي دفع بي كإنسانة غريبة الى ليبيا. أتبع جيوش زوجي في البر ١٧١ /٢٠٥ والبحر؟ لماذا لم ألق مصرعي أثناء المعركة؟ لو أنني مت، لكان القبر الكئيب قد احتوانا معاً، وابتلعنا في هوة انشقت فجأة في الأرض. عندئذ كنت ويدي في يده، قد ربطت بين قلبينا الرقيقين، وأحسست بجسدينا ملتصقين وزوجي يحتضني بين ذراعيه. لقد كان جميلاً أن نموت حتى ونحن في حزن وكرب، وأن أكون رفيقة دربه الى العالم الآخر. آه لو أن الأقدار قد منحت هذه الفرصة لإنسان يحب بكل هذه العاطفة الجيّاشة. آه، أيها الرجل التعس الذي كانت القبائل الهمجية ترتجف أمامه، إنّك ترقد إلى الأبد ملفوفاً بالرمال. إن بسالتك هي التي دفعت بك الى الموت. لماذا آثرت أن تعود وحدك، عندما كان رجالك يلوذون بالفرار، وأخذت والثقة تملأ نفسك، تطارد تلك القوات التي لا حصر لها؟ إلى أين أجري وإلى أين أتجه؟ إلى أين أركض؟ ممن سأطلب العون؟ لقد كنت مصدر راحة لي في عذابي وشقائي. وكنت أثق فيك ولا أخشى أن أعبر البحر معك، عندما كانت الريح الغربية تتلاعب بسفننا المرتجفة تحت وطأة الأمواج العالية. يا زوجي الحزين، هل أستطيع بعد أن ثكلتك أن أخوض تلك العواصف من دونك؟ آه، لو أن القدر تلطّف بي وانتزع هذه الأحزان بمصرعي، ولم يتركني أعاني هذه الآلام الشديدة ما ظلت عروقي تنبض بالحياة؟ قد يكون الموت شيئاً رهيباً، إلّا أنه خير لي أن أكون مع زوجي جون ممسكة بيده، بعد أن حكمت عليّ الأقدار بهذه الفجيعة».

وبمثل هذا الصراع والعويل، ملأت المرأة المكروبة جنبات مدينة صيدا (Siodn)[١٢] وهي تتوجع والدموع تغطيها. وكانت الأسقف العالية تضخم من أصوات عويلها، وذرف جميع من حولها دموعاً سخينة وقلوبهم تتمزق لوعة وحسرة.

إلّا أن الأب القائد أثاناسيوس (Athanasius)[١٣]، بعد أن فكّر في تلك الهموم واحداً بعد الآخر، ولما كان حريصاً أشد الحرص على انقاذ الموقف في بلاده، فقد عمد الى تحريك جميع قواته للزحف على السهل الفسيح، والاسراع للإنضمام الى القائد الشجاع. ولقد كانت شيخوخته الموقرة كفيلة بإنهاض همم رجاله، كما أن توقيرهم له وحبهم لمثل هذا القائد العظيم كان أكبر دافع لهم على ذلك. ولقد كانت حماسته المفرطة وسنه المتقدمة وكفاحه وكلماته المشجّعة، خير

(١٢) سيدون (Sidon) : يعني قرطاجة.

(١٣) أثاناسيوس (Athanasius) : روماني.

٢٠٦ / ٢٣٩ مساعد على تهدئة لواعج الحزن في نفوسهم . وهكذا أخذ القائد الأب يصدر أوامره ، بإرسال كميات كبيرة من المؤن ويحث حلفاءه على النهوض للقتال والزحف ، في حين بعث بنصائحه الودية لقائده الشجاع . ولم يتقاعس الصبي الرائع بطرس (Peter) [١٤] عن ترتيب جميع الأشياء وأصدر أوامره لأتباعه المعروفين بخفة حركتهم بنقل الرسائل بينه وبين والده ، كما لو كان شيخاً طاعناً في السن . لكم كان هذا الصبي يستحق كل تقدير وإكبار . أنظروا ، إن التقوى التي كان والده يتحلّى بها دفعته الى التفكير في حماية ليبيا مع مولاه . ومهما فكرت أو تكلمت عن هذا ، فإنّه لدليل أكيد على أنك ، وأنت ما زلت صبياً ، كنت تفكر في مثل هذه الهموم بقلبك . إن مجرد ذكر اسمك كان يدخل الرعب في نفوس القبائل ، لقد كانوا يرتعدون فرقاً ويصيبهم الوهن والضعف بسبب خوفهم ، وعندما كانوا يسمعون اسم الصبي بيتر ، كانوا يعربون عن ذلك الخوف بحركات أعينهم وأيديهم .

ولقد كان الأتباع رائعين بالمثل ، وهم ينهضون بكل مسئولية ويبدون كل ضروب المهارة في سبيل المملكة والقائد العظيم ذي البأس . فيدفعون قواتهم المترددة الى القتال دفعاً . لقد كانو يحضّون رجالهم ، ويتحكمون في إرادتهم بما كانوا يصدرونه من تعليمات . كان الواحد منهم يتوسل الى رفاقه بالدعوات ، فيما كان الآخر يوبّخهم بخشونة . لأن الأتباع كانوا في مثل هذه الظروف الحرجة يحتقرون ميل المواطنين للتأخير والإبطاء . يقيناً ، فإن حزن هؤلاء الرجال وأسفهم على ما حلّ بأولئك الرجال ، وحبهم ليوحنا (John) العظيم ، كان يحركهم . كان كل منهم يتذكر في هدوء تلك الوجوه التي اختفت وكان يراها ويسمعها بعين خياله . وكان كل منهم يتضرع الى الرب لكي يكتب السلامة والنجاة لقائدهم العظيم . وكان كل منهم خائفاً ، وهو يفكر في تلك الأمور فيما بينه وبين نفسه . وكان يضني قلبه التقي بالتفكير في تلك الأمور المحزنة ، تماماً كما كانت الحال بالنسبة للقائد الأب ورفيقه ريكيناريوس (Receinarius) ويقيناً ، لقد كانت قلوبهم حزينة إزاء هذا القدر الكريه ، وكان كل منهم سيحترق شوقاً لبدء الرحلة ، ومشاهدة القوات المحبوبة ، وتقبيل قدمي القائد ، مع اعتبار تام لجميع المسئوليات .

كانت العربات المشحونة تئن فوق الطريق ، وكان الدرب مملوءاً بأعداد غفيرة من الجمال . وكان الحديد يضرب النحاس فيصدر عنه أصوات مدوّية ، وهم يجمعون المؤن من الحبوب فوق السهول الفسيحة والأسلحة الكثيرة التي يزود بها جيش اللاتين عادة . وكان الضباط

---

(١٤) بطرس (Peter) : بطرس ابن القائد يوحنا .

والمدافعون يجرون في كل اتجاه وهم يلبسون شعار النسر المنتصر ويجمعون صفوف رجالهم الى ٢٤٠/ ٢٧١ بعضها.

ولقد أوفد القائد الضابط يوحنا، ابن ستيفان (Stephan) [١٥] وهو جندي شاب يتحلّى برجاحة العقل والمهارة في التوفيق بين طرفين، في مهمة خاصة. ذلك أن ايفسدايين (Ifisdaian) [١٦] الهمجي، والقائد المخلص كوسينا (Cusina) [١٧] كانا قد بذرا بذور حرب ضارية بكل ما في قلبيهما من حقد متبادل. وكانت الحرب التي كادت أن تبدأ قد أججت النيران في قلوبهم البربرية، ودفعتهم الى القيام بتحركات وتحركات مضادة، كما أن الغيرة كانت تضاعف من غضبتهم. ومن ثم فقد طلب القائد من يوحنا أن يرتب صلحاً دائماً بين الطرفين، وأن يعمل على تهدئة الجانبين، واستدعاء قبائلهما للمعاونة في هذا الأمر. إن أي رجل آخر ما كان ليستطيع أن يؤثر في عقولهما أو تهدئة نفسيهما، ولكنه كان قادراً على ترويض النمور المتوحشة بكلامه، وتهدئة الأسود الضارية بكلماته السمحة الرقيقة، وعلى أن يمنع الأفاعي من نفث سمومها المميتة بكلامه. فلقد عمد الى التفريق بين الرجلين وهما يتلظيان بنيران القتال على الجانبين، وبحث ذلك التطور الخطير، واستطاع أن يصوغ معاهدة للقبيلتين بما عرف عنه من مهارة وذكاء. لكم واجه من المخاوف والمشاق وهو يسعى وسيطاً بين الرجلين، وهو يعمل على تهدئة مراجل الغضب في قلبيهما. ولكنه كان سعيداً بتحمل هذه الأخطار الداهمة من أجل بلاده. واستطاع أخيراً أن يسوّي المنازعات بين القبيلتين وأن يحركها بالمثل الى ساحة القتال.

وبعد ذاك، أخذ القائد المخلص كوسينا (Cusina) [١٨] وهو يتقد حماساً، ومسلحاً بشتى الأسلحة، يجمع قوات لا حصر لها من رجال ليبيا، ويقودهم الى المعركة. ولقد كانت الأرض تئن تحت أقدامهم وهي تطأ السهول الفسيحة. وقام ذلك القائد الشجاع بتسليم قادته الثلاثين، وعلى الرغم من أن كل واحد منهم كان يقود آلافاً من الرجال، إلّا أنه كان جد سعيد بأن يكون قائداً وسط الجنود الرومان الذين كان أعظم أباطرة العالم يتخذ منهم حلفاء في السلم ورفاقاً في الحرب. وعلى هؤلاء كان الأمبراطور يضع تبعة الحاق الهزيمة بالقبائل وانهاء الحروب.

(١٥) ستيفن (Steogan) : روماني.

(١٦) آيفيسدايان (Ifisdaian) : ليبي متحالف مع الرومان.

(١٧) كوسينا (Cusina) : ليبي متحالف مع الرومان.

(١٨) كوسينا (Cusina) : ليبي متحالف مع الرومان.

٢٧٢ / ٢٩٦ ووصل آيفيسدايوس (Ifisdaius) مع مائة ألف من رجاله ، وغطّى سهل آرساريس (Arsaris) [١٩] الواسع بقطعان ماشيته . ولقد كانت قواته مع ذلك ، أضعف من ناحية البسالة . وقام بتسليح صف من المهاجمين بشتّى الأسلحة فكان منظره مرعباً ، واشتبك هذا الصف من الرجال في معركة حامية مع العدو مستخدماً أعداداً كثيفة من السهام . كذلك فإن آيوداس [٢٠] خادم مملكتنا قدّم يد المعونة . فقد قام هو وابنه بتسليح اثني عشر ألفاً من رفاقهما . وفي نفس الوقت ، قاد الشيخ بيزينا (Bezina)[٢١] قوته برمّتها للانضمام اليهم ، وملأ الحقول برعاة الماشية .

وعندما عزز القائد قوته بهذه القوات التي لا حصر لها ، بدأ في تحريك ألويته واتجه صوب ساحة المعركة الضارية ، وتلك القبائل المتوحشة تتدفق أمامه مثل الأنهار . وعلى سهول مامينسن (Mammensın) [٢٢] كانت قبائل أوستور (Austur) [٢٣] تعمل القتل في سكان الريف بأسلحتها المميتة ، وتستولي على جزء من بيزنطة مع نصيبهم الثاني من الغنائم . وكان أنتالاس (Antalas) [٢٤] قد التحم مرة أخرى بقواته التي انضمت لقوّات العدو ، وكان في سبيله للمعركة . وامتدت اشاعة وصول القائد الى معسكر قوات سرت [٢٥] بسرعة فائقة . وسرت تلك الإشاعة على طول الساحل . ودبّ الذعر في نفوس الأعداء المغرورين عندما سمعوا ذلك النبأ الذي كان يحمل في طياته أعداد القبائل الكثيرة التي جاءت للمعركة لمساعدة القائد . ولقد أثار النبأ غضبهم ، إلّا أن أنتالاس (Antalas) المتوحش أفهمهم بدهائه المعروف أن جماعات الليبيين التي انضمت الى الألوية اللّاتينية ليست رجال حرب . وحينذاك أعرب كاركاسيان (Carcasan) [٢٦] عن رغبته في لقائهم . ولقد استطاع آيونفيان (Iuenfeian) أن يوقف تقدمهم ببذل النصيحة لهم . قال مخاطباً أنتالاس (Antalas) : أيها

(١٩) آرساريس (Arsaris) أوارسوريس حوش الزنفور الحديثة HAOUCH EL-ZANFOUR ويضعها بلطليموس بين THEVESTE و SICCA VENERIA

(٢٠) أيوداس (Iaudas) : ليبي متحالف مع الرومان .

(٢١) بيزينا (Bezina) : ليبي متحالف مع الرومان .

(٢٢) (Mammensın) منطقة يحدد بروكوبيوس Procopius بأنها على حدود ولاية نوميديا الغربية أو الجزائر الحالية .

(٢٣) أوستور (Austur) من بين القبائل الثائرة هذه القبيلة .

(٢٤) انتالاس (Antalas) أحد قادة الثورة الليبية .

(٢٥) قوات (Syrtic) : أي قوات منطقة سرت .

(٢٦) كاركاسان Oarcasan : أحد قادة الثورة الليبية .

القائد العظيم ، إن أردت أن تلحق الهزيمة بالرومان فاستمع الى هذه الكلمات المنقذة بأذن ٢٩٧/٣٣٣ صاغية ، وأعلم ما ينبغي عمله . يجب ألّا تدخل المعركة في هذه الأرض . إن رجالك الشجعان الذين لم يذوقوا مرارة الهزيمة في الحرب حتى الآن ، يتصفون بالخشونة وقوة الشكيمة ، إلّا أنك لن تستطيع بهؤلاء الرجال أن تصمد للعدو عندما تستعر نيران المعركة ، أو أن تواجه اللاتين قبل أن يضنيهم الجوع . ولكن ، قم بتحريك قوتك وتظاهر بأنك تهرب الى المؤخرة . ومن المؤكد أن جيشهم القوي سيقوم بتعقبنا أثناء هروبنا . وعندئذ تقوم بتخريب جميع الحقول ذات المحاصيل الناضجة ، فلا يجدون أية مؤن . وهذا سوف يؤدّي ، إمّا إلى تبعثر قوات العدو ، أو إلى فنائهم جوعاً . وعندها سوف تنتصر لو دخلت في معركة ضارية معهم ، لأن المهزومين سيسقطون صرعى الجوع أو السيف» .

ولقد وجدت تلك النصيحة المشئومة صدى في نفس القائد الذي امر بإزالة المتاريس والخنادق . ومن ناحية أخرى ، قام القائد الروماني الشجاع بتعقب القوات الهاربة بسرعة مضاعفة . وعندما اقترب من العدو ، أخذ يحاول تجميع ألويته معاً والاشتباك في المعركة . إلّا أن الله الذي لم يكن قد أنعم على القائد بفرصة الانتصار حتى ذلك الوقت ، شاء أن يبقى جيشه بعيداً عن المعركة ، مدخراً إيّاه لانتصارات أفضل . وحينذاك كان طابور الجنود مستمراً في زحفه فوق السهول المنبسطة ، واتضح من الغبار المتصاعد أن العدو لم يكن يسبق الجنود بمسافة كبيرة . وامتلأت قلوب الجنود بالشجاعة وكانوا على وشك الدخول في المعركة عندما بدأ الجو يسخن فجأة . كانت الشمس قد بلغت ذروتها واستقرت في كبد السماء . وفي ذلك الوقت ، لم تكن هناك سوى ظلال أقدام الرجال . وبدأت الريح الأفريقية التي تنفث النار تحرق الأرض بهباتها العاتية ، فتشتت قوة الرجال ، وتطفىء جذوة الحماسة في قلوب الجنود . وتصلبت أجساد الرجال تحت وطأة هبات تلك الريح العاتية ، وجفّت حلوقهم واحمرّت وجوههم ، وأخذت أنفاسهم المتلاحقة تهز صدورهم ، فقد كانوا يتنفسون ناراً ويخرجون ناراً من أنوفهم . وعندما جف لعابهم وسرت السخونة في شفاههم الجافة ، وسرت حرارة حارقة في حلوقهم . وتحركت جميع السوائل في أجسادهم وأخذت تتدفق خارجة من أعضائهم الداخلية ، ثم أخذت تتدفق على جلودهم ، وسرعان ما كانت سخونة الهواء الشديدة تجففها وتبخّرها ، وهكذا كانت السوائل تنتزع من أجسادهم وهي بعد دافئة .

وعندما شاهد القائد يوحنا ذلك ، عمد الى تأخير المعركة ، وقاد قواته العطشى الى

٣٣٤ / ٣٦٦ موقع ينبوع مياه عذبة. وتجمع الجيش الذي كان يحترق عطشاً عند المياه الباردة وانكب يروي عطشه منها. وعلى نفس الصورة تتجمع أعداد لا حصر لها من النحل على قنوات المياه في حديقة عندما تعود والشمس في كبد السماء. بعد أن نالت نصيبها من الغذاء، وتبدأ أسرابها صانعة العسل تشرب من مجاري المياه المتدفقة. وعلى نفس الصورة، تندفع جميع أنواع المخلوقات الى ضفاف مجاري المياه، بعد أن تحرقها الشمس بشواظها، وعند ذاك، فإن اللجام لا يمنع الخيول المروضة من الارتواء من الماء، كذلك فإن الحبال المتدلية من أفواه الجمال لا تمنعها من ورود الماء، وتختلط المخلوقات جميعاً وتشرب من المياه وهي تتدفق من كل الجوانب. أما الجنود فقد كانت أجسادهم تسخن وهم يشربون، ويحسون بظمأ أكبر. كان أحدهم راكعاً أمام الماء يروي ظمأه، فيما كان الآخر يغرف الماء بيديه، وثمة آخر يمدّ جسمه ويلعق الماء بلسانه. وكان ثمة جندي يشرب من جرّة، فيما كان آخر يمسك بوعاء وجرة. وعند ذاك نضبت المياه واختفت تماماً، وأخذ المحاربون يلعقون بألسنتهم الرمال التي اتسخت بفضلات الخيول التي مرّت عليها. إلّا أن الرجال الذين أحرقهم الظمأ لم يرفضوا حتى الماء المخلوط بروث الخيول. والى هذا الحد تدفع هبات الحرارة الشديدة التعساء من الرجال.

وعلى الطرف الآخر، كان معسكر جنود سرت (Syrtic) (٢٧)، يعاني من لهيب الحرارة والفوضى التي دبت في صفوفه بسبب الخوف المفرط من العدو. ففضلاً عن الحرارة التي لا تطاق، فإن خشية العدو كانت تضنيهم وتضاعف من إحساسهم بالظمأ، ومن ثم دفعتهم الى مزيد من المخاطرة. ومع ذلك، فلقد كانت تلك الريح الافريقية الشديدة السخونة عائقاً في سبيلهم، ومنعت الجنود المهزومين من التحرك وكان الأسرى الأفارقة يتعرضون لخطر الموت الرهيب. ولقد حاول الغزاة النهّابون أن يدفعوهم الى الأمام. إلّا أن لهيب الحرارة الشديدة منعهم من ذلك. لقد كان هؤلاء التعساء واقعين بين نارين، السياط التي تلهب ظهورهم، ولواظ النار التي تحملها الريح الأفريقية، فدبّ الاضطراب والفوضى بين صفوفهم. وكان هذا الحشد من الأسرى يتساقط وهو يئن فوق الحقول، في انتظار ما تجري به الأقدار عليهم في تلك البقاع الجرداء المهجورة. كان الواحد منهم يسقط تحت وطأة الحرارة الشديدة، أو بضربة سيف أو رمح أو بكليهما معاً، لأن الغزاة كانوا يعملون سيوفهم في كل من تتردد في صدره أنفاس. ثم هبّت ريح عاصفة أوقعت الاضطراب في صفوف المغاربة وأخذ الموت يلاحقهم، وسقطت معهم خيولهم المكدودة فوق الأرض المغطاة بالحشائش، بعد أن

(٢٧) (Syrtic) : قوات منطقة سرت يعني القوات الليبية.

أوقعها حظها العاثر في تلك المحنة. ومع ذلك، فقد كان الموت يدفع بجماعات الأعداء الى ٣٩٦/٣٦٧ الأمام ويكرههم على التوغل في الصحراء، كما حال بينهم وبين اقامة معسكر يحميهم، واضطرت القبائل الماسيلية (Massylian) [٢٨] الى الفرار صوب المناطق المترامية الأطراف. وظلت الريح الأفريقية تهب طوال خمسة عشر يوماً وتزداد سخونتها باطراد، وتحرق كل شيء في طريقها بلفح نيرانها. وطوال تلك الفترة كان العدو يهرب من خصمه ويدفعه الرعب الى الابتعاد عن جيش اللاّتين المرهق.

وأصدر القائد أوامره باستطلاع مراكز العدو، فخرج المدافع على رأس قوة من الفرسان الذين يحترمونه ويقدرون له شجاعته. لقد كان القائد على معرفة تامة بمنزلة الرجل وشجاعته، وكان يعلم أنه لا يقلّ بأساً عن هرقل(Hercules)، في صرع الأعداء. كان الرجل مشهوراً بخفة حركته، مهاباً لما يتمتع به من قوة جبّارة، حصيفاً في مشورته. فحتى عندما قامت القبائل الليبية بسدّ جميع المنافذ بالمتاريس، استطاع أن يتفوق عليها، وكان غالباً ما يسحق تلك القبائل المتوحشة بجيشه اليقظ. كانت قبائل لواتة (Illasguas) [٣٠] المهزومة، ترتعد خوفاً أمام هذا الرجل أثناء القتال، وكذلك كانت الحال بالنسبة لقبائل فريكسيس (Frexes) [٣١] وقبائل نافور (Naffur) [٣٢]. بل إن طاغية شعب الوندال (Vandal) كان يخشاه. ولذا، فقد كان الأب والقائد فخوراً بهذا البطل الشجاع، الذي كثيراً ما شوهد وهو يقوم بأعمال رائعة مع جيشه. فعلى يديه تم تسليم المتمردين الذين أسرهم في المعركة. وكان الجنود الرومان الشبّان يعرفون أعماله البطولية التي عادت عليهم بغنائم هائلة اسعدت قلوبهم. ولقد سار البطل الى حيث أمره القائد. وكان يعلم أن العدو المخرّب يحتل حقول يونكس (Lunci) [٣٣] بالقرب من البحر. وكان يعلم أن العدو يهيم على وجهه بلا حذر ويحرق جميع المزارع بإضرام النار فيها. إلّا أن القائد كايسيليدس (Caecilides) استطاع أن يستولي على عدد من المخابئ تحت جنح الظلام، وأخذ يقترب بسرعة من أسوار المدينة المضطربة، وسط صفوف العدو نفسه. الى هذا الحد كانت ثقته في سيفه. إنني أغني

(٢٨) ماسيليان (Massylian) : يطلقها على الجيش الليبي.

(٢٩) كايسيليديس (Liberatus (Caecilides) : روماني.

(٣٠) يالاسجواس (Illasguas) : لواتة.

(٣١) نافور (Nafur) : قبيلة ليبية.

(٣٢) فريكسيس (Frexes) : قبيلة ليبية.

(٣٣) يونكي (Iunci) : مدينة جنوب قرطاجة.

٣٩٧ /٤٢٧ لأشياء مجهولة . لقد كان الرجل لا يرهب الأخطار في سبيل وطنه . وهكذا كان قادراً على تنفيذ أوامر قائده وعلى تحمّل المشاقّ المضنية . ولقد استطاع أن يدخل من بوّابات المدينة وأن يستكشف الأماكن السرية لخنادق العدو واحداً بعد الآخر ، واستطاع أن يلمّ بمواقعها جميعاً في هدوء الليل ، ومن ثم ، قفل عائداً إلى رفاقه ، ثم اتجه صوب قائده . إن هذا الرجل نفسه قد استطاع لتوه أن ينسل بين جماعات لا حصر لها من النهّابين المخربين دونما خوف ، وعندما شاهد خيام قبائل مارماريكا(Marmarican) [٣٤] عن بعد ، أدرك أن تلك القبيلة لا تشكّل خطراً على رجاله . وعندما وجد أن العدو يعمل التخريب هنا وهناك ، ازداد سخطه وخاطب رجاله قائلاً : «لو أننا اكتفينا بوصف ما شاهدناه للقائد ، فلن يكون كلامنا جديراً بالثقة تماماً ، إذ لا بدّ لنا جميعاً أن نقرّ بأننا لا نعرف إلّا الأماكن التي تكثر فيها الخنادق فحسب . ولكن ، إذا استطعنا أن نأتي قائدنا بمخططات هؤلاء القوم ، فسوف يكون ذلك إنجازاً عظيم القيمة لمملكة اللّاتين . أيها الرفاق ، إن هذا وقت العمل ، فلنعمل على أسر بعض رجال العدو أحياء فيما لو أتيحت لنا الفرصة لذلك ، ولا شك أن هؤلاء الأسرى سيكشفون لقائدنا جميع أسرار [٣٥] كاركاسان (Carcasan) » . وانتظروا ، عندما انتهى من خطابه ، جاءه المحارب فارينوس (Varinus) الرهيب ، على رأس جماعة من رجاله الكالحي الوجوه يبغي القتال . لقد كان ذاك هو نفس الرجل الذي فشل سولوموث (Solomuth) [٣٦] في أن يصرعه بسيفه ، عندما هرب من أمامه كأنما يطير بجناحين . لقد كانت أواصر الدم تربط بين الرجلين ، وكانا معروفين بأنهما جنديين شديدي البأس في القتال ، وعندما شاهده ليباراتوس (Liberatus) متجهاً نحوه لمهاجمته ، ويده اليمنى مرفوعة استعداداً للقتال ، فقد اندفع قبله وهاجم قوات فرسانه . واستطاع أن يخترق صدر فيومان (Veuman) [٣٧] المتوحّش برمحه القوي ، ثم أعمل سيفه تقتيلاً في كل من مارزين (Marzin) [٣٨] والأسود لامالدان (Lamaldan) [٣٩] ، وزياس (Zias) [٤٠] ثم ضرب تيفيلان (Tifilan) [٤١]

---

(٣٤) مارماريكان (Marmarican) : يعني الجيش الليبي .

(٣٥) فارينوس (Varinus) : ليبي .

(٣٦) سولوموث (Solomuth) : روماني .

(٣٧) فيومان (Veuman) : ليبي .

(٣٨) مارزين (Marzin) : ليبي .

(٣٩) لامالدان (Lamaldan) : ليبي .

(٤٠) زيياس (Zeias) : ليبي .

(٤١) تيفيلان (Tifilan) : ليبي .

الشجاع ، وبوركانتا (Burcanta) [٤٢] ، وناثون (Nathun) [٤٣] ، وسيرزون ٤٤٥/٤٢٨ (Sarzun) [٤٤] وتيلان (Tilan) [٤٥] ، وحامل السيف نيكان (Nican) [٤٦] ، وبرمحه استطاع أن يصرع آسان (Asan) [٤٧] الرهيب ، وديكستير (Dexter) [٤٨] الذي كان شاهراً رمحه لمهاجمته ، وأن يلحقهم برفاقهم من القتلى . واستطاع بيتر (Peter) [٤٩] أن يخترق جسد تافاران (Tafaran) [٥٠] الجسور برمحه ، واستدار ليلاقي أياماداا (Iammada) [٥١] الذي هاجمه أثناء المعركة ، فضربه بسيفه ومزق شرايين جسده وحطّم وجنتيه . ومن ناحية أخرى ، أعمل ستيفانوس (Stephanus) [٥٢] سيفه في كل من آلتيسان (Altisan) [٥٣] ، وتاراه [٥٤] ، وجوقورثا (Jugurtha) [٥٥] ، فيما نجح بريسكيوس (Priscus) [٥٦] في قتل موريفيروس (Muriferus) [٥٧] ، وكاروسوس (Carosus) [٥٨] ، وآيليداسين (Ielidasen) [٥٩] ، وسيلفيتوس (Silvitus) [٦٠] ، وزيمبروس (Zembrus) [٦١] ، واستطاع جرورجيوس (Grorgius) [٦٢] ، أن يصرع اسبور (Aspur) [٦٣] بعد أن اخترق رمحه أعلا فخذه .

وعمدت القوات الليبية المقهورة الى الفرار ، فأخذ الجنود المنتصرون والمدافعون عن الشعب في تعقبهم . وامتلأ الجو بسحابة كثيفة من الغبار أثناء عملية الفرار ، وكانت الأرض التي غطّتها الرمال تدوي بأصوات سنابك الخيول . وكان الطرفان في سباق محموم . والفرسان يلهبون أجساد الخيول بمهاميزهم ، وكان الغبار يثور في أعقاب صفوفهم وميز

---

(٤٢) بوركانتا (Burcanta) : ليبي .

(٤٣) ناثون (Nathun) : ليبي .

(٤٤) سيرزون (Sarzun) : ليبي .

(٤٥) تيلان (Tilan) : ليبي .

(٤٦) نيكان (Nican) : ليبي .

(٤٧) آسان (Asan) : ليبي .

(٤٨) ديكستير (Dexter) : ليبي .

(٤٩) بيتر (Peter) : روماني .

(٥٠) تافران (Tafaran) : ليبي .

(٥١) آياماداا (Iammada) : ليبي .

(٥٢) ستيفانوس (Stephanus) : روماني .

(٥٣) آلتيسان (Altisan) : ليبي .

(٥٤) تاراه (Tarah) : روماني (ربما حليف لليبيين) ..

(٥٥) جوقورثا (Jugurtha) : ليبي .

(٥٦) بريسكوس (Priscus) : روماني .

(٥٧) موريفوروس (Muriferus) : ليبي .

(٢٣) كاروسوس (Carosus) : روماني حليف لليبيين ...

(٢٤) آيليداسين (Ielidasen) (ليبي) .

(٢٥) سيلفيتوس (Silvitus) : روماني (حليف لليبيين) ...

(٢٦) زيمبروس (Zembrus) : ليبي .

(٢٧) جروجيوس (Grorgius) : روماني .

(٢٨) آسبور (Aspur) : ليبي .

٤٤٦ / ٤٧٩ الدروب التي سلكوها. وعندما كانت الرياح تنطلق من عقالها، كانت تدفع أمامها حبات الرمل في صورة دوامات. وبعدئذ هبت ريح الشمال المثقلة بالسحب، واكتسحت السهل بأكمله، ودفعت أمامها بدوامة رهيبة أخذت تدور بسرعة عندما قابلتها ريح الجنوب، فأهاجت أمواج البحر واكتسحت الأرض الرملية.

وحينذاك، أخذ الجنود، وقد تأججت في صدورهم نيران القتال، يتعقبون القوات الفارة عبر السهول. وتشتت الجنود المقاتلين وتعمل التقتيل فيهم. أما المدافع عن الشعب، فقد أبى أن يشترك في قتلهم، وأخذ بدلاً من ذلك يجري هنا وهناك على صهوة جواده السريع، في محاولة لأخذهم أحياء. ولذلك فقد أدار رمحه الطويل وأخذ يضربهم بكعب رمحه ويلقي بهم على الأرض. وقد اختار من بينهم أربعة من المغاربة بعد أن انتزعهم من بين ظهور فرسانهم، ثم شد وثاقهم، وبذلك أنقذ حياة هؤلاء الرجال عندما قيد أيديهم وساقهم الى القائد لكي يكشفوا له بألسنتهم عن أسرار كانت خافية عليه. وأثناء تلك العملية، أمسك بشجاعة بشعر فارينّوس (Varinnus) [٦٤] وجذبه من فوق جواده، فأخذ الفارس الناساموني (Nasamonian) يرتجف ويتعلق بيده اليمنى، ولكن المحارب الشجاع سرعان ما أرخى قبضته وألقاه على الأرض، ثم قفز بخفة من فوق ظهر جواده، وانقض بجسده على صدر ذلك المتوحش ولوى ذراعيه ثم قيّد يديه بنير قوي. وهكذا هزم فارينّوس (Varinnus) المتوحش، واقتيد مع رفاقه مقيد اليدين خلف ظهره. وأخيراً، وقف أمام قدمي القائد، برأس خفيض ووجه تعلوه الكآبة. وتدافع جنود الجيش الروماني بأكمله وتحلقوا حوله لرؤيته، وانضم إليهم قادة القبائل الماسيلية (Massylian) [٦٥] وهم في شوق لمعرفة أسباب ما قام به من عمل، والى من يتجه ولاؤه. وعندما طلب القائد من كايسيلانيدس (Caecilides) [٦٦] المنتصر أن يروي قصته، قال مخاطباً القائد: «امتثالاً لأوامرك، يا أعظم القادة، وبرعاية من المسيح أثناء القتال، زحفت بجوادي وسط صفوف العدو وشاهدت المعسكر التعيس الذي كان هؤلاء الرجال قد أقاموه على سهول يونكي (Iunci) [٦٧] التعيسة. وعندما دخلت المدينة المذعورة

(٦٤) فارينّوس (Varinnus) : ليبي.

(٦٥) ماسّيليان (Massylian): يقصد القبائل الليبية المتحالفة مع الرومان.

(٦٦) كايسيلايدس (Caecilides) : (Liberatus) : ضابط في الجيش الروماني.

(٦٧) يونكي (Iunci) : مدينة جنوب قرطاجة.

٤٨ /٥١٠

التي حاصرتها الحرب ، شاطرتها أحزانها . ومع ذلك ، فهناك شاهدت معجزات عظيمة ، ذلك أن مبانيهم كانت مكشوفة لا تحيطها التحصينات ولا تحميها إلا عناية الله . كذلك فإن أسطح المباني العالية لم تكن مزودة بأبراج للدفاع عنها لم يكن يوجد إلا قسيس يحاول أن يهدئ من روع الناس بكلماته الطيبة ، واستطاع بفضل السماء أن يؤثر في عقولهم البسيطة . ولقد كان الرجل قادراً بقوة منطقه أن يروّض الأسود الضارية وأن يهدئ من هياج الحيوانات المتوحشة . كان يستطيع أن يلطف من قلوب الذئاب فلا تؤذي الحملان الوديعة بأنيابها رغم جوعها . ولقد كان القسيس في نفس الوقت يشجع أهل المدينة حتى يتمكن من تحريضهم على الإسراع بدخول المعركة في أعقابنا ، ثقة منه في عدالة القضية الرومانية ، فإن أيدتهم ، فإنه لن يكفّ عن الدعاء الممزوج بالدموع لرجالك ولسلاحك وللقوة اللاتينية ، ذلك لأنه يصلي ويدعو على الدوام ضارعاً أن يسحق الله القادر أعداءنا ، وأن يجعل المغرور والمتكبر ذليلاً بسلطانه . وفيما كنت أغادر المكان ، قمت بأسر هؤلاء المتمردين بمجهود مضن ، ولسوف يكشفون لك جميع أسرار قومهم الأشرار ، ويمكنك أن تتعرف على مخططهم أولاً بأول . »

وانتهى المدافع عن حقوق الشعب تريبوني (Tribune) [٦٨] من وصف ما أنجزه من أعمال ، إلا أن القائد واصل النظر الى الأسرى ، وهو يحدجهم بنظرة رهيبة ، ثم قال بغضب : «أيها الأشرار ، أية مغامرات تزمعون القيام بها ، أية أقدار تعسة دفعت بكم للعودة للأرض الليبية مرة أخرى لشن الحرب واقتراف ما هو محرّم ، والى أن تحاولوا ، بما هو معروف عنكم من أعمال السلب والنهب ، تخريب مساكن أهل قرطاجنة والشعب اللاتيني ... ؟ هل يظن كاركاسان (Carcasan) [٦٩] أنه قد انتصر علينا؟ ان الله سيقضي عليه بالاستسلام في وقت معين . ولسوف يشاهده الشعب الروماني مقيداً بالسلاسل بعد أن يتم أسره بنفس أسلحته . تذكروا قبل أن نطلق أصوات الأبواق أي رعب دفعكم الى مواصلة مؤامراتكم وخياناتكم وخداعكم . » ...

وهنا ردّ عليه القائد الناساموني (Nasamonian) [٧٠] الباسل بقوله :

---

(٦٨) تريبوني (Tribune) منصب إداري فرضته العامة ٥٠٠ و٤٥٠ ق . م للدفاع عنها ضد الأرستقراطيين . كانوا أثنين في البداية ثم زيد عددهم تدريجياً .

(٦٩) كاركاسان (Carcasan) : قائد الثورة الليبية .

(٧٠) ناسامونيان (Nasamonian) : ليبي .

٥١١ / ٥٤٢ «إن أمرك القاطع يدفعني الى الاعتراف بكل شيء. ان كلامك نفسه قد يتهددني بالموت الذي أستحقه، بيد أنني سأقول كل شيء. ان كاركاسان (Carcasan) [٧١] الشجاع هو قائد جيشنا. وان أعظم آمال مملكتنا رهن بقيادته، وستظل كذلك على الدوام. ان أمون المتنبئ قد أعلن هذا أمام قبائلنا، وقال ان الليبيين سيفوزون بسهل بيزاكيوم (Byzacian) [٧٢] بالحرب، وانه سيسمح للقائد كاركاسان (Carcasan) بأن يسير منصوراً وسط الشعب الليبي وأن يعيد السلام للعالم. وبهذه النبوءة دفع أمون، إله الحرب، عدداً لا حصر له من القبائل الى مهاجمة أرضكم مرة أخرى. والواقع أن قائدنا كان يريد أن ينضم إليكم في المعركة، إلا أن ابن جوينفان (Guenfan)[٧٣] استطاع أن يبدل أفكاره، وأن يؤخر ما كان ينتويه هذا الرجل من عمل حربي، وأن يصرف تفكيره عن الحرب بما أبداه له من مشورة بالغة التأثير. لا بد لكم أن تصدقوا أن هؤلاء الرجال يلوذون بالفرار الآن، إلا أن ما يدفعهم للهرب ليس الرعب الشديد أو الخوف من هؤلاء الذين كانوا قد هزموهم. انهم يتظاهرون بالفرار حتى يواجه الجوع قواتكم، وهكذا فهم يدبرون المتاعب لكم بدهاء. لا تظنوا أبداً أن قبائلنا يمكن أن تلوذ بالفرار، حتى لو جاء الأمبراطور بنفسه وأفرغ العالم بأكمله بتوظيف كل موارده للحرب. بل أن ماكسيميانوس (Maximianus)[٧٤] نفسه لم يستطع الاشتباك مع قبائلنا في معركة مكشوفة رغم أنه يمسك بصولجان أمبراطور الرومان، رغم أنه استطاع مرتين أن يجتاح شعب قرطاجنة منتصراً في حربين ضاريتين. والآن، وأمون الذي لا يكذب قد بشّرنا بالفوز في الحرب بنبوءاته، هل تظن أن الشعب اللواتي (Languantan) [٧٥] قد لاذ بالفرار، أو يمكن أن يستسلم أمام ألويتك؟... ان ذلك هو ما تريده أيها القائد الشديد البأس، بيد أن أقدارك لن تمضي في هذا الاتجاه»... وهنا رأى القائد أنه ليس من المستحسن أن يترك ذلك الرجل المجنون يهذي على تلك الصورة، فأسكته بهذه الكلمات: «بلى، بيد أن مشيئة الأقدار سوف تقضي لكم بالتأكيد أن تمتلكوا هذه الأرض». وبهذه الكلمات، أصدر أوامره بنصب خمسة خوازيق خشبية في صف واحد، وأن يقطع أعناق الرجال الخمسة وتعلق على أعمدة ذات شقين. وسارع الأعوان بتنفيذ ما أصدره من أمر.

---

(٧١) كاراكاسان: (Carcasan): قائد التجمع الليبي.

(٧٢) (Byzacium): ولاية رومانية تضم معظم تونس الحالية.

(٧٣) جوينفان (Buenfan): = : والد أنتالاس.

(٧٤) ماكسيميانوس (Maximianus): أمبراطور روماني.

(٧٥) (Languantan): لواتة.



الكتاب الثامن

١ / ١٤ بعد أن علم القائد بذلك المخطّط الشرير ، وبعد أن اتضحت خيانتهم بكاملها ، أدرك أن تلك الأمة الكريهة لا تعرف التقوى الى قلوبها سبيلاً . وأخذ يتأمل تلك الأمور كلها وهو يحدج ببصره في سكون ، وأخذ يقلب في فكره جميع الاحتمالات المختلفة ، للتوصل الى ما ينبغي عمله ، ومن المؤكد أن تفكيره الراجح الرزين كان أقدر على قهر تلك القبائل من القوة المسلحة ، وأخذ يستعرض مختلف تلك المشكلات على الصورة الصحيحة لمعالجة الأمور ، وسرعان ما كان يضع كل أمر في نصابه ، ثم أخذ يستعرضها جميعاً في عقله . وعلى نفس الصورة ، فإن طائر السنونو الخفيف الحركة يطير هنا وهناك بحثاً عن طعام ليّن لصغاره . إنه يبحث بين الحشائش الخضراء القريبة من الأرض ، وهو يتنقل من مكان لآخر . ثم يبحث في أغصان شجرة وارفة وهو يشقّ الهواء بجناحيه في هدوء . وأخيراً ، استقرّ رأي القائد على خطة ،

١٥ / ٤٤ بعد أن أعمل فكره في هدوء، وخاطب رجاله قائلاً: «ان كركاسان (Carcasan) [١] لا يجرؤ على الصدام مع أسلحتنا معتمداً على قوته. ان هذا القائد العنيد يعمل بدهائه على التقدم بقواته لمضايقة كتائب القوات اللاتينية، ومع ذلك فهو على استعداد للهرب على الدوام. ان هذا الوغد قد يحاول الفرار بالخديعة، ولكنه لن يفلت منا. إنه سوف يقهر بمثل هذا الخداع. ولا بدّ أن أقيم معسكري وسط حقول ايونكي (Iunci) [٢] التي يحتلها هذا الناهب الآن. واذا ما أتاحت لي الأقدار فرصة الاشتباك معه في معركة، فلسوف أصرعه فوق هذه السهول. ذلك لأن جنودنا سيهاجمون بصورة أفضل في السهول المكشوفة، لا تعيقهم الخيول، وسوف يضربون بالرماح والعصي الطويلة ذات الرؤوس الحديدية. بيد أنه إذا عمدت هذه القبائل الشريرة الى الفرار من هذه الأماكن، فسوف نستولي على الشريط الساحلي قبلهم، حتى نضمن عدم خروج أية مؤن من هذه الأرض. وهكذا سوف يهلك عدونا. انهم لن يستطيعوا التحمل لمدة طويلة، ودون معركة، فإن الجوع الشديد سوف يهلك هؤلاء الناس الكريهين. إن البحر سيوفر لنا الغذاء، إذ سيجلب لنا جميع مؤوننا في الوقت المناسب، ويوفر لنا الطعام والماء على السواء. أيها الرجال، فككوا المعسكر وازحفوا بجميع ألويتكم.».

ولم يكد القائد ينتهي من خطابه حتى امتلأت السهول بالفرسان والمشاة. وبدأت الطوابير المتراصة الصفوف زحفها فوق الحقول، وأخذ صهيل الخيل يعلو أكثر فأكثر.

وكان كاركاسان (Carcasan) [٣] والمتوحش انتالاس (Antalas) [٤] قد تصورا مثل ذلك التحرك، بعد التحذيرات التي جاءتهما من كوكبات الفرسان اليقظة. وفجأة، بدءا في تفكيك المعسكر في اضطراب مدوٍّ. وخوفاً من اتخاذ موضع على السهل المكشوف، فقد تركا تلك الأماكن وبدءا وهما مذعورين يقيمان خنادقهما على الجبال الشاهقة، مع ربط جميع الجبال بعضها الى بعض. وقام الجيش الروماني بالاستيلاء على الساحل، وغطى السهول الفسيحة بخيامه. ووضع القادة المسيليين (Massylian) [٥] الجنود اللاتين في الوسط، وثبّتوا سهامهم في الأرض هنا

(١) كاركاسان (Carcasan) : قائد التجمع الليبي.

(٢) يونكي (Iunci) : مدينة جنوب قرطاجة.

(٣) كاركاسان (Carcasan) : انظر الملاحظة رقم (١).

(٤) أنتالاس (Antalas) : أحد قادة التجمع الليبي.

(٥) ماسيليان (Massylian) : يقصد هنا الجنود الليبيين المتحالفين مع الرومان.

٤٥ / ٧٦ وهناك على طول الحقل بأكمله ، ثم سيطروا على جميع المنافذ . وبعدئذ أمر يوحنا (John) [٦] نفسه بتجميع جميع السفن من كل شاطئ ، وحشدها في ميناء لاريسكوس (Lariscus) [٧] . وهكذا ، أدخل الأب القائد الارتياح على نفوس رفاقه والقبائل بما وفره لهم من مؤن قام بتوزيعها في جميع أنحاء المعسكر وعلى قواته .

وبينما كان القائد الجسور يستغلّ ذلك اليوم بما هو معروف عنه من مهارة وذكاء ، ويعدّ العدّة لتعذيب تلك القبائل ، نشبت ثورة مشئومة وأصاب الجنون القوات اللاتينية في جميع أرجاء المعسكر . وحينذاك ، أخذ الجنود يدمدمون في تذمر وتتغلب الشكوك في عقولهم على الجسارة في قلوبهم . واأسفاه ، يا له من كرب ، لقد كان كلّ منهم يمسك بسلاحه في يده ، ولكن ليوجهه الى أعضاء جسمه الحيوية ، وكان كلّ منهم يعدّ سيفه لكي يضرب به عنقه . أي جنون هذا الذي جعل الجنود اللاتين يتحرقون لتدمير صفوفهم تدميراً شاملاً؟ يقيناً ، لقد كان قدر مشؤوم متسلطاً على عقولهم . أيها الجندي الروماني ، ألا تخشى قائدك؟ احذر العديد من المعارك والعديد من الأعداء الذين تراهم بالتأكيد وهم يحيطون بتحصيناتك من جميع الجوانب . انظر كيف أنك تعدّ العدة لأن تلقى بليبيا في أتون الحرب ، ومعك هذه القبائل ، وكيف أنك ، مدفوعاً بشرّك ، تزحف على هذه البلاد بأسلحة معادية . واأسفاه ، أيتها الآلهة ، أين مسئوليتك المقدسة؟ إن قدراً غاشماً كان يعمل لكي ينتزع من بين أيدي الجنود تلك الانتصارات التي أحرزوها .

وكان الجنود قد بدأوا يجمجون بكلمات خشنة وهم ينظرون الى قائدهم بعيون حاقدة ، لإثارة عواطف رفاقهم ، كما بدأوا يملأون أسماعهم بالهمسات . وحينذاك ، لم يكن هناك حدّ لكراهيّتهم ، فأخذوا يتلفظون بكلمات كريهة منكرة . وعلى نفس الصورة . فعندما تشتعل الغابة بالنيران وتحترق ، فإن ألسنة اللهيب الأولى تثير الحريق الهائل عندما تتسبب شرارة صغيرة في إشعال النار في أوراق الأشجار المرتجفة ، وتتهاوى السيقان الضعيفة مع الأوراق السريعة الاشتعال . وغالباً ما يرى المرء دخاناً أسود في بداية الأمر ثم يبدأ الرماد في التساقط ، ولكن سرعان ما ينطلق البركان صاعداً في الفراغ الذي يعلوه ، وتأتي ألسنة النيران الرهيبة على التلال الكثيفة الأشجار ، وعلى نفس الصورة ، أطبق الجنون على عقول الرجال خطوة خطوة ،

(٦) يوحنا (John) : قائد الملة الرومانية .

(٧) لاريسكوس (Lariscus) : غير معروفة وربما قريبة من أيونكي (Iunci) (Shea ص ٥٢) .

٧٧ / ١١٣ وانفجروا صارخين بهذه التهديدات : «أيها الجنود الشبان التعساء ، الى أين تسيرون وراء هذا القائد للقتال؟ الى أين يجرجر طوابيركم المكدودة؟ أين يكمن لكم الموت مرة أخرى أيتها المخلوقات التعسة؟ وأسفاه ، إنه يهدر أرواحكم في عديد من الأزمات كما لو أنها أشياء رخيصة ، ولا يجزيكم عن هذا . إنه يلقي بنا الى الموت في حرب دموية . ان الدم الروماني يروي هذه الرمال وتصطبغ السهول باللون الأسود بما أريق عليها من دماء الطرفين المتقاتلين. الظمأ والجوع يحرقاننا ، فضلاً عما نعانيه من لهيب الريح الغربية ، ومع ذلك ، فلا أمجاد لهؤلاء الذين يستحقونها . أيها المواطنون ، سلّحوا أنفسكم . سلّحوا أنفسكم بالأحجار والمشاعل والسيوف ، وبكل ما يتيحه لكم الجنون والسخط . ليتحرر جانبنا من هذا الصراع الضاري بموت هذا القائد ، الذي يستحق الموت .» وهكذا بدأت الفوضى تعم ذلك المعسكر الذي أثاره ذلك التمرد الرهيب ، وأخذت الهمهمات تعلو أكثر فأكثر وتجمعت المجموعة التي أصيبت بالجنون ، وعقدت اجتماعاً ووحّدت من مشاعرها الحماسية ، وزاد سخطها ثم مضت في درب محظور . كانت صرخاتهم الرهيبة قد أوقعت المعسكر في فوضى عارمة وكانت السماء تردّد صرخاتهم الضارية ، تماماً كما كانت تفعل قبائل ناسومونيان (Nasamonian) [٨]، عندما كان يهاجم تحصيناتهم المتداعية ، ويوقع كلّ شيء في اضطراب كبير . وعندما بلغت الأصوات مسامع القائد قال : — «حاولوا أن تعرفوا أي جنون هذا الذي أوقع المعسكر في فوضى صاخبة ، واعملوا على وقف هذا الجنون .» واندفع القائد تاراسيس (Taracis) [٩] خارجاً وهو في غاية الشوق لمعرفة أسباب تلك التصرفات . وعندما سمع جلبة الأصوات المختلطة وهمهمات الرجال ، اقترب منهم أكثر فأكثر لكي يسكّن روعهم بكلمات مهدئة . إلا أن الرجال لم يتأثروا بظهور القائد ، ولا بتوسلاته ، ولا بشرف روما وانتفى التقدير والتبجيل من قلوبهم ، والواقع أنهم تجاسروا حتى على رميه بالحجارة . لقد كان ثمة قدر رهيب يدفع بهؤلاء الرجال الى الموت الذي كان في انتظارهم ، وكان يومهم الأخير يجلب في حياته التعاسة والشقاء . وأسرع القائد بإيفاد رسول الى القائد القلق سيراً على الأقدام . وأبلغ الرسول القائد أن الغضب الضاري الذي ملك زمام الجنود المجانين قد اشتعل أواره ، وأعلمه أن الحرب الأهلية قد نشبت فجأة . وهنا زمجر القائد وأمسك بسلاحه وقد أصبح منظره رهيباً . وغادر المعسكر

(٨) ناسامونيان (Nasamonian) : يقصد القبائل المعادية للرومان.

(٩) تاراسيس (Tarasis) : روماني.

(١٠) كوسينا (Cusina) : ليبي متحالف مع الرومان.

والخنادق ساخطاً ، واندفع الى الأمام ببسالة ، وتبعه حارسه وضباطه مع مجموعة من الجنود ١١٤ / ١٤٦ المخلصين . وبعدئذ انتصب فوق ربوة عالية وأصدر للرجال تحذيراً رهيباً في كلمات رزينة . وقال : « أيها الجند ... هل تتصورون حقيقة أنني وحش ولست إنساناً ؟ ... واذا كانت شريعة الله والانسان تعاقب على الحرب الأهلية ، فانظروا أنني هنا . أسرعوا إليّ إن كنتم تظنون أن موتي قد يحول دون نشوب الحرب ، وان كنتم تظنون أن القائد يوحنا هو السبب في هذه الحرب بين المواطنين . هل هذا هو ولاؤكم ؟ هل نزعت من نفوسكم التقوى الرومانية ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فسوف أشنّ الآن حرباً على هذه القبائل . إن رجلنا الشجاع كوسينا (Cusina) [١٠] سيظلّ على إخلاصه لقضيتنا ، تسانده قبيلته ومواطنوه وضباطه . لكن أنتم أيها الجبناء ، أخرجوا من معسكرنا ، اذهبوا وادعوا كوسينا (Cusina) يطلق مزاميره ويسعى إلينا الآن ، دعوا رجلنا آفيسداياس (Ifisdaias) [١١] يأتي مع رجاله ، وكذلك بازينا (Bezina) [١٢] وطابور الفرسان السريع بقيادة خادمنا آيوداس (Iaudas) [١٣] » .

ولم يكد القائد ينتهي من كلامه حتى اندفعت قوات الليبيين في صفوف متراصة ومن جميع الأنحاء فوق السهل الفسيح لمعاونة قائدها . وهنا أشهر الجنود الرومان أسلحتهم واندفعوا بسرعة على طول الخنادق جميعها . ان عقولهم المكدودة لم تكن تعرف البلادة ، كما أن صفوف الأعداء المتراصة لم تكن تخيفهم . وعلى أية حال ، فإن منظر قائدهم الرهيب ونصائح ريكيناريوس [١٤] الهادئة ، كانت قد بدأت تطفئ جذوة الجنون التي تملكت عقولهم ، فكفوا عن تهديداتهم ، وزال عنهم الغضب الكئيب . لقد كانت غضبتهم الجنونية مصدر كرب للرجال . بيد أنهم ، عند ذاك ، أخذوا يتوسلون بتواضع وخجل ، ويعربون عن استعدادهم لتقديم رؤوسهم جزاء ما فعلوا ، يدفعهم الى ذلك إدراكهم للموقف ، وليس خوفهم من القبائل . ولقد كان يدفعهم التقوى والولاء وخشية الأمبراطور ، وبسالة وجدية قائدهم وسيدهم . وعندها ، أخذ ريكيناريوس (Recinarius) يستدعي طوابيرهم بكلمات هادئة وأمر القوات على الجانبين للتوقف لفترة قصيرة في سلام متبادل . ثم خاطب الجنود اللاتين قائلاً : « أنظروا كيف أن العديد من قبائل المملكة تتبع الأوامر المقدسة ، وتخجل من ارتكاب مثل هذا العمل الشرير .

(١١) آفيسداياس (Ifisdaias) : ليبي متحالف مع الرومان .

(١٢) بازينا (Bezina) : ليبي متحالف مع الرومان .

(١٣) آيوداس (Iaudas) : ليبي متحالف مع الرومان .

(١٤) ريسيناريوس (Recinarius) : روماني .

١٤٧ / ١٧٦ بيد أنكم ، ان كنتم تستعدون للمضي في هذه الحرب المريرة ، وأن تتخموا بها عقولكم الشريرة ، فتكلموا . أخبروني عن نواياكم الحقيقية الراسخة في أذهانكم ، ودعوني أحيّي الرفاق ولا أقضي على المتمردين . «لقد كان في موقفه هذا لا يقلّ عن موقف قيصر (Caesar) [١٥] ، في غمرة التمرد التي كانت تهدده ، واستطاع بتلك اللغة المفعمة بالكبرياء أن يخيف الجند الرومان . ولقد أصيب رجال الكتيبة بالخرس والخجل معاً ، وأخذوا يتضرعون الى سيدهم في ذلّة وندم قائلين : «لقد دفع الجنون المروع قلة منا الى محاولة ارتكاب مثل هذه الجريمة . ان العقاب العادل لا بد أن ينزل بهؤلاء الذين أجرموا . ولسوف نطيع أوامر قائدنا وسيدنا بشأنهم» . وبينما كانوا يتكلمون هكذا ، أخذت الجموع البريئة تدفع بمثيري تلك الجريمة وتجرّهم وتسلّمهم للقائد وهم يرسخون في الأغلال ، تكفيراً عن مثل تلك الجريمة الهائلة . ووقف الرجال صامتين ، والانتقام لهذه الجريمة البشعة يشغل تفكيرهم . ونتيجة لهذا ، فقد تعاظم الخوف من القائد بين صفوف القبائل . وعندما سكنت نفوس الجند ، دخل القائد بابتهاج الى الخنادق ، وأعلن جميع رفاقه بكل إخلاص ومحبة أنهم سيطيعون أوامر قائدهم .

وأمر القائد من فوره بالنفخ في الأبواق لتحرك بأصواتها المدوية صفوف المحاربين . وبعدما قام بتحريك ألويته ، غادر المنطقة الساحلية وأقام معسكره في حقول كتو(Cato) [١٦] . ولقد كان السالب النهّاب السرتي(Syrtic) [١٧] قد كفل الحماية لمعسكره بتحصين تلك المناطق . بيد ان المجاعة الشديدة كانت قد بدأت في إزعاج وإرهاق الجنس المارماريكي (Marmarican) [١٨] بأكمله . ولم يكن هناك سوى قطعان ماشيتهم توفر لهم الطعام ، ولكنهم كانوا بلا خبز . وعندما أدرك قائد الجنود الرومان تلك الحقيقة ، وبعد أن استعدّ لإغلاق جميع المنافذ أمام هؤلاء الناس بمحاصرتهم ، قام بسحب ألويته وجنوده لأيام معينة ، وأبعد صفوف رجاله عن تلك الغابات الشريرة . وقتذاك ، أخذت الأيام تمر واحداً بعد الآخر دون أي اشتباك مسلّح ، بفضل حنكة القائد ومهارته ، ودفع ذلك الهدوء القبائل المترددة الى العودة الى

---

(١٥) قيصر (Caesar) تولى الحكم في الفترة ما بين ٤٨ — ٤٤ ق. م. قضى على الجمهورية الرومانية مؤسساً دكتاتورية ورثها من بعده ابنه الروحي أوغسطس.

(١٦) كاتو (Cato) غير معروفة المكان ، تعرف أيضاً كاتونيس كامبي (Catonis Campi)

(١٧) السالب الناهب السرتي : يقصد به كاركاسان (Carcasan)

(١٨) مارماريكان (Marmarican) : يقصد الثائرين الليبيين.

٧٧ / ٢٠٦ السهول. ولقد تصور القائد الناساموني (Nasamonian) [١٩] التعيس الحظ أن خوف الرومان كان حقيقة، ومن ثم أمر بتفكيك معسكره، وإعادة إقامته في المناطق المسطحة مرة أخرى. وفيما كان الموت يقترب منه أكثر فأكثر، أخذ يتظاهر بالشجاعة والبسالة والغضب الضاري.

وقاد القائد قواته من وسط الخنادق، ثم عقد مجلس حرب. كان يقف فوق ربوة فيما أخذ ضباطه المقربون والمدافعون الشجعان عن الشعب والجنود يتوافدون عليه في صف طويل متراصّ، بعد أن استدعتهم كوكبات الفرسان. وعلى نفس الصورة تم تجميع صفوف القبائل الماسيلية (Massylian) [٢٠] الموالية للمملكة اللاتينية والتي اختلطت باللاتين. إن حبهم وخشيتهم الهائلة من سيدهم دفعتهم الى التلاقي في السهول. وكانت أردية كل فرقة تميزها عن الأخرى. كان جنود بعض الفرق يغطون أجسادهم بدروع الحديد مع أردية رومانية طويلة ذات أحزمة، فيما كان جند آخرون يقفون بأذرع مكشوفة كما جرت عادتهم، ويرتدون أردية طويلة موشاة بخيوط أرجوانية مختلطة بعديد من الألوان. وثمة فرقة كان جنودها يحمون أنفسهم بتروس طويلة، فيما كان جنود آخرون يمسكون بتروس مستديرة. كان الجندي الروماني يقف بقامته العالية وقد غطى رأسه بخوذة، فيما كان الجندي الليبي يلفّ جسده بعباءة. وثمة جندي يتدلى شعره الطويل فوق جبهته، كان يقف مستنداً الى رمحين، ثابتاً عضلات ساقيه، أو غارساً رمحه الصلب في الأرض الصلبة. ووقف القائد وسطهم يخاطبهم قائلاً في لهجة وديّة: «أيها الرفاق الرومان، والأمل الوحيد لهذه الأرض المجهدة ان خلاص ليبيا المؤكد مرهون الآن بسلاحكم وسواعدكم. الآن أصبح من الواجب وضع نهاية لهذه الحرب ولعنائكم الشديد. الآن، ينبغي أن نقاتل.» وعمت الفرحة والبهجة نفوس القوات المحاربة والقبائل اللاتينية، وشرعوا في تحريك ألويتهم. وأطلق أحد الجنود صيحة كزئير الأسد، وفي جلبة تصمّ الآذان، أخذ الرجال والضباط ورجال الفرقة الماسيلية (Massylian) [٢١] يصرخون. ولقد عبروا أحسن تعبير عما كان يجول في نفوسهم. وكانت أصداء همهماتهم الفرحة تتردد بين جميع صفوف الرجال. ان البحر نفسه لا يصدر عنه مثل هذا الهدير وهو ينذر بهبوب الرياح.

وعندما أحس القائد الرائع يوحنا بما يعتمل في نفوس رجاله من رغبة، أخذ يسدي لهم

(١٩) ناساموتيان (Nasamonian) : يقصد قائد الثورة الليبية كاركاسان.

(٢٠) ماسّيليان (Massylian) يقصد الليبيين المتحالفين مع الرومان.

(٢١) ماسيليان : يقصد الليبيين المتحالفين مع الرومان.

٢٠٧ / ٢٤٢ النصيحة ويطلعهم على أهم وسائل الأمان ، ويؤكد لهم النصر الذي كتب لمملكتهم العظيمة . وعندما كبح جماح صراخهم المدوي وطلب منهم ، برفع يده ، التزام الهدوء ، صمت الرجال في رهبة وأخذوا يحدقون في وجهه وهو يتحدث إليهم . وأرهفوا آذانهم وركزوا تفكيرهم لتلقي أوامره . وحينئذ خاطب القائد جنوده في نبرات واضحة قائلاً : «ان اليوم قد انقضى أيها الرفاق ، وغداً ليس اليوم المناسب لمعركة ضارية ، لأنه مكرّس للربّ في جميع أنحاء العالم . ومن ثم ، انهضوا أيها الضباط ودعونا نخدم المسيح بغبطة وابتهال . لنسأله الحماية بدموعنا وبخضوع . وأنني لعلى يقين من أن الرب سيسارع إلينا . وأنه سيسحق هذه القبائل الشريرة بمشيئته وجبروته . انه سيطلع على كدحنا وكفاحنا . وسوف يمنح البهجة والفرحة لمملكتنا . وعندما يتم القسّ الموقر شعائره المقدسة ، وتقدم الهبات السماوية للرب كما ينبغي . وعندما يوفي الجنود الرومان بالتزاماتهم في الصورة السليمة ، فسوف نقيم الموائد ، لا تدعوا خيولكم ترعى بعيداً عن السهول ، فلقد قررت تحريك معسكرنا بعد أن نتناول وجبتنا المعتادة . إنني لا أرغب في الاشتباك في معركة كريهة ، وكل ما أريده ، هو الإسراع الى تلك الأماكن ، حتى نتمكن غداً — عندما تشرق الشمس من الأفق وتلمس العالم بخيوطها التي تنفث اللهب — من الدخول في المعركة في لاتاريس (Lataris) [٢٢] المجاورة ، وأن نمضي الى تلك المذبحة الهائلة . ان المسيرة الطويلة لن تحطمنا . ستكون خيولنا ورجال مشاتنا شجعاناً . ولسوف يذبحون هذه القبائل الهمجية ببسالة» . وهنا قفز الرجال وهم يصرخون ، ويصفقون ، وأعلنوا موافقتهم على الخطة والكبرياء تملأ قلوبهم . وعند ذاك ، عادت الكتائب الى المعسكر .

وعلى الجانب الآخر ، كان المتمرد الناساموني[٢٣] يعدّ الفخ لمواجهة محنة الحرب الضارية . وكان قد جمع صفوف حلفائه ، الى جانب رجال من القبائل الأخرى ، من الذين كان حبّ الغنائم وقدرهم التعس الذي حكم عليهم بالموت ، قد دفعاهم الى شطر ليبيا الى نصفين بالحرب . وكان معه ابن جيونفان (Juenfan) [٢٤] يثير الناس الى حرب ضارية ، ويعمل تفكيره في وضع الخطط ، وقد نفد صبره ولم يعد يحتمل مزيداً من التأخير . ومع ذلك ، فقد كان كاركاسان (Carcasan) [٢٥] أول من وقف ، وتكلم قائلاً : «إن قوات يوحنا قريبة

(٢٢) لاتاريس (Lataris) : مكان غير معروف .

(٢٣) ناسامونيان (Nasamonian) : يقصد الثوار الليبيين وقائدهم كاركاسان .

(٢٤) جويفان (Juenfan) : أب أنتالاس .

(٢٥) كاركاسان (Carcasan) : قائد التجمع الليبي الثاني .



منّا وتضغط علينا ، في الوقت الذي يرهقنا فيه الجوع الشديد . لا يوجد إلا أمل واحد لخلاص قبائلنا ، وهو أن ندخل المعركة فوراً وبسرعة ، حيث لا تزال أطرافنا تحتفظ بقوتها . ذلك لأن قطعان ماشيتنا ، آخر مصادر غذائنا ، ومجاري المياه ، هي التي تحفظ الحياة لرجالنا . والآن ، فإن مخزون الحبوب لم يعد يكفي رجال الناسامون (Nasamonians) [٢٦] جميعهم . ولا داعي لأن أذكر النبيذ . ان مياه القنوات هي عزاؤنا الوحيد . بيد أننا لو استطعنا قهر العدو ، فسيكون الليبيين كل شيء ، وبعد أن نصرع جنود الأعداء ، فسوف ننهب معسكرهم الذي زخر بأشياء لا حصر لها . إن حظّنا الذي كشف لنا عنه أمون ذو القرون في ردوده ، ويؤكد انتصارنا على القوات اللاتينية في المعركة ، سيظل كما هو بلا تغير ، وانني لعلى يقين من هذا » .

ووقف أوتيليتين (Autiliten) [٢٧] بعده ليقول : « ان الرومان ينبغي أن يحتفلوا بيوم غد بوصفه عيداً . والجنود الرومان لن يخشوا من نشوب معركة وهم مشغولون بأداء

---

(٢٦) ناسامونيان (Nasamonian) : يقصد الثوار الليبيين.

(٢٧) أوتيليتين (Autiliten) : ليبي.

٢٥٧ / ٢٨٥ شعائرهم. فأصدر أمر لقواتنا بالتحرك عندئذ ولنداهم الجيش غير المنظم فجأة عند منتصف النهار. تلك الساعة اللاهبة، فبما هم يتمددون بأجسادهم المكدودة في الظل. وقد أوهنتهم حرارة الشمس القائظة. لن يستلزم الأمر سوى مضاعفة شجاعتنا لمداهمة تحصيناتهم المزدوجة. قوموا أولاً بالاستيلاء على معسكر يوحنا العتيد. أجمعوا ألويتكم وتخيروا الكتائب المعروفة بشجاعتها وجودة تشكيلها، والضباط الذين يتصفون بالجرأة والإقدام. عليكم أن تتحدّوا الجيش اللاتيني بهذه الوسيلة. هناك المكان حيث يمكننا أن نواجه الخصوم ونسفك الكثير من الدماء. ليقم جارسانا (Garsana) [٢٨] بقيادة الصفوف الباقية الى المكان الذي يقيم فيه كوسينا (Cusina) [٢٩] الشرير معسكره. وهنا أيضاً توجد فرقة من الجند الرومان الصامدين تتحرك للقتال. إن لديهم قائداً شرساً كذلك، يعدّ العدّة لتدمير قبائلنا من أجل روما، طالما أنه، وقد ركبه الغرور بما منحه من ألقاب شرقية، يوافق على ذلك، وطالما أنه قد نودي به قائداً وأخاً في الدم، أنجبته أم لاتينية. ان هذا العدو الشرس وقد سرّه هذا المديح، يريد أن يبدو شجاعاً ومخلصاً. وعندما ننجح في هزيمتهم، فلا يتكلمن واحد من الناسامون (Nasamonian) [٣٠] عن أعداء آخرين مستقبلاً. ان بقية القبائل جميعها سوف تتبع قواتكم، وبهذه الصورة، سيكون النصر العظيم من نصيب ألويتنا». ووافق الرجال على رأيه، وأخذت قلوب رجال القبيلة الكريهة تغلي وتمتلئ رؤوسها بالقتال.

وابتلعت أمواج البحر ضياء النهار، وحلّ الليل. وقام إله الشمس فويبوس (Phoebus) [٣١] بتسريح خيوله، فبما كانت سينثيا Cynthia [٣٢] الهة القمر تسرّج خيولها، بينما أعادت النجوم القوة الى أجساد رجالنا. وقد انبثقت الهة القمر من بين الأمواج، بعد أن كانت مغمورة في الماء. وهنا أخذ الناس جميعاً يسترخون بأطرافهم متمتعين براحة هادئة، وسيطر النوم الهادئ على جميع أنواع المخلوقات التي كان السبات اللذيذ قد سيطر على أطرافها فوق السهول وقطعان الماشية ومختلف أنواع الطيور، والوحوش الرهيبة الباردة على شاطئ

---

(٢٨) جارسانا (Garsana) : ليبي.

(٢٩) كوسينا (Cusina) ليبي متحالف مع الرومان.

(٣٠) ناسامونيان (Nasamonian) يقصد الليبيين، أي أن القائد الليبي يحرض جنوده الناسامون على قتل جميع أعدائه حتى لا يبقى له عدو مستقبلاً.

(٣١) فويبوس (Phoebus) لقب لإله الشمس هيليوس (Helius) وهي لقب أيضاً للإله أبوللو ومعناها متوهج أو متألق.

البحر. بيد أن يوحنا (John) [٣٣] يفكر في الحرب البشعة بقلب هادئ، ويستعرض مختلف ٣١٢/٢٨٦ المشكلات بإدراك سليم، ويرتبها حسب أهميتها. كانا كل منهما يطمئن الآخر، بتبادل الحديث، وطردا النوم عن عيونهما، بمواصلة الحديث والنقاش. أوه: كم من مرّة صلّيا، وكم تضرّعا للرب القادر بدموعهما من أجل سلامة المملكة، وسلامة رجالها وسلامة ليبيا وسلامتهما، ان دعواتهما في تلك المحنة لم تذهب سدى، ذلك أن الأب الذي يرهب العالم بصواعقه، قد رآهما من عل يدعوان، فوضع نهاية لأهوال الحرب ومشاقها.

وفي تلك الأثناء، كان معسكر المارماريكان (Marmaricans) [٣٥] قد اعترته نوبة من الجنون وهو يقدم أضحياته الليلية. كان الرجال يقدمون القرابين ويتضرعون لآلهة زائفة. وكانوا يقودون ماشيتهم حول المذبح ويذبحونها ويصبّون الدم الكريه على الأعشاب. كانت تلك أضحيات لك يا (قورزيل) [٣٦]. وكثير منها لك يا أمون ذي القرون(Ammon) [٣٧]. وكان البعض يعبدون سينيفير (Sinifere) [٣٨]، الذي كانت قبائل مازاكس (Mazax) [٣٩] تتصوره على مارس (Mars) [٤٠] اله الحرب. ولكن البعض منهم كان يعبد ماستيمان (Mastiman). وهو الاسم الذي كانت قبائل ليبيا تطلقه على جوبيتر (Jupiter) [٤١]، وكانت تتقدم له أضحيات من البشر وتسفك الكثير من الدماء. وأسفاه، يا لها من جريمة نكراء. لقد كان أنينهم التعس يجعل الهواء يرتجف من جميع الجوانب، وكانت صرخاتهم تشقّ عنان السماء. ان هذا الرجل كان يضع سيفه في أعناقهم

(٣٢) سينثيا (Cynthia) : لقب للاله (Artemis) الهة القمر.

(٣٣) جون (John) : قائد الحملة الرومانية.

(٣٤) ريسيناريوس (Recinarius) : مساعد يوحنا.

(٣٥) مارماريكانس (Marmaricans) : يقصد معسكر الجيش الليبي.

(٣٦) قورزيل (Gurzil) : اله ليبي.

(٣٧) أمّون (Ammon) : اله سيوة عبادته منتشرة بين الليبيين.

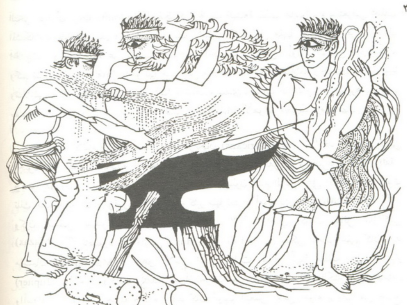
(٣٨) سينيفير (Sinifere) : اله ليبي.

(٣٩) مازاكس (Mazax) : قبائل ليبية.

(٤٠) مارس (Mars) : اله الحرب عند الرومان.

(٤١) جوبيتر (Jupiter) : كبير الهة الرومان، وتسميه القبائل الليبية باسم ماستيمان (Mastiman)

٣٢٥ / ٣١٣



ويثير الآلهة أنفسها بكلماته. وإذ كان يدعوهم الى التقدم وسط الظلال غير الآمنة، أخذ يأمرهم بأن يحاولوا اتباع مسار الشمس. ثم أخذوا بطريقة غير مقدسة يمزقون أحشاء الحيوانات ويلتمسون معرفة أقدارهم. بيد أن الله، كان على علم بمثل هذه الطقوس، ومن ثم فقد أصمّت الآلهة أسماعها عن أناشيدهم، ولم يرد كاهنهم على أحد بجواب.

وكانت الشمس، التي تلمع عند حافة السماوات، تنبثق صاعدة من وسط أمواج البحر، وأخذت تنشر أشعتها المتلألئة على الأرض وهي تشرق في ضوء أعظم. ومع بداية اليوم السعيد، جاء عبّاد المسيح حسب النظام الموضوع: الناس، والجنود الرومان الشبان والضباط ذوو الهمم العالية مع ألويتهم. ثم جاء القائد يوحنا (John) [٤٢] وظهر في المقدمة، حيث كانت

---

(٤٢) جون : قائد الحملة الرومانية.

٣٦٨/٣٢٦ تنتصب خيامه. وهناك، كان القس قد أقام مذبحاً كبيراً. وأحاطه من جميع جوانبه بأغطية مقدّسة، حسبما جرت به عادة الآباء. كان القساوسة قد كوّنوا جوقة من المنشدين، وأخذوا ينشدون التراتيم العذبة بأصوات متواضعة، وهم يبكون. ولكن، عندما بلغ القائد باب المعبد المقدس وولجه، انفجر الناس في أنين حزين، وانهمرت الدموع على وجوههم. لقد كانت أصواتهم من كل جانب تشقّ عنان السماء، وأخذوا يضربون صدورهم بقبضات أيديهم مراراً وتكراراً، كما لو كانت صدور أعدائهم. كانوا يئنّون قائلين: «أيها المسيح، أغفر لنا ذنوبنا وذنوب آبائنا، إننا نتوسل اليك.» وكانوا يتطلعون الى السماء مادّين أيديهم ويتضرعون أن يسبغ عليهم الرب الراحة والطمأنينة. بل ان يوحنا نفسه كان في مقدمة الصفوف، ركع وأخذ يصلي من أجل الناس، وقد فاض قلبه بالتقوى. لقد كانت دموعه تنهمر من عينيه كالنهر، وأخذ يتوسل الى خالقه وهو يضرب صدره بيده، قائلاً: «يا الله، يا خالق العالم، الحياة الوحيدة لجميع المخلوقات أيها القادر الخالق للأرض والبحر والهواء، الذي يملأ بقوته الأرض والسماء، أن أمواج البحر وكل ما يحتويه الكون في طياته، والهواء، والجحيم الذي يزخر بالأرواح الشريرة أنت وحدك الذي يتحكم في هؤلاء جميعاً. ان أعظم القوى بين يديك والمجد والسيادة والبأس في يدك اليمنى العظيمة والآن، وفي آخر المطاف، أضرع اليك أيها الآب القادر المقدس أن تنظر بعين رحمتك للرومان وأن تمدنا بعونك. أتوسل اليك أن تسحق بسلطانك هذه القبائل. أجعل هؤلاء القوم يعترفون بك وحدك مولاهم القادر، فبما تسحق العدو تحفظ قومك في القتال. ان الجنس الروماني برمته يلعن آلهتهم المنحوتة، ونحن نشهد أنك إلهنا الحق.» وفيما كان يتلفظ بتلك الدعوات، بلّل الأب الأرض بدموعه التي ملأت عينيه، وقد ركبه كرب شديد عندما كان يفكر في الأخطار التي تهدد المملكة والمشاق الثقيلة التي تثقل كواهل الناس. والى جانبه، كان ريسيناريوس (Recinarius) يذرف الدمع مدراراً فيسيل على خديه بغزارة لا تقلّ عن غزارة دموع سيده. وأخذ يتوسل والحزن يعلو وجهه أن يمد الرب يد العون للشعب اللاتيني. كذلك كان الضباط ذوو النفوس الكبيرة والمدافعون الشجعان يتطلعون الى السماء وهم ينشجون وقد سالت دموعهم على صدورهم، وارتفعت أصوات جميع كتائب الجند بالصلوات للرب بأصوات تبلّلها الدموع. وقام القسّ الأكبر بوضع الهبات على المذبح باسم الشعب اللاتيني، مبللاً المذبح بدموعه الغزيرة. وأخذ يصلي في هدوء، ويثني على القائد الأب ويباركه، ثم قدم الهبات للمسيح كما ينبغي ولسانه يلهج بالشكر والثناء. ولقد قبل الرب في السماء هذه العطايا وأنعم بالطهارة والنظافة على الشعب اللاتيني برمته.

٣٦٩ / ٣٩٣ وقال القائد والضباط من حوله : «يا بوتزينتولوس (Putzintutus) [٤٣] الشجاع ، أسرع بجنودك وأعلامك الى حيث نصب كوسينا (Cusina) [٤٤] المخلص أعلامه . وأنت يا جيسيريث (Geisirith) [٤٥] القوي ، ضم حلفاءك الى هذا الرجل ، فإن هؤلاء المخلصين جديرون بأن نسارع الى نجدتهم . ولكن أنت يا سيندويت [٤٦] اجمع أسلحة رجالك الشبان فوراً وانضم الى الصفوف الرومانية ، حيث يعسكر افيسداياس (Ifisdaias) [٤٧] الجسور برجاله وألويته ، وسيكون فرونيموث (Fronimuth) [٤٨] الجبار الى جانبك ، وسيقدم العون لقواتك وألويتك . «... وهكذا أصدر القائد أوامره لرجاله ، وبدأ الجنود يتبعون ألويتهم وساروا في صفوف على السهول الفسيحة . وكانت كوكبات فرسان العدو تندفع الى الأمام من كل مكان ، وبصرخات مدوية اندفعت صفوف مارماريكانس (Marmaricans) [٤٩] أول الأمر الى السهول التي كانت تتلألأ بالتروس ، وامتدت أيديهم الى الحراب لتشهرها ثم لتقذف بها عندما تنشب المعركة . وهناك كان زيبياس (Zebeas) [٥٠] ، وبروتين (Bruten) [٥١] الذي كان يتبعها ألف من الضباط . وسرعان ما طارت سحابة كثيفة من الرماح فوق الرؤوس وحجبت السماء . وأخذ الجند يدفعون عن أجسادهم الرماح بتروسهم . كانت أسلحة الجند تئن من شدة وطأة القتال ، بيد أن الدم الروماني لم يسفك رغم الأسلحة التي لا تعد بيد الأعداء .

ولقد كان يوحنا (John) [٥٢] الجسور أول من دخل المعركة ، واندفع وسط جنود العدو شاهراً رمحه ثم طعن به صدر ساسفي [٥٣] المكشوف فتدحرج البطل من فوق جواده وهوى ، فيما اندفع سيل من الدم من جرحه البليغ وتساقط على الرمال الجافة . ثم أخذ من فوره

---

(٤٣) بوتزينتاتوس (Putzintutus) : روماني .

(٤٤) كوسينا (Cusina) : ليبي متحالف مع الرومان .

(٤٥) جيسيريث (Geisirith) : روماني .

(٤٦) سيندويت (Sinduit) : روماني .

(٤٧) آيفيسداياس (Ifisdaias) : ليبي متعاون مع الرومان .

(٤٨) فرونيموث (Froniumuth) : روماني .

(٤٩) مارماريكانس (Marmaricans) : يقصد التجمع الليبي المعادي للرومان .

(٥٠) زيبياس (Zebeas) : ليبي .

(٥١) بروتين (Bruten) : ليبي .

(٥٢) جون (John) : قائد الحملة الرومانية .

(٥٣) ساسفي (Sasfi) : ليبي .

يتعقّب آيفناتيس (Ifnates) [٥٤] ، وعندما أراد الهرب ، ضربه برمحه الطويل في وسط عموده ٤١٧/٣٩٤ الفقري . وفيما كان الجريح يمسك بالرمح بيد مرتعشة محاولاً انتزاعه من عظامه ، انظروا ، لقد اقترب ميرميدونيس (Mirmidonis) [٥٥] النشيط وصوب إليه سهماً من قوسه . ومع ذلك ، فقد أمسك القائد برمح الرجل المحتضر وقذف به بكل ما فيه من قوة . واخترق الرمح جسد العدو من وسطه ، ثم ثنى القائد بطعنة في قلبه برمح رجل آخر . وبعدئذ سدّد البطل ضربة شديدة برمحه الى تامينيوم (Tameneum) [٥٦] ، وطوح به من فوق جواده . وبسيفه قطع يد نارتوس [٥٧] اليمنى وشق ترسه ، ثم انقض عليه فخنقه بيديه . وبسيفه أيضاً قطّع عنق ساماسكوس (Samascus) [٥٨] ، وعنق فيليتوس (Filetus) [٥٩] وطعن بالموس (Palmus) [٦٠] في أعلى فخذه ، ثم ضرب وجه كالامين (Calamen) [٦١] فأطاح بأسنانه وقطّع أنفه ووجنتيه بسيفه . وهوى الرجل على الأرض التي أنّت من وقع سقطته الهائلة . وفي مكان غير بعيد اشتبك البطل مع عدوه أنكوس (Ancus) [٦٢] وضربه ضربة شديدة برمحه الطويل ، ثم ثنّى بعدوه مانتوس (Mantus) [٦٣] فطعنه في صدره ثم أخذ يهدر وهو يخترق برمحه جسد ماستومان (Mastuman) [٦٤] من الجانبين . وأطاح بـ (سالبينوس) [٦٥] فوق الأرض بضربة من رمحه الطويل ، فهوى عن جواده وهو يحتضر . وسرعان ما انبثق الدم الغزير من جسده الأسود وبلّل الرمال الساخنة ، ثم أسرع بملاحقة أوتيسيران (Autiseran) [٦٦] وانقض عليه وقذف به

---

(٥٤) آيفناتيس (Ifnates) ليبي .

(٥٥) ميرميدونيس (Mirmidonis)

(٥٦) تامينيوم (Tameneum) : ليبي .

(٥٧) نارتوس (Nartus) : ليبي .

(٥٨) ساماسكوس (Samascus) : ليبي .

(٥٩) فيليتوس (Filetus) : ليبي .

(٦٠) بالموس (Palmos) . ليبي .

(٦١) كالامين (Calamen) : ليبي .

(٦٢) أنكوس (Ancus) : ليبي .

(٦٣) مانتوس (Mantus) : ليبي .

(٦٤) ماستومان (Mastuman) : ليبي .

(٦٥) سالبينوس (Salpinus) : ليبي .

(٦٦) أوتيسيران (Autiseran) : ليبي .

٤١٨ / ٤٣٤ الى الأرض وقد اخترق الرمح جسده ، ثم صرع تانين (Tanin) [٦٧] ، وآلتيفاتان [٦٨] وغرس سيفه في صدر أميستوس (Amestus) [٦٩] ، ثم ثنى بـ (أوتوفادين (Autufadin [٧٠] فقطع رقبته بسيفه وضرب أونتيسيرين (Ontiseren) [٧١] المغرور برمحه الطويل . وبسيفه أطاح برأس كانابوس (Canapus) [٧٢] وصرع برمحه الصلب توبيان [٧٣] وألقى به على الحشائش . وقد أكره القوات الناسامونية (Nasamonians) [٧٤] الشريرة على أن تولي الأدبار ، وتعقبهم الفرسان الرومان والمدافعون الشجعان وحاملو أسلحة القائد . ووسطهم كان القائد بنفسه يطير على جواده مندفعاً للأمام . وشنّ الرجال هجوماً على طوابير قبائل المارماريكان (Marmaricans) [٧٥] وهي تحاول الفرار فوق الحقول ، وأعملوا فيها الذبح والقتل ، ثم اندفعوا للأمام .

وعاد القائد الناساموني (Nasamonian) [٧٦] بعد أن طرد من ذلك القطاع ، وأعاد تشكيل طوابيره وجرها الى أسفين حيث كان كوسينا (Cusina) [٧٧] يقوم بترتيب ألويته الموالية وكتائب جيشه مع جنود من مختلف القبائل . وفيما كان يجهز نفسه للقائه ، أخذ يخاطب جنوده الشبان بهذه الكلمات المؤثرة : «أيها الرفاق الرومان والقبائل الموالية لنا ، عليكم أن تدللوا على شجاعة نفوسكم وعلى بأسكم وعلى ولائكم الآن . قابلوا تهديدات اللواتيين (Languatans) [٧٨] بالتحمل والشجاعة ، ولا تدعوا العدو يثير الرعب في قلوبكم

(٦٧) تانين (Tanin) : ليبي .

(٦٨) آلتيفاتان (Altifatan) : ليبي .

(٦٩) أميستوس (Amestus) : ليبي .

(٧٠) أتوفادين (Autufadin) : ليبي .

(٧١) أونتيسيرين (Ontiseren) : ليبي .

(٧٢) كانابوس (Canapus) : ليبي .

(٧٣) توبيان : ليبي . (Tubian)

(٧٤) ناسامونيانس (Nasamonians) : القوات الليبية المحاربة للرومان .

(٧٥) مارماريكانس (Marmaricans) : القوات الليبية الثائرة .

(٧٦) ناساموني (Nasamonian) : الناساموني — يعني كاركاسان .

(٧٧) كوسينا (Cusina) : ليبي متعاون مع الرومان .

(٧٨) لانجواتانس (Languatans) : لواتة .

وهو يقترب منكم . انظروا ، ان يوحنا (John) [٧٩] المنتصر موجود معنا وهو الآن يقوم ٤٣٥/ ٤٦٣
بتحريك جميع الألوية الرومانية . شقوا طريقكم وسط العدو ، وعندما يأتي القائد
وهو الآن يقوم بتحريك جميع الألوية الرومانية ، شقوا طريقكم وسط العدو ،
وعندما يأتي القائد ، فلسوف يثني على هؤلاء الذين كانوا شجعاناً وموالين للمملكة .
ان بسالة الرجل شيء معروف للجميع ، ولكم سيكون فخراً لكم أيها الرجال
عندما ترون السرور في عيني السيد» . وهكذا دفع كوسينا (Cusina) [٨٠] رفاقه الى
المعركة بعد أن نجح في التأثير على عقولهم المترددة ، كما نجح في ذات الوقت في إثارة سخطهم
جميعاً . ولقد كانت عقول الرجال مدفوعة بالرغبة في نيل الشكر والثناء ، وهكذا اندفعت
الفرقة الرومانية الجسورة والفرسان الليبيين الى السهل وهم مختلطون مع اللاتين . واندفع
القائد نفسه وسط صفوف الأعداء فوق جواده يحفّ به جنوده ، وحمل المدافعون عن الشعب
الشجعان الأسلحة اللاتينية ودخلوا بها الى المعركة . واستقبلوا القوات الناسامونية
Masamonicans [٨١] بطريقتهم المعتادة ، فجهزوا رماحهم وصوبوا حرابهم . وبعدئذ اشتبكت
الكوكبات المتقدمة في معارك مريرة ، وكانت صرخات الجنود تشقّ عنان السماء . وفي ذات
الوقت ، كان الغبار يملأ الجو ، حاجباً ضوء النهار . كان الجو مليئاً أيضاً بصلّات كثيفة من
السهام والمقذوفات ، وكانت السهام المجنحة تتطاير من الأقواس ، فيما كانت الرماح تنطلق
سحابة وراء أخرى هنا وهناك . كان بعض تلك السهام والرماح يصيب الرجال ، وبعضها
يضرب الأرض . وعلى هذا الجانب أو ذاك ، كانت القبائل توجه ضرباتها ثم تسقط . وكانت
قبائل المارماريكان (Marmaricans) [٨٢] تهاجم بشجاعة فائقة ،وكان الأمل الأكيد في وصول
سيدهم هو الشيء الوحيد الذي خفف عن الضابط وحرسه ورجاله وطأة القتال .

وعندما علم القائد يوحنا (John) من تقرير جاءه على وجه السرعة ، أن كوسينا (Cusina)
المخلص كان يتعرض لهجوم شديد في المنطقة التي يقف فيها من السهول ، وأنه ورجاله كانو
يتهاوون تحت ثقل الأسلحة ،خاطب رجاله بالكلمات التالية لكي يأجج فيهم الرغبة في القتال :
«ان الأمبراطورية الرومانية تعرف من هي الأمم الموالية لها ومن رعاياها ، وتعتبر أهلها مواطنين
لاتين . وبمثل هذا الوفاء والاخلاص استطاعت أن تحظى برضا العالم كله واستطاعت أن

(٧٩) جون (John) : قائد الحملة الرومانية .

(٨٠) كوسينا (Cusina) : حليف الرومان الليبي .

(٨١) ناسامونيكانس (Nasamonicans) : قوات الثورة الليبية .

(٨٢) مارماريكانس (Marmaricans) : قوات الثورة الليبية .

 تخضعه لسلطانها ، طالما أنها تقوم بشجاعة بنجدة الأذلاء ، وتذل المتمردين . ان كوسينا (Cusina) المخلص لقضيتنا ، يواجه هجوماً مزدوجاً . واذا لم يستطع العدو أن ينال منه ، فإن صيتنا واسمنا سيظلان خالدين لأجيال وقرون . فلتظهروا مدى ما تتمتع به روما من ولاء وبأس وقدرة على التحمل . انهضوا أيها الرجال ، وسارعوا الى نجدة هذا الرجل في أزمة القتال التي يعانيها ، أيها الرفاق ، دمّروا هذه القبائل المتعجرفة وانقذوا هؤلاء الذين يعتمدون عليكم . »

هكذا تكلم القائد ، وبعدها بدأ في تحريك ألويته ، واندفعت طوابير جنده الى الأمام . وعند ذلك الحد ، كانت الفرقة الليبية الموالية آخذة في التقهقر عبر السهول وكانت قبائل لواتة (Languantans) قد حققت انتصاراً . وبدأ بوتزينتولوس (Putzintulus) [٨٣] ، وكوسينا — (Cusina) ، وآييسيريث (Ieisirith) [٨٤] في التقهقر بعد أن قهرت جيوشهم . وفجأة ، شاهدوا ألوية يوحنا (John) مقبلة نحوهم من الخلف ، فاستعادوا حماستهم وأسرعوا بتغيير وجهة خيولهم وعادوا الى القتال في بسالة .

وكان بوتزينتولوس (Pulzintulus) الرهيب أول من تصدى للعدو المهاجم ، واندفع مخترقاً صفوفه في ثورة عارمة . واستطاع أن يصرع آيماستان (Imastan) [٨٥] بعد أن أصابه بجرح عميق ، ثم ضرب نيفاتين (Nifaten) [٨٦] الشجاع بسيفه ، ثم أطاح برأس مامون (Mamon) [٨٧] الأسود ، واستدار لمواجهة عدوه آيرتوس [٨٨] وفصل رأسه عن جسده بضربة من سيفه ، حتى أن دمه سال على جسده مختلطاً بمخه المسحوق ، وبعدئذ اقترب من عدوه أمانتوس (Amantus) [٨٩] وطعنه في عنقه بسلاحه الصلب ، فأصابه به بجرح قاتل ، فانبثق الدم غزيراً من فمه ، ثم من عنقه عندما سحب نصل سيفه . وشاهده ضباط قبائل آيفوراكيس (Ifuraces) [٩٠] وهو في عنفوان ثورته غير بعيد منهم ، وسط أسلحة رجالهم

---

(٨٣) بوتزينتولوس (Putzintulus) : روماني .

(٨٤) جييسيريث (Geisirith) : روماني .

(٨٥) آيماستان (Imastan) : ليبي .

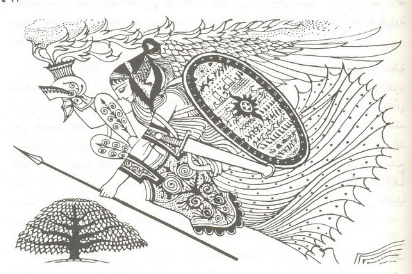
(٨٦) نيفاتين (oofatan) : ليبي .

(٨٧) آمون (Mamon) : ليبي .

(٨٨) آيرتس (Irtus) : ليبي .

(٨٩) أمانتوس (Amantus) : ليبي .

(٩٠) آيفوراكيس (Ifuraces) : قبيلة ليبية .



أنفسهم ، فشكلوا طابوراً من الجند وصوب الآلاف رماحهم إليه ، ثم قذفوه بها ، في وقت واحد ، كان يتلقى الحراب المحفوفة بترسه ، بيد أنه كان يأبى أن يحمي جسده بدروع ، ثقة منه في قوته وبأسه ، وفيما كانت تلك الصّلات من الرماح تطير من حوله ، أحس ، القائد الكبير النفس ، وأأسفاه ، بنصل صلب يخترق جسده تحت صدره . ومع ذلك ، فلم يتأثر بذلك الجرح ، وأخذ يشدّ من عزيمة رفاقه ويأمرهم قائلاً : «أيها المواطنون ، النصر حليفكم . واصلوا القتال أيها الرجال واذبحوا هذه القبائل الكريهة كأضحيات تقدمونها في جنازتي . إذا قهرتم الأعداء ، فسأكون مطلعاً على ذلك ، ولسوف تكتب لي حياة أعظم وأفضل ، وسأجعل القبائل اللواتية (Languantan) [٩١] جزءاً من انتصاراتي وأنا في العالم الآخر . ان قرطاجة ، ببواباتها الشامخة ، سوف تستقبلكم وقد أحرزتم نصراً مؤزراً ، لم يلحق بكم أي أذى ، ولم تفقدوا رجلاً واحداً من رجالكم» . وفيما كان يتكلم على تلك الصورة ، تغلب جرحه على قوته ، فاستقبله الرجال وصدورهم مفعمة بالفرحة والابتهاج ، وأرقدوه في معسكرهم .

(٩١) لانجواتانا (Languatan) : قبائل لواتة .

٥٠٦ / ٥٣٥ وهكذا دخل عضو فرقة العشرة (Decci) عالم الموت، وهو سعيد. ولسوف يظل اسمه موضع تكريم واحترام بعد الحرب، ولسوف يذكر الناس قصة مماته طالما ظلّ أسلافنا يقرؤون عن تلك الحرب الضارية في العصور القادمة.

وبأمر من القائد، أخذت الفرقة الرومانية تشق طريقها بين صفوف الأعداء المتبقية وأوقعوها في فوضى واضطراب. وعندما أخذ العدو في التراجع والهرب، أخذوا يلاحقونه بسيل من سهامهم، بدت وكأنها كتلك السحب التي تصب عواصف كثيفة من الجليد، فتأتي على المحاصيل وتخرّب الحقول الواسعة. وعندئذ تتهاوى سيقان نبات القمح الطويلة، وتفقد السوق الريفية ثمارها، وتعجز الشجرة الغليظة عن حماية أغصانها الرقيقة بأوراقها الكثيفة. لقد كان الرمح الرهيب ينطلق من قوسه طائراً فيصيب أحد الجنود بجروح. وما من سهم أو رمح سقط دون أن يتخضب بالدماء. وحينذاك، هوت الخيول الجسورة صريعة، كما هوت أيضاً الصفوف المتراصة من جند الأعداء، وكان كل نصل مخضباً بدماء قبائل ماسيليا (Massylian) [٩٢] القانية. واقتربت فرقة مسلحة بالحراب الطويلة.

وعلى طول الحقول كان المدافعون عن الشعب يغطون الأرض بجثث الأعداء في تلك المذبحة. كانت سواعد الجند الرومان قد ازدادت سخونة من شدة القتال ولم يكن هناك سلاح روماني لم تخضبه الدماء، فقد أشعل الحزن ثورة غضبهم. من ذا الذي يستطيع أن يصف بالكلمات تلك الأعداد التي لا حصر لها من ضباط الأعداء الذين ذاقوا مرارة الموت فوق تلك السهول، ومن ذا الذي يستطيع حصر عدد الذين قتلوا أو أسروا من رجال العدو؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يذكر أسماء هؤلاء الرجال الذين صرعهم القائد بنفسه. والجنود العاديون من المارماريكان (Marmaricans) [٩٣] يموتون مجهولي الأسماء؟ ومع ذلك، فلسوف أشير في قصيدتي الى قلة من هؤلاء الذين سرت الشائعات بأسمائهم من معسكر العدو الى معسكرنا.

ذاك أن يوحنا (John) [٩٤] اندفع، وهو متسربل بسلاحه، وسط حشود الجند عندما شاهد الأعداء يسدون أحد الممرات. وأخذ يشق طريقه بسيفه وسط الجند المتمردين. ولقد

---

(٩٢) ماسّيليان (Massylian): قوات الثورة الليبية.

(٩٣) مارماريكانس (Marmaricans): قوات الثورة الليبية.

(٩٤) جون (John): قائد الحملة الرومانية.

كان مثل حاصد المحاصيل ، يرقب ميعاد نضج المحصول ، ثم يحصده بمنجله الحادّ. انه يقطع **٥٣٦/٥٦٧**
سويقات النبات بيمناه ويجمعها بيسراه ، ثم يشرع وهو سعيد مبتهج بربط حزم النبات بحبل
رقيق. كان القائد السرتي ألتيلياس **(Syrtic Altilimas)** [٩٥] **قد جرح أصابه**
على يد القائد فهوى على الحشائش برقبة مقطوعة. وعند ذلك ، اندفع ألاكانزا
(Alacanza) [٩٦] **بسرعة صوب غريمه شاهراً رمحه وأخذ يلهب جسد جواده**
الشامخ بمهازه. بيد أن القائد قابله بلا خوف وضربه بسيفه ففصل رأسه عن جسده ،
وشاهدت عينا الرجل الصريع بقية جسده ، وهو يهوي على الأرض. لم يستطع لسانه
أن ينبس ببنت شفة وهو يحتضر ، ولكنه أصدر صوتاً على أية حال. وبعد ذلك
ثنى القائد بـ اسبوتريدان (Esputredan) [٩٧] **ثم واجه كلاًّ من تاماتونيوس**
(Tamatonius) [٩٨] **وآيوجورتان (Iugurtan)** [٩٩] **ببسالة وصرعها. وضرب بسيفه**
مؤخرة جواد آيوديليمين (Audilimen) [١٠٠] **، فهشم ساقيه الخلفيتين ، فانكفأ الجواد على الأرض**
محاولاً النهوض ، وانظروا أن يوحنا (John) المنتصر ، اضاف من ضرباته لقوائم الجواد بسيفه ثم
اقترب من المحارب المتغطرس وهو يحاول النهوض على قدميه وضربه في جبهته ، فغطت الدماء
وجهه فتهشمت عظامه واختلطت بمخه المتناثر ، وأخيراً ، طار القائد بجواده عبر السهل ممسكاً
برمحه. وهاجم فلاّكوس (Flaccus) [١٠١] وطعنه بحربته في صدره فاخترق النصل صدره حتى
ظهره. وانبثق الدم غزيراً من الجانبين وغطى حشائش الأرض. ومن فوق جواده الشامخ ،
طعن سيقان عدوه سيرنيسا (Cernisa) [١٠٢] بحربته ، ثم سارع بطعن ديركوس **(Dercus)** [١٠٣]
المذعور في قلبه. وبعد ذلك ، ضرب جراشوش (Jrachus) [١٠٤] بسيفه في جانبه ، ثم قطع

(٩٥) التيلياس (Altilimas) : ليبي.
(٩٦) ألاكانزا (Alacanza) : ليبي.
(٩٧) اسبوتريدان (Esputredan) : ليبي.
(٩٨) تاماتونيوس (Tamatonius) : ليبي.
(٩٩) أيوجورتا (Iugurta) : ليبي.
(١٠٠) آيوديليمين (Audiliman) : ليبي.
(١٠١) فلاّكوس (Flaccus) : ليبي.
(١٠٢) سيرنيسا (Cernisa) : ليبي.
(١٠٣) ديركوس (Dercus) : ليبي.
(١٠٤) جراشوس (Grachus) : ليبي.

٥٦٨ / ٥٩٤ رأس كوتين (Cutin) [١٠٥] ، وتغلب على كامالوس (Camalus) [١٠٦] بينما كان لا يزال حياً ، وأمسك به من شعره ثم أخذه أسيراً ، وسلّمه الى معاونيه ، ثم عاود ملاحقته لكوكبات الجنود الفارة . ولقد حاول لأبّيس (Labbes) [١٠٧] أن يهاجم القائد العظيم الهمة برمحه المشهور ، ولكنه عندما اقترب منه ، شعر بقسوة عدوه ، فأخذ الرجل البائس يلتمس العفو بصوت ذليل قائلاً : « إنني أتضرع إليك باسم عظام أوانتيس (Euantis) [١٠٨] التي وسدت قبرها اللائق بها ، وباسم ولدك بيتر (Peter) [١٠٩] الذي تطبق شهرته الآفاق الآن بين صفوف الأعداء ، والذي يهاجم القبائل الهمجية ومملكتها ، وباسم أعمالك البطولية التي هزمت بها قبائل لواتة (Ilasguas) [١١٠] ، أن تبقى على حياتي بعد كل تلك الجرائم التي ارتكبتها ، وأن تبقى عليّ لما بعد الحرب كرمز لانتصارك . وانه ليسعدني أن أخدم رجلاً مثلك . » ولقد تأثر القائد بتلك الكلمات ، فلم يضربه بسيفه ، ولكنه سارع بتقييد ذراعيه خلف ظهره بحبل غليظ .

أما ريسينار يوس (Recinarius) [١١١] النبيل ، فقد هاجم يورتانيك (Urtanc) [١١٢] الفظ وسرعان ما غرس رمحه الصلب في صدره . وأخيراً هوى ذلك الجندي العظيم الذي كان جزءاً من تلك الحرب البشعة تحت قدميه ، وأخذت دماء يورتانيك (Urtanc) ذلك الرجل العظيم النفس ، والجندي الشاب الذي لا يقهر ، تخضّب الأرض من تحته . ثم ثنّى ريسينار يوس (Receinarius) بالجندي الشجاع ذي البأس ميلان (Meilan) [١١٣] ، فألقى به على الأرض بلا حراك بعد أن ضربه بهراوته الضخمة ، ثم انقض بسيفه البتار على ألانتاس (Alantas) [١١٤] فقطع رأسه ، وثنّى بـ ساكوما (Sacoma) [١١٥] الأسود ، وهو يهوي على الأرض . وكان جواد ساكوما (Sacoma)

---

(١٠٥) كوتين (Cutin) : ليبي .

(١٠٦) كامالوس (Camalus) : ليبي .

(١٠٧) لأبّيس (Labbes) : ليبي .

(١٠٨) أوانتيس (Euantis) : روماني .

(١٠٩) بيتر (Peter) ابن يوحنا قايد الحملة الرومانية .

(١١٠) (Ilasguas) : لواتة .

(١١١) ريسيناريوس (Recinarius) : مستشار ليوحنا .

(١١٢) يورتانيك (Urtanc) : ليبي .

(١١٣) ميلان (Meilan) : ليبي .

(١١٤) ألانتاس (Alantas) : ليبي .

(١١٥) ساكوما (Sacoma) : ليبي .

٥٩٥/٦١٣ السريع لا يزال منتصباً وهو يضرب الأرض بحوافره ، بيد أن البطل أخذ يطوّح بسوطه ويضرب به جانبي الجواد حتى اضطره الى الانطلاق فزعاً فوق السهول الفسيحة ، بعد أن وطأت حوافره جسد سيده المشوّه. ثم طار ريسيناريوس (Ricinarius) بجواده عبر السهول الفسيحة ، يضرب هنا وهناك فيطيح بجنود الأعداء ، ثم أخذ في مهاجمة القبائل السرتية (Syrtic) [١١٦] بجميع ما لديه من سلاح . وأثناء ذلك ، استطاع أن يصرع آفون (Afun) [١١٧] المشهور بخفة حركته ، والجندي الشجاع نيكاندير (Nicander) [١١٨] ، واخترق بسيفه جسد سوكير (Sucer) [١١٩] ، وأصابه بجراح عديدة . ثم ثنّى بـ ثادوس (Thadus) [١٢٠] فذبحه ، وصرع ايرانكون (Erancun) [١٢١] الجسور ، ثم ضرب تينيدوس (Tinidus) [١٢٢] بسيفه ، وطعن انيبتين (Enipten) [١٢٣] برمحه .

واستطاع بوليتازيس (Bulmitzis) [١٢٤] أن يتغلب على تومودان (Tumudan) [١٢٥] بحربته ، وأكره ليكوردان (Licurdan) [١٢٦] على الفرار من السهول ، ثم قذفه بسهم فأصاب ظهر المتمرد ورئتيه ، وخرج من صدره . واندفع سوكّور (Succur) [١٢٧] فاراً فوق جواده ، يتبعه سولوموث (Solumuth) [١٢٨] . وعندما عجز (Solumuth) عن أن يدركه ، قذفه برمحه المصنوع من خشب الدردار من مسافة بعيدة ، فاخترق نصل الرمح الصلب جنب الجواد ،

---

(١١٦) (Syrtic) : قبائل سرت.

(١١٧) آفون (Afun) : ليبي.

(١١٨) نيكاندير (Nicander) : ليبي.

(١١٩) سوكير (Sucer) : ليبي.

(١٢٠) ثادوس (Thadus) : ليبي.

(١٢١) ايرانكون (Erancun) : ليبي.

(١٢٢) تينيدوس (Tinidus) : ليبي.

(١٢٢) تينيدوس (Tinidus) : ليبي.

(١٢٣) انيبتين (Enipten) : ليبي.

(١٢٤) بوليتازيس (Bulmitzis) : روماني.

(١٢٥) تومودان (Tumudan) : ليبي.

(١٢٦) ليكوردان (Licurdan) : ليبي.

(١٢٧) سوكور (Succur) : ليبي.

(١٢٨) سولوموث (Solumuth) : روماني.

٦١٤ / ٦٢١



وهوى الجواد متأثراً بجرحه ، فسحق راكبه تحت جسده . وهكذا ، دون جروح في الحرب ، أسلم سوكور (Succur) روحه لعالم الفناء ، ان الجواد الذي كان يأتمنه على نفسه ، قد خذله ، فلم يسعفه بسرعته ، وهو ينطلق صوب صفوف العدو . كذلك لم تسعفه شجاعته ، ولن ينقذه جورزيل (Gurzil) [١٢٩] بقوته المقدسة ، ولم ينتزعه أحد من براثن مصيره .

كذلك ، فإن حامل أسلحة القائد ، ضرب فارتوس (Vartus) [١٣٠] بسيفه ، ففصل رأسه عن كتفيه ، فيما قطع أستيت (Astit) [١٣١] رأس بلولينا (Plulina) [١٣٢] ، وميك

---

(١٢٩) جورزيل (Gurzil) : إله ليبي .

(١٣٠) فارتوس (Varyus) : ليبي .

(١٣١) أستيت (Astit) : روماني .

(١٣٢) بلولينا (Plulina) : ليبي .



(Mes) (١٣٣) ، وانيردوس (Enerdus) (١٣٤) . أما دوروتيس (Dorotis) (١٣٥) فقد ذبح تيلوتزانت (Tilutzant) (١٣٦) بسيفه .

وبعد ذلك ، اندفع فاستيتا (Fastita) (١٣٧) وقذف جواد أنزاتال (Anzatal) (١٣٨) برمح فاخترق جسده . وسارع الأخير وسط الآلاف من رجاله ، وغاب بين جنوده ، واحتمى خلف أسلحتهم المتراصة .

---

(١٣٣) ميك (Mec) : ليبي.
(١٣٤) أنيردوس (Enerdus) : ليبي.
(١٣٥) دوروتيس (Dorotis) : ليبي.
(١٣٦) تيلوتزانس (Tilutzant) : ليبي.
(١٣٧) فاستيتا (Fastita) : روماني.
(١٣٨) انزاتال (Anzatal) : ليبي.

٦٢٧ / ٦٥٠ أما كاركاسان (Carcasan) [١٣٩] وقد أصابه اضطراب شديد لمصرع العديد من رجاله، فقد أمر بتحويل وجهة ألويته بوصفه القائد، للتقدم وسط صفوف الأعداء يتبعه الآلاف من رجاله. ولمحه القائد العظيم يوحنا (John) وهو يتقدم، فانتزع الأسلحة من حامل سلاحه. وهاجمه بحربة طويلة محاولاً طعنه في صدره ثم وجه ضربته بكل ما فيه من قوة بلا خوف أو وجل فانبثق الدم غزيراً من الجرح العميق واخذ يسيل على سلاحه ويتناثر على رداء القائد. وبموت الطاغية، تحطمت صفوف قبائل المارماريكان (Marmarican) [١٤٠] وغشاها الاضطراب والفوضى فأخذت تلوذ بالفرار. وعند ذاك، لم يعد واحد منهم يقذف بسلاحه صوب الأعداء، ولكنهم جميعاً أرخوا العنان لخيولهم لكي تستطيع القفز والانطلاق بعيداً. وعندئذ، لم يعد لقائد الناسامون (Nasamanian) [١٤١] أي ثقة في معسكره، بعد أن اختلط الفرسان بالمشاة وانطلقوا يواجهون الموت فوق الحقول الفسيحة. ومضت الألوية الرومانية في أعقابهم، مع الضباط والجنود والمدافعين عن الشعب الشجعان. وكذلك، فإن يوحنا، فقد طار لجواده أمامهم وهو سعيد بتلك المعركة الناجحة، وأخذ يضرب تلك الفرق المتراصة فيصرعها ويلقي بها فوق الحشائش. ولقد كان الحقل مستوياً، فاستطاع الجنود أن يركضوا بسهولة وحرية وأن يصرعوا ضباط الأعداء وجنودهم. واندفع الرجال وأخذوا يعملون التقتيل في جنود مارماريكا (Marmaricans) [١٤٢] الوثنيين هنا وهناك. وهزمت قبائل لواتة (Illasguas) [١٤٣] ودفعت الثمن غالياً. أما صفوف قبائل افوراكاس (Ifuracas) [١٤٤]، وفريكسيس (Frexes) [١٤٥]، ونافور (Naffar) [١٤٦] فقد سلمت أعناقها للسيوف، ولاذ البعض منها بالفرار يلاحقهم عقاب الجند الرومان. واندفعوا

---

(١٣٩) كاركاسان : (Carcasan) : قائد التجمع الليبي الثاني.

(١٤٠) (Marmarican) : يقصد التجمع الليبي.

(١٤١) ناسامونيان (Nasamanian) ربما يقصد بقائد الناسامون هنا أنتالاس حيث أن كاكاسان قد مات كما ذكر في سطرين سابقين.

(١٤٢) (Marmaricans) : التجمع الليبي المعادي للرومان.

(١٤٣) (Illasguas) : لواتة.

(١٤٤) (Ifuracas) : قبائل ليبية ضمن التجمع الليبي المعادي للرومان.

(١٤٥) (Frexes) قبائل ليبية ضمن التجمع الليبي المعادي للرومان.

(١٤٦) (Naffar) قبائل ليبية ضمن التجمع الليبي الليبي المعادي للرومان.

في حشود كثيفة يتعلقون بأغصان الأشجار ويحاولون الاختفاء بين أوراقها . وهناك أخذ الجنود ٦٥١/٦٥٦ ذوو البأس يهاجمونهم ، بعد أن أوقعوهم في ذلك الشرك ، تماماً كما يوقع الصياد الماهر الطيور في شركه ، وأخذت الدماء تنهمر من جميع الأشجار .

فهرس الاعلام



الفهرس العام

الثاء

الدال

الراء

الزاي

السين

الصاد

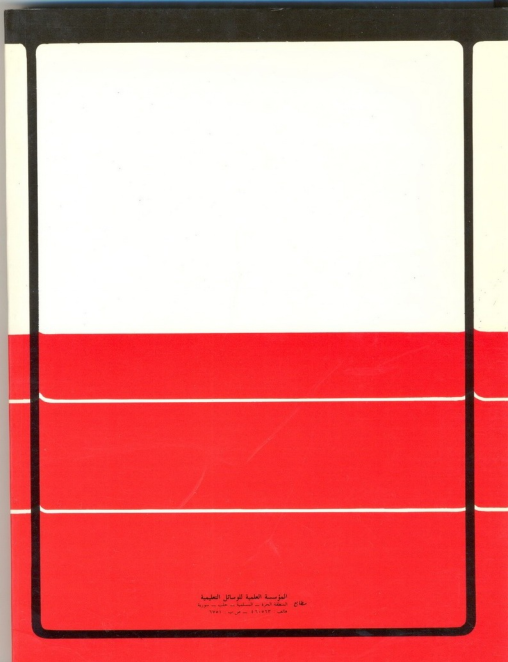
الفاء

القاف

الكاف

اللام

النون


مطابع المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
المنطقة الحرة ـ السلمية ـ حلب ـ سورية
هاتف : ٤٦٠٥٦٣ ـ ص.ب : ٦٧٥١